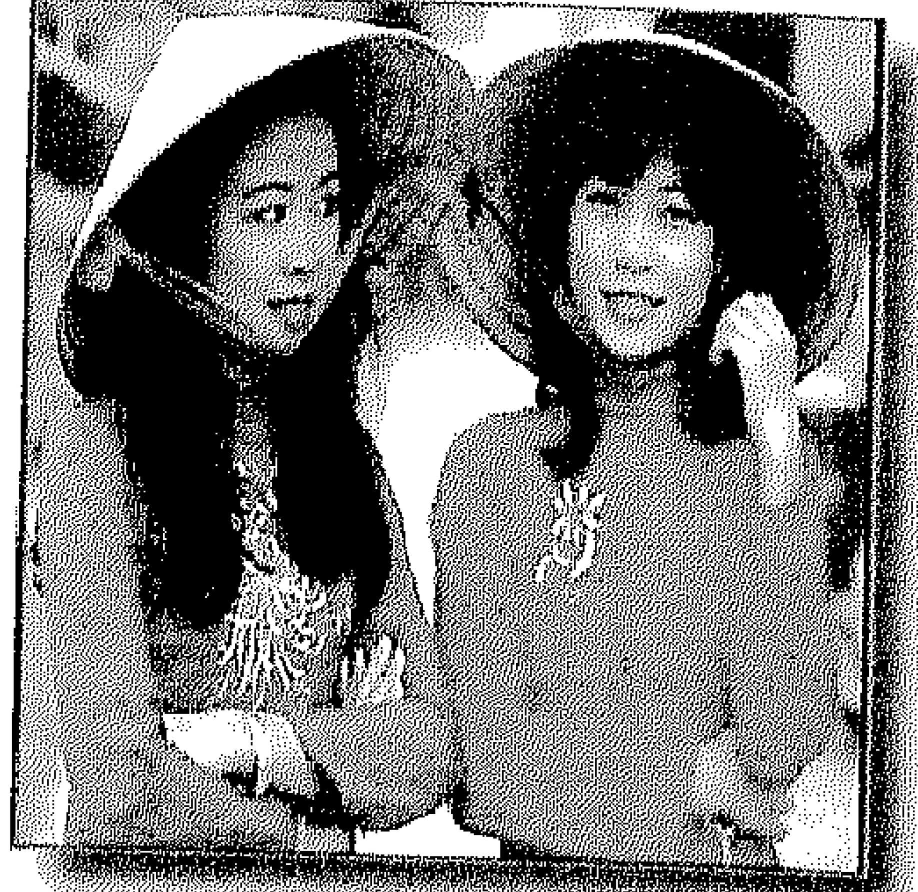
لو شه

أناس من بكين





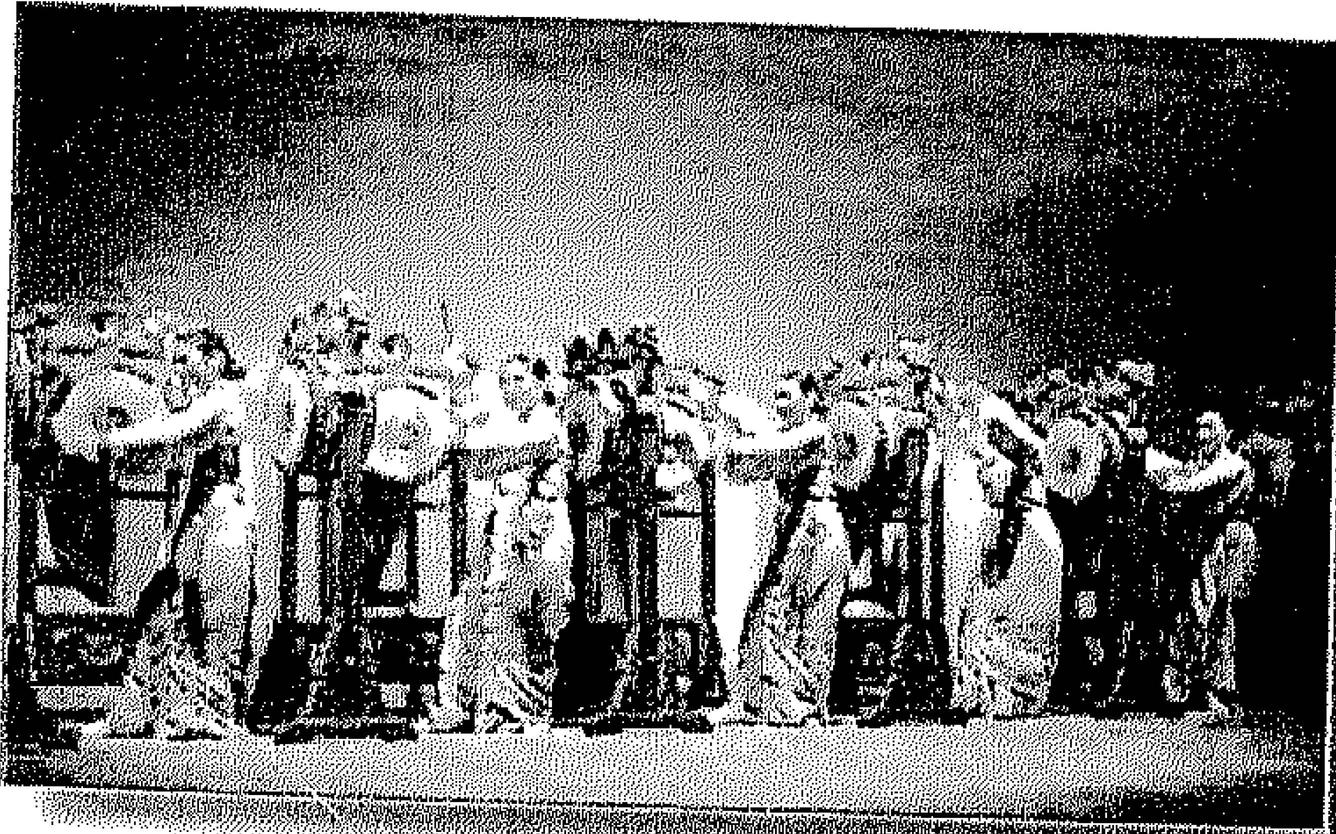


قصص عالمية











ترجمة: ريم جوزيف زحكا



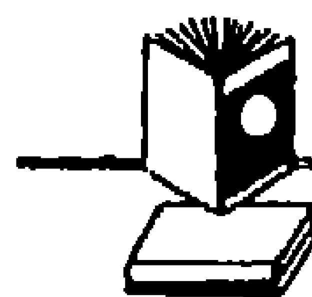
لــو شــه

أنــاس مــن بكيــن

قصص عالميــة

ترجمة

ريم جوزيف زحكا



منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠١

العنوان الأصلي للكتاب:

Gens de Pékin

taduit du chinois
par Paul Bady,
Li Tche-Houa, Françoise Moreux,
Alain Peyraube,
Martine Vallette-Hémery
Préface de Paul Bady
Gallimard

أناس من بكين : قصص عالمية = Gens de Pekin / لوشه ؛ ترجمة ريم جوزيف زحكا . - دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠١ . - ٢٦٤ص ؛ ٢٤ سم.

١- ٨٩٥٫١٣ ل و ش أ ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- لوشه ٥- زحكا مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع - ١٩/ ١/ ٢٠٠١

الاهداء

الى مدينة الأمس

أصدقاء اليوم

وسكان الغد

مقدمة

«أولئك الذين يبقون دون تغيير يتسمون بصفة لا تتوفر إلا فيهم» .

جورج روديتي

ليس القاص الشعبي هو ذاك الذي يخطب بل على العكس هو الذي يسمح للآخرين بالكلام، لم يتوان لو شه في نتاجه كما في مسرحياته وأقاصيصه ورواياته عن تقديم الكلمة لأولئك الذين لا يملكونها. لساحبي العربات كما لفتيات الليل، لموظفي المخازن كما لمفتشي الشرطة، لمدبرات البيوت كما لصغار الموظفين، للحرفيين كما للفنانين، باختصار، إلى جميع أولئك الذين تحدث عنهم الأدب بشكل عرضي أو مختصر حتى قام هو بذلك.

لم يكتف لو شه بالانزواء بشخصيته وراء شخوصهم بل جعل من نفسه صديقاً لهم في نكباتهم إن لم يكن أكثر. فكان في أغلب الأحيان يدعهم يتحدثون عن أنفسهم بضمير المتكلم كي يتمكنوا من البوح بما يعتمل في صدورهم أو يجول في فكرهم. أو يجد طريقة غير مباشرة في كشف حياتهم الداخلية. فهم أيضاً يملكون واحدة وتكفي حركة أو جزء من جملة وحتى نبرة بسيطة لترجمة حالتهم النفسية أو لكشف أفكارهم.

من بين كبار الكتّاب الصينيين المعاصرين يعد لو شه واحداً من الأوائل الذين استعانوا إلى حد كبير بجميع الوسائل التي توفرها اللغة المحكية في الأدب. إنه

أفضل بكثير من معاصريه الذين يخلطون أحياناً «اللغة الفصحى»baihua مع عملية تغريب[1] النحو والمفردات. كلا، إنها بحق اللغة البيكينية التي يستعملها الروائي بفن فطري. النص كما هو مكتوب ليس لسوء الحظ إلا صورة ناقصة جداً تقل فيها النغمات والأصوات والرنات وحروف التعجب والعديد من اللواحق وحتى الحروف تكون في بعض الأحيان مغلوطة، وغالباً ما تكون علامات الترقيم ناقصة.

غير أن الأهمية تكمن في أن أياً كان قرأ أو يقرأ بصوت عال لو شه يتذكرها كما يتذكر المرء موسيقى مبتكرة. منذ أول علامة موسيقية لا يمكن للقارئ أن يخطئ كما لو أنه في دار للأوبرا: إنه في بكين وسط البيكينيين حتى أنه في بعض الأحيان، خلال الوصف، يحدث أن تبدو المدينة تتحدث بنفسها عن نفسها، عن جمال سمائها أو آثارها الإمبراطورية.

لم يتمكن لو شه، حاله كحال ماركو بولو أو سيغالان اللذين ذهلا من بهاء العاصمة القديمة رغم مرور سنوات بينهما، من مقاومة الفتنة السحرية التي تنبعث من المدينة. كذلك الحال بالنسبة لأزقتها الأكثر ضيقاً ولزقاقه الذي ولد فيه عند منعطف القرن، كذلك الأبواب الكبيرة في نهاية الجادات الواسعة التي كانت تقسم الفضاء المديني.

قرية واسعة رقيت إلى رتبة عاصمة، لم تعد بكين عندما كتب لو شه، أي في الثلاثينيات، إلا «سلام الشمال»peiping. بعد سقوط الإمبراطورية، لم تتمكن العائلات القديمة الماندوشية من خدمة النظام الجمهوري الجديد ولا حتى أن تحط من شأنها: فوق ذلك، لم يعد بإمكان جنود «الرايات» الشهيرة استعمال الأسلحة أو ركوب الخيل بعد ذلك. فقاموا بأود أنفسهم عن طريق بيع مساكنهم الراقية الواحد تلو الآخر مع كل الكنوز التي كان تحتويها.

بعد عام من ولادته أصبح لو شه يتيماً وسرعان ما أضحى بلا «أب أو أمير» wu fu wu jun. عاش سنوات طويلة على ذكرى ما كان هو ذاته يعرفه ويراه يختفي تدريجيا. من هنا انبثقت هذه النظرة لعالم الآثار أو بالأحرى لعالم الأعراق

---

(١) جعل أمراً غربي السمة أو الثقافة.

الـذي يحاول بنجاح ترميم عـالم على وشـك أن يغرق في النسيان. من هنا أيضاً برزت فكـرة يسيطر علـيهـا بشـكل دائم هـوس الزمن مثلمـا يحدث مع كل كـاتب عظيم.

الأزمنة، لأنه إذا كانت الأخلاق تتغير بسرعة، خاصة تحت تأثير الأجنبي، كل واحد من الناس الذين يقدمهم لنا الكاتب لنراه ونسمعه، له زمنه الخاص به وطريقته الخاصة في أن يحياه وأحياناً في أن يفقده مثل ذلك الممثل الفاشل الذي ظن حتى النهاية أنه في يوم ما سيصل إلى مبتغاه.

اختفاء عالم، سقوط فرد. روايات وحكايات لو شه التي اختيرت لهذه المجموعة تقدم أيضاً فائدة جليلة قياساً إلى أنها توضح مباشرة ما يمكن أن نلقبه بحدود «الحضارة»wenming الغامضة جداً والتي تتناقض مع «الوحشية» yeman أو «البربرية»ye. في هذا العالم الفريد بطرازه، في هذا المجتمع حيث يفترض أن تسود «التقاليد» القديمة أو «المبادئ» guijin تكون المومس فتاة شريفة والشرطي أنموذجاً لرجل فقير تخونه زوجته والمعلم «العصري» وزوجته هما في نهاية الأمر أناس كالآخرين: فخوران بتعليمهما العالي كانا يظنان أنفسهما أعلى شأناً من الغير، لكن الأمر انتهى بهما إلى أن خرجا عن طورهما عندما داس أولاد الجيران على الأزهار ثم سرقوا ثمار حديقتهما.

تبدو ظاهرياً الصرخة التي أطلقها الكاتب ميؤوساً منها فبكين لن تعود لتكون في يوم العاصمة التي كانتها. هذه الصرخة تشبه صرخة المعلم العجوز للفنون الحربية، والموجعة بدورها، في نهاية «حربة الموت»: كلا، لن أورث شيئاً! لكن طيبة البشر، إنسانيتهم الشديدة وطباعهم هي قيم يمكن للأحداث السياسية أن تهددها فهي لا تضر بها في فترة قريبة. كما أنه ثمة رسالة أو درس نستخلصه من هذا النتاج الأدبي الذي، باختلافه عن المسرح الذي تم تأليفه بعد ذلك، لم يكن يحتمل في مضمونه أية قضية، وهذا الدرس هو أن الإنسان في بكين بتنوعه وخصوصيته سينجو من الثورات كلها. وهذا سيحدث على الرغم من أن ا الكاتب

نفسه، واحد من أوائل ضحايا الثورة الثقافية، لم يتمكن شخصياً من الإفلات من جلاديه الشباب.

حتماً لم نعد نرى ذاك الإنسان اليوم. لكن كما قال لوشه نفسه، فقط أولئك الذين يمرون من مدينته مسقط رأسه يمكن لهم أن يطلقوا عنها وعن شعبها أحكاماً قطعية. الآخرون يصمتون أو يرغمون على مناقضة أنفسهم. إنما الحياة بالتحديد على هذه الشاكلة: مزيج من الضحك والبكاء بلا نهاية، أحلام قصيرة ويأس طويل الأمد. بالنسبة للكثيرين هي وهم يتقوض في الوقت ذاته الذي يخلق فيه. ولغيرهم، السعداء أكثر، هي حلم رائع ومجنون ينتهي بالنور؟

بول بادي

حربة الموت

ليست الحياة سوى لعبة، كل شيء يثبت هذا القول المأثور. حتى وقت قريب كان الشك يراودني حيال هذا الأمر، غير أنني مقتنع به كل الاقتناع.

تحول بناء الحراسة القديم الذي يعود لشازيلونغ[1] إلى نُزُل قديم.

كان الشرق قد أُرغم على الاستيقاظ من حلمه الكبير. وأسكت دوي المدافع زئير النمور في غابات الهند وماليزيا. بالكاد استيقظ الناس من نومهم وهم لايزالون يفركون أعينهم، حتى شرعوا بالابتهال لآلهتهم وأجدادهم، ما هي إلا لحظة حتى فقدوا بلدهم وحريتهم واستقلالهم. أمام أبواب منازلهم، كان رجال آخرون ينتصبون بسحنات مختلفة، مدججين بمدافع لا تزال بعد ساخنة. بماذا كانت ستفيدهم رماحهم الطويلة وأقواسهم ذات السهام المسمومة، ودروعهم السميكة المزخرفة بأفاع مبرقشة، إذا لم يستطع أسلافهم ولا حتى آلهتهم الوقورة منذ قديم الزمان أن تقدم لهم يد العون؟ حتى الصين ذاتها، برمز التنين، قد سلب منها سرها منذ أن خربت خطوط السكك الحديدية، وهي تجتاز القبور والمدافن، التنجيم بالرمل.

رجال المرافقة براياتهم العنابية ذات الشرابات العديدة، وسيوفهم المضلعة الفولاذية في غمدها المبطن بجلد القرش الأخضر، وجيادهم المنغولية التي تصم الآذان بجلاجلها، رزانتهم وبلاغة لغتهم، شرفهم وسمعتهم، شازيلونغ نفسه

---

(١) البطل في رواية «قصة الممالك الثلاث».

ومهارته كمحترف للفنون الحربية وعمله العظيم، كل ذلك قد اختفى في الليل كما يختفي الحلم. أضحت الساعة ساعة السكك الحديدية والبنادق والمرافىء المشرّعة والرعب. حتى أنهم يخططون على ما يبدو لقطع رأس الإمبراطور. إنه العصر الوسيط حيث كان الحرس الخاص يقضي جوعاً، قبل أن تعود أمجاد الفنون الحربية الوطنية للظهور من جديد على يد المتعلمين والأحزاب الثورية.

لا يمكن لأي شخص كان يعرف في الماضي شازيلونغ أن ينساه بسبب عينيه اللاّمعتين مثل نجمتين كبيرتين في ليل تجمد فيه الندى. لكن في الوقت الذي تبدأ فيه قصتنا، هذا الرجل الذي كان حتى الأمس القريب قصير القامة ونحيلها، يتمتع برشاقة وقوة نادرتين، قد أضحى منتفخ الجسد. إنه يشغل وراء النزل الذي أقيم مكان وكالته القديمة مقصورة صغيرة من ثلاث معزبات تطل على الجنوب. لقد احتفظ بحربته الطويلة، منتصبة في زاوية أحد الجدران، ولكن في الساحة لم نعد نرى إلا بضع حمامات. فقط أثناء الليل، بعد أن يرتج جيداً بابه يبدأ التدريب مع حربة الموت تلك الملقبة «ذات النمور الخمسة». لقد أكسبته هذه الحربة وكل الفنون التي يفترض أن تتأتى منها، خلال عشرين عاماً في المنطقة الشمالية والشرقية لقب «شازيلونغ ذو الحربة السحرية». ولم يستطع قط أي رجل أن يضاهيه في ذلك. بيد أنها في هذه الساعة الراهنة لم تعد تمده لا بالشرف ولا بالمجد. إنّه فقط عندما يداعب العصا الباردة المصقولة، القاسية والمرتجفة لسلاحه، يشعر بقليل من العزاء في نفسه. فقط أثناء الليل والسلاح في يده يقتنع أنه لا يزال ذاك الذي كانوا في الماضي يدعونه «الرجل ذو الحربة السحرية» أما في النهار، فلا يتحدث البتة لاعن ماضيه ولا عن فنونه الحربية. كل عالمه ذاك كان ينمحي بعاصفة هوجاء. غالباً ما كان الشبان الذين تدربوا على يده يزورونه باستمرار. جميعهم تقريباً كان يعاني من البؤس، والمهارة التي اكتسبوها لم يعد بالإمكان توظيفها. البعض منهم لا يزال

يثبت لنفسه مهارته خلال معارض الباغود[1]. كأن يمارسوا الملاكمة المرعبة بركل الأقدام، استعمال الأسلحة، ألاعيب بهلوانية وما يتبع ذلك من بيع للمنشطات الخارقة. وكل ذلك يعود عليهم بمئتين أو ثلاثمئة سابيك فقط. البعض الآخر، لعدم قدرته على البقاء عاطلاً عن العمل أكثر من ذلك، كان يشتري سلتين من الفاكهة أو الصوجا الخضراء ليبيعها بالمفرق صباحاً، وهو يصيح على بضاعته في الشوارع. في ذلك الوقت، كان الأرز واللحم رخيصي الثمن. أولئك الذين يرغبون في مديح قوة عضلاتهم، لا يزالون يتمتعون بمعدة ممتلئة تماماً. لكن الحال لم يكن كذلك مع أولئك الذين نتحدث عنهم: فبسبب شهيتهم الكبيرة للطعام كان يلزمهم غذاء غني ومغذ للغاية، لذا لايقدرون على الاكتفاء بالخبز القَفار والطلمية بالفلفل. كذلك، عندما تسنح الفرصة وتطوف المواكب، نراهم في المقدمة متنكرين بلباس الأسود أو الأشبال أو حتى بلباس النمور، يقومون برقصة العصا[2]. بالطبع لم يكن ذلك جديراً بالذكر أمام مهنتهم كحرس خاص، بيد أن ذلك يوفر لهم إمكانية التدرب أمام الملأ وإظهار مواهبهم. لكن إذا كانت المشاركة في هذا النوع من العروض تقدم لهم اعتزازاً أكيداً، إلا أنها تلزمهم أيضاً ارتداء لباس مناسب: سروال من الكريب الحريري الأسود اللازوردي وقميص جديد من القماش الأبيض الناعم، وخف مزين بأصداف السمك، والأفضل من ذلك زوج أحذية من الساتان الأسود يدعى «قوائم النمر». لم يكن شازيلونغ ليعترف لهم بهذا اللقب، لكن عبثاً، إنهم يعتبرون أنفسهم تلاميذه وبهذه الحالة عليهم أن يحفظوا ماء وجههم أينما حلوا، حتى لو كانت مشاركتهم في المواكب تكلفهم المال أو تعرضهم للتورط في مشاجرة. إذا أعوزهم المال، يطلبون إعانة مالية من المعلم الكريم دوماً، فيقدم لهم مبلغاً محترماً نوعاً ما ولا يدعهم أبداً يرحلون خالي الوفاض. بالمقابل، عندما

(١) عيد تنظمه دورياً معابد مختلفة في بكين أو يقام خارج العاصمة.

(٢) رقصة النمور الخمسة في الاحتفالات الدينية.

يتوجهون إليه وفي نيتهم الضرب المبرح[1] أو الاستعراض، ليتعلموا ضربة سيف سرية أو ما شابه ذلك، على سبيل المثال «نزع السيف بلا سلاح» أو «القتال بحربة في مواجهة سيف برأس نمر» كان المعلم في أغلب الأحيان يتهرب من طلبهم وهو يمازحهم: «تتعلم ماذا؟ كيف تأخذ أو كيف تترك!» أو يطردهم بكل بساطة. ولعدم قدرتهم على تَفهُّم موقفه كانوا يحقدون عليه قليلاً.

على الرغم من ذلك، كانوا يطنبون باستمرار في إطراء معلمهم العجوز. من جهة، كانوا يلحون على إعلام الجميع أنهم في مجال الفنون الحربية، قد تلقوا تعليماً حقيقياً على يد الرجل الفذ. ومن جهة أخرى، كانوا يرغبون في استفزازه، آملين أن يتحداه في أحد الأيام رجل ما ويضطر المعلم للكشف عن واحدة أو اثنتين من ضرباته الأكثر ترويعاً. حسب أقوالهم، قام شازيلونغ بصرع ثور بضربة واحدة من قبضته! وركلة واحدة من قدمه كفيلة برمي رجل فوق سقف منزل! لم يشهد أحد مآثره. غير أنهم من فرط ما سمعوها، انتهى بهم الحال إلى تصديقها: لا شيء ينقص لذلك لا المكان ولا الزمان. تلك هي الحقيقة المحضة وهم يقسمون على ذلك.

رتب وانغ سانشينغ، المساعد الأول لشازيلونغ أسلحته في مسندها، وهو جالس في مكانه في حرم المعبد المكرس لآله الأرض. كان يرسم دوائر بواسطة سوطه الفولاذي ذي العقد الخيزرانية ليوسع المكان قليلا، وهو يلطخ أنفه الذي أضحى أسمر اللون من التبغ الذي يتنشقه، ثم رمى سوطه جانباً، وبدلاً من تحية الجمهور من جميع الجهات أخذ يخطب وقد وضع يديه على وركيه:

«أدوس بقدميّ شجعان الإمبراطورية كلها، أصارع بقبضتي أبطال المقاطعات الخمس»

ثم أضاف وهو يجول النظر في المشاهدين:

---

(١) مشاجرة عنيفة يصحبها الضرب والشتم.

«أصدقائي الأعزاء، ليس وانغ سانشينغ بالبهلوان المحترف، لقد كان بفضل مهارته بالفنون الحربية جزءاً من حرس الدفاع في الشمال الشرقي وعقد صداقات مع شجعان الغابات الخضراء[1]. وكونه بلا مشاغل الآن، قام بحجز هذا الموقع ليسر الحضور: أولئك الذين يجدون في أنفسهم الرغبة في استعمال الأسلحة، ما عليهم سوى دخول هذه الحلبة. لأنّه بالفنون الحربية وحدها يعقد وانغ سانشينغ صداقاته. إنّ قبولي لتحدياتكم يشعرني شخصياً بالإطراء. كان شازيلونغ ذو الحربة السحرية معلمي. وهذا يؤكد لكم أنني لا أمزح أبداً. أيّاً من السادة يشرفني ويقبل المنافسة معي؟».

كان مقتنعاً أنّه لا أحد يتجرأ على قبول تحديه، فإذا كان إعلانه محملاً سلفاً بالتهديدات فإنّ سوطه الفولاذي أيضاً كان أثقل من ذلك بكثير: فهو يزن بحق ثماني عشرة ليبرة. كان وانغ سانشينغ مارداً حقيقياً بوجه ذي ملامح فظة، يحدق بعينيه الجاحظتين المتسكعتين وحدقتيهما السوداوين الكبيرتين. لم ينبس أحد ببنت شفة.

خلع عنه قميصه، أحكم شد حزامه العريض بلونه الأزرق السماوي على كرشه، بصق في باطن يده وتناول سيفاً كبيراً.

– فليسمح لي الجمهور الكريم أن أبدأ بتمرين صغير. استأنف القول. لكن ذلك لن يكون مجاناً. من معه نقود فليرم ببعضها، ومن ليس معه ما عليه سوى أن يشجعني بتصفيقه. نحن هنا لا نكتفي بالكلام كما سوف تشهدون!

السيف مضموم إلى جسده، العينان جاحظتان، الوجه مشدود القسمات، عضلات صدره بارزة مثل أرومتين عجوزتين لنبتة جار الماء، ضرب الأرض بقدمه ورفع سلاحه الذي اهتزت أهدابه الأرجوانية حول كتفيه، تطاير نصل السيف أفقياً وعمودياً، إلى اليمين وإلى اليسار. انحنى الرجل، قفز، ابتعد ثم استدار. مع كل

(١) التجأت جماعة من المتمردين الجياع إلى هذه الغابات كملاذ لها حسب رواية أخرى للكاتب.

حركة من حركاته كان الهواء الذي يثيره يهتز ويصفر . فجأة، أخذ السيف يحوم في باطن يده اليمنى بينما كان ينحني، وصمت مطبق يخيم حوله، لا يعكر صفوه دوري أو غراب . فقط كان يُسمع خشخشة خفيفة للخلاخل المعلقة بين الأهداب . تناول السلاح من جديد بيده، تظاهر أنه يقوم بمعركة وانتصب هو يهيمن على الحضور بقامته، كأنّه برج أسود اللون ليتسمر في الوضعية النهائية . وقال :

– وهكذا يا سادتي الحضور! .

جال النظر في الحضور المحتشد من حوله، وهو يشد بيده اليمنى على السيف، ويده اليسرى فوق وركه . لدى رؤيته القطع النقدية القليلة التي ألقوها له . هز رأسه قائلاً :

– أيها السادة الحضور! ردد بإلحاح .

لكنه انتظر عبثاً . فوق الأرض لم تكن تلمع سوى بضع قطع صغيرة نحاسية . وكان متسكعو الصفوف الأخيرة يتوارون سراً عن الأنظار .

– ليس ثمة هواة حقيقيون . تنهد قائلاً بصوت خفيض متحدثاً إلى نفسه . لكن الجميع كان قد سمعه .

– مع أنّك موهبة فذة! انطلق بالقول فجأة عجوز بلحية تميل إلى الاصفرار، كان يجلس في الزاوية الشمالية الشرقية من الحضور .

– ماذا؟ صاح وانغ وكأنّه لم يع ما قيل .

– أقول : حقاً يا للموهبة! ردد العجوز بنبرة لاذعة جداً .

رمى وانغ سلاحه أرضاً ودار ببصره والحضور يحذون حذوه باتجاه العجوز الذي لم يلحظه أحد حتى تلك اللحظة . كان رجلاً ضامراً قصير القامة، يغطي كتفيه رداء من القماش الأزرق، وجنتاه ضامرتان وقسماته مشدودة، وعيناه غائرتان . كان زغب أصفر يزين شفته وفوق رقبته تتدلى ضفيرة بلون القش، صلبة مثل قضيب لكنها أقل استقامة وملاسة . مع ذلك أيقن وانغ سانشينغ أنّه يواجه

خصماً خبيراً. كانت جبهة العجوز تلمع وعيناه تبرقان. وتحت قوس الحاجب، يتطاير من حدقتيه شرر داكن اللون مثل الماء في أعماق البئر. على الرغم من ذلك لم يكن وانغ ليشعر بالرهبة: إنّه قادر على تقدير مستوى الآخرين، لكن ثقته بموهبته الخاصة كانت تجرفه معها. أليس هو أفضل نائب لشازيلونغ؟

– ألا ترغب في الدخول إلى الحلبة أيها العم العجوز؟ اقترح بأدب جم.

هز العجوز رأسه وتقدم، لدى رؤية قيافته المضحكة، أخذ الجميع يضحكون هازئين. إنّه بالكاد يحرك يديه ويمشي وقدمه اليسرى في المقدمة دوماً، ويسحب اليمنى خلفه. إنّه ينتقل بخطوات صغيرة، متصلب الجسد وكأنه مشلول. بينما كان يتقدم بمشقة وسط الحضور، ثم يرمي ثوبه أرضاً، لم يكن يعير ضحكات الحضور أي اهتمام.

– هل تدعي أنك تلميذ الرجل ذو الحربة السحرية؟ هذا حسن، أنت ستقاتل بالحربة وماذا عني؟

كان العجوز يتحدث بثقة لا نظير لها، كما لو أنه كان يتمنى هذه المعركة منذ زمن بعيد الأمد.

أثناء ذلك كان المشاهدون جميعهم قد عادوا! عبثاً حاول مدربو الدببة أن يدقوا صنجاتهم، لكن المنصات المجاورة لم تكن تجذب أحداً.

– لماذا لا تكون العصا ذات المفاصل ضد الحربة؟

كان وانغ سانشينغ ينوي وضع العجوز تحت التجربة، لأن استعمال هذا النوع من العصي في القتال كان صعباً. حنى العجوز من جديد رأسه والتقط سلاحه.

كان لوانغ سانشينغ مظهراً رهيباً حقاً بعينيه الجاحظتين وحربته المرتجفة وقد مسكها بيديه الاثنتين. أما حدقتا العجوز فقد أضحتا أكثر غوراً وانكماشاً. كانتا مثل جمرتين متوهجتين من البخور تصنعان دوائر وتتبعان رأس الحربة. شعر وانغ

سانشينغ فجأة بالخوف، كما لو أنّ هاتين الحدقتين السوداوين ستقومان بابتلاع رأس سلاحه. تحلق المشاهدون حول الخصمين. كان العجوز يؤثر في كل الحضور. ولكي يهرب وانغ سانشينغ من العيون التي كانت تلاحقه، أدار حربته حول رأسه.

- دورك! قال العجوز وهو يهز لحيته.

عند ذاك انقض وانغ خافضاً سلاحه ومهدداً العجوز، بينما كانت الأهداب القرمزية للعصا تحوم بفعل حركاته.

فجأة استرخى جسد منافسه وتنحى جانباً ليتجنب الضربة، بينما كان واحد من عناصر العصا يصدم الحربة وفي الوقت ذاته، يضرب جزء أخر يد وانغ سانشينغ من الأسفل. بتأثير هذا الاصطدام المزدوج سقط السيف من يد الشاب. أطلق الحشد صيحة إعجاب. التقط وانغ سانشينغ سلاحه وقد أضحى وجهه ضارباً إلى اللون البنفسجي من العار، وبعد أن حوّم الحربة كرة أخرى أخذ العجوزَ على حين غرّة وهو يصوب نحو بطنه. لكن الآخر رماه بنظرة أكثر ما تكون سواداً وطوى بخفة ركبته، وهو يحمي بطنه بأسفل سلاحه. في حين كان القسم العلوي منه قد أصاب مباشرة عصا الحربة، في اللحظة التي كان فيها وانغ سانشينغ يرجع بسلاحه إلى الخلف. من جديد وقعت الحربة على الأرض من شدة الصدمة.

هز الحماس مجدداً الحضور. لم يعد وانغ سانشينغ وقد تغطى بالعرق ليتجرأ على التقاط سلاحه. جحظت عيناه وشعر بغتة أن جسده قد تيبس. ألقى العجوز سلاحه، استعاد رداءه، وأخذ يمشي. إنّه لا يزال يجر قدمه بالطريقة ذاتها، لكن مشيته كانت سريعة أكثر. قال للشاب بعد أن وضع رداءه على ذراعه وهو يربت على كتفه:

- أنت لا تزال بحاجة للتدريب يا صديقي!

- لا ترحل. رد وانغ سانشينغ وهو يمسح جبهته. أنت قوي. لكن إذا كنت أنا وانغ، أعترف بهزيمتي فذلك بشرط أن تتجرأ على مواجهة معلمي في يوم ما.

تغضن وجه العجوز قليلاً كما لو أنّه كان يبتسم.

- ما أتيت إلا لألتقي به. هيا رتب حاجياتك فأنا أدعوك لتناول طعام العشاء.

جمع وانغ سانشينغ أسلحته ووضعها لدى جار له يعمل حاوياً ويلقب بـ فيروله الصغير، ثم خرج من المعبد بصحبة العجوز. خلفهم كانت مجموعة من المتسكعين قد احتشدت وكان يحاول جاهداً أن يفرقها وهو يرغي ويزبد.

- هل أستطيع معرفة اسمك؟

- أدعى سون. كانت لهجة العجوز جافة مثلما كان شخصه. لم أتوان في يوم عن التدريب وها قد مضى زمن طويل وأنا أحلم بمواجهة شازيلونغ.

«لن يلبث شازيلونغ أن يسحقك» فكر وانغ وهو يسرّع الخطى والآخر يتبعه. لاحظ عندها أن العجوز كان يتقدم بقفزات متسلسلة حسب تعليمات مدرسة شهيرة للملاكمة. فقال في نفسه، لا ريب أنّه خصم خفيف الحركة، على وجه الخصوص، إذا ما نشب عراك بالأيدي. لكن مهما تكن سرعته، لن يكون نداً لشازيلونغ. إن هذه الفكرة عن هزيمة العجوز سون، قد أشعرته بالعزاء قليلاً، فأبطأ من سيره.

- من أي بلد أنت أيها العم سون؟ سأل وانغ باحترام.

- من قرية صغيرة تدعى هوجيان. رد العجوز بلهجة أكثر لطفاً. يكفي شهر واحد للتدرب على العصا، وعام واحد للتدرب على السيف، أما الحربة فحياة كاملة من التدريب لا تكفيها. بالنسبة لشاب في عمرك لا بأس بمستواك.

من جديد شعر وانغ سانشينغ بالعرق يتصبب من جبهته، غير أنّه لم ينبس بكلمة.

عند وصولهما إلى النزل، تسارعت دقات قلبه بفعل تلهفه للانتقام. ربما لايكون معلمه هنا، إنّه يعلم حق العلم أنّ هذا الأخير لا يحب هذا النوع من الأمور وأنّ عدداً من تلاميذه كانوا في ظروف مماثلة يصادفون صعوبات كثيرة في إقناعه. لكنه في هذه المرة كان واثقاً من النجاح. إنّه من بين الجميع الأكثر قدماً ولامثيل له بين زمرة الفتيان تلك، زد على ذلك أنّ التحدي قد أعلن على الملأ، لذا لا يستطيع المعلم أن يرفضه دون أن يفتضح أمره.

- ماذا هناك يا سانشينغ؟ سأله شازيلونغ وهو متمدد فوق سريره على وشك قراءة رواية «توزيع الإقطاعيات على الخالدين»[١].

شعر الشاب مرة ثانية بحمرة العار تصعد إلى وجهه ولم يستطع تهجئة كلمة واحدة من فرط اضطراب شفتيه.

كرر المعلم سؤاله وهو يجلس:

- ماذا هناك يا سانشينغ؟

- واجهت تحدياً فاشلاً.

كانت ردة فعل المعلم مجرد تثاؤب. شعر وانغ سانشينغ بالاستياء قليلاً، إلا أنه لم يجرؤ على إظهاره. مع ذلك عليه أن يحرض معلمه:

- هناك عجوز يدعى سون ينتظرك في الخارج. لقد نجح مرتين في إسقاط الحربة من يدي، حربتي أنا!

كان يعلم التأثير الدائم لهذه الكلمة «حربة» على قلب معلمه العجوز. ودون أن ينتظر الأمر منه هرع خارجاً.

---

(١) قصة أسطورية عن سلالة مينغ Ming.

عندما دخل العجوز الغريب، كان شازيلونغ ينتظره في الصالة الرئيسية. تبادلا التحية بقبضات مضمومة ثم جلسا. أمر المعلم تلميذه أن يعد الشاي. كان سانشينغ يرغب حتماً في رؤية البطلين العجوزين يتصارعان بلا إبطاء، لكنه لم يكن قادراً على تجاهل الأمر الذي أُعطي له. لم يكن العجوز سون ينبس بكلمة. لكنه كان يروز خصمه من أعماق عينيه الغائرتين.

أظهر شازيلونغ كثيراً من اللطافة معه:

- إذا كان سانشينغ قد أهانك فلا يجب أن تحقد عليه، فهو لا يزال يافعاً.

شعر سون بالخيبة نوعاً ما، لكنه ذهل في الوقت ذاته من ذكاء مُحدثه. لقد شعر كذلك بالحيرة قليلاً، ففي مجال الفنون الحربية لا مجال للحكم على رجل بالاعتماد على ذكائه فقط.

- لقد أتيت لأتعلم أصول التمرن على الحربة. قال والكلام تقريباً يخرج رغماً عنه.

تظاهر شازيلونغ بعدم فهم قصده. دخل سانشينغ وإبريق الشاي في يده. كانت رغبته في رؤية الرجلين يتعاركان تعصف به، حتى أنّه صب الماء دون أن يتأكد من تمام غليانه.

- ياسانشينغ، قال المعلم العجوز وهو يأخذ كأساً، ابحث عن كسيانشون والآخرين. لقاؤنا في كونفلوان دو سيل Confluent de ciel. سنتناول طعام العشاء برفقة السيد سون المحترم.

- ماذا؟ صاح الشاب وقد برزت عيناه من مقلتيهما. ألقى نظرة خفية على وجه معلمه، لكنه لم يجرؤ على فضح غضبه.

- حسن. سأذهب.

ثم خرج وهو يمط شفتيه غضباً.

- لا يقوم الإنسان دائماً بما يرغب به بوجود تلاميذه. لاحظ سون.

- في الحقيقة لم يكن لي في يوم تلاميذ. رد شازيلونغ. على أية حال لنرحل. لم ينقع الشاي بعد. سوف نشربه في الحانة وبعد أن نروي ظمأنا نتناول العشاء.

أخذ من الطاولة صرة طويلة من الساتان الأسود تحوي في أحد جيوبها علبة دخانه وفي الآخر قليلاً من المال ثم علقها على حزامه.

رفض العجوز سون الدعوة وهو يهز رأسه بقوة جعلت ضفيرته الصغيرة تطير في الخلف.

- كلا لا أشعر بعد بالجوع!

- سنجلس لتبادل الحديث على أقل تقدير!

- أنا ما أتيت إلا للتدرب على فنون الحربة.

- مضى زمن طويل لم أمارس فيه التدريب. قال شازيلونغ وهو يشير إلى بطنه. كما ترى لقد أصبحت سميناً.

- إذا كنت ترغب، رد سون وهو يتفحص مُحدثه، عوضاً عن الدخول في عراك تعلمني أصول استعمال حربة الموت الشهيرة.

انفجر شازيلونغ ضاحكاً.

- حربة الموت! . . منذ زمن طويل وأنا أرفض ذلك رفضاً قاطعاً. بالمقابل أقترح عليك إذا ما بقيت هنا لبضعة أيام أن تزور برفقتي كل ما يستحق المشاهدة. ومن أجل رحيلك سأساهم في حدود إمكانياتي في مصاريف عودتك.

- إنا لم آتِ للنزهة ولست بحاجة للمال. أتيت فقط للتدرب. نهض العجوز سون وتابعَ قوله: سأقدم لك برهاناً صغيراً لتدرك إذا ما كنت جديراً أو لابتلقي دروسك.

ما كاد ينحني حتى أضحى وسط الساحة. طارت الحمائم مفزوعة تخفق بأجنحتها. أخذ وضعية المحارب وقدم مثالاً عن مهاراته التي تلقاها من مدرسته ذائعة الصيت. كانت ساقاه ويداه تتحركان برشاقة وكأنهما يطيران. وعندما كان يصوب قدمه في الهواء، كانت ضفيرته الصغيرة تتطاير مثلما تفعل طائرة ورقية في الهواء الطلق. بالإضافة إلى السرعة كانت كل حركة تشهد على ثقة ودقة وكمال لامثيل لها: خلال ست روحات وغدوات، لم تكن أية زاوية في الباحة بعيدة عن متناول يده. كان لخطواته ذلك الانسجام، وحركاته منتظمة جداً حتى يبدو أن الروح في الفضاء كانت تتفوق على الجسد. وعندما انطوى على نفسه في وضعية النهاية، وقد أرجع قبضتيه إلى جسده، أمكن القول أن سرباً من السنونو قد عاد فجأة إلى عشه.

- أحسنت، أحسنت! صاح شازيلونغ من أعلى الدرجات وهو يهز رأسه.

- علمني إذن فن الحربة الذي تتقنه. توسل إليه العجوز سون وهو يضم قبضتيه.

- أيها السيد سون المحترم، أنا مدين لك بالحقيقة. تلك الحربة التي تراها هناك وكل الفن الذي ابتدعته سيتبعاني إلى القبر دون أن يتركا أي أثر.

- ألن تورثهما إلى غيرك؟

- كلا. لن أفعل مطلقاً.

بقي العجوز سون فاغر الفم، تهتز لحيته الصغيرة بتأثير ارتجاف طويل. التقط ثوبه الطويل من القطن الأزرق من داخل الغرفة وهو لا يزال يجر ساقه.

- اعذرني إذا ما أزعجتك، قال له، يسعدني اللقاء بك ثانية.

- لن تغادر قبل أن تتناول شيئاً. قال شازيلونغ.

غير أن العجوز لم يكلف نفسه عناء الرد.

عاد شازيلونغ بعد أن رافق ضيفه حتى باب الساحة إلى الغرفة الرئيسية، وعندما لمح في الخارج الحربة لا تزال منتصبة في زاوية الجدار، هز رأسه.

ذهب وحيداً إلى الحانة ظاناً أنّ وانغ سانشينغ والآخرين كانوا بانتظاره غير أنّه لم يجد أحداً. منذ ذلك الحين لم يجرؤ واحد من تلاميذه على الظهور في عيد المعبد، ولا حتى على إطراء معلمهم العجوز. على العكس كان الجميع يدّعون أن شازيلونغ لم يجرؤ على مواجهة عجوز. صحيح أن المعلم العجوز قد صرع ثوراً بركلة من قدمه، غير أنّ سون لم يهزم وانغ سانشينغ فحسب، بل حتى شازيلونغ نفسه لم يجد في نفسه الكفاءة ليتبارى معه. وهذا يعني أن وانغ سانشينغ على الأقل قد قبل التحدّي، بينما لم يجرؤ المعلم على رفع صوته. ذاك الذي كنا ندعوه «الرجل ذو الحربة السحرية» كان يغرق شيئاً فشيئاً في النسيان.

لكن في ظلمة الليل الدامس، بعيداً عن أي حضور، كان شازيلونغ يغلق باب ساحته ويحمل بلا توقف الأربعة والستين نصلة في حربته، ثم يشاهد مجموعات النجوم في السماء، وقد أسند الحربة على كامل جسده، يفكر بالمجد الذي كان له في الماضي، في الحانات وعلى أطراف الغابات. إنّه يتنهد وإصبعه تداعب العصا الباردة والمصقولة بلطف، ثم يأخذ فجأة بالابتسام:

- كلا لن أورث شيئاً!

متجر قديم

مضت أيام عدة والموظف الأول في متجر تريبل هارموني Triple Harmonie لم يتناول فيها الزاد إلا مكرهاً، على الرغم من نفوذه المتزايد. لزام القول أنّ تريبل هارموني كان متجراً قديماً جداً ذا شهرة واسعة، وكان مديره «كيان» كذلك الأمر، خبيراً يعرفه جميع تجار الحرير. إنّه هو من درب «كسين ديزهي»، وإذا كان هذا الأخير يشعر بالكثير من الحزن، فلن يكون السبب في ذلك تعلقه بمديره القديم. أضف إلى ذلك، إنّه لم يكن يجد في نفسه أيّ طموح، ولا يستطيع القول لماذا كان يشعر بمثل هذا الخوف، كما لو أن كيان كان قد حمل معه عالماً لن يعود أبداً.

وهكذا، عندما تسلّم «زو» مركز المدير، سرعان ما فهم كسين ديزهي أن مخاوفه كان لها ما يبررها. تحولت مخاوفه إلى عداوة تقريباً. كان القادم الجديد من نوع «محترف» جداً، لدرجة أن يستوقف تريبل هارموني، وهو متجر عريق جداً، زبائنه في عرض الشارع، جعل كسين ديزهي يرسم على وجهه تكشيرة تشبه قطعة رافيولي قد انفجرت بفعل طهيها بإفراط. كان لديه إحساس إنّه بعد رحيل المدير السابق، سيزول كل ما كان يتعلق بشهرة المخزن القديم، كمجموعة الموظفين الأكفاء وتقاليده. لكن عليه الاعتراف أنه رغم استقامته ونزاهته كلها، كان كيان يعاني من العجز في الميزانية. ولم يتوان المالكون عن المطالبة بقبض أكبر كم ممكن من الأرباح في نهاية كل عام دون أن يشغلوا بالهم بأي شيء آخر.

والحال هذه، مرت سنوات عدة وتريبل هارموني يحافظ على ديكوره نفسه الذي يتسم بأناقة رفيعة المستوى. كلافتته الضخمة ذات الأحرف السوداء على

خلفية ذهبية اللون، لوحاته التزينية المصبوغة بالأخضر، طاولته الواسعة بلون غامق وكنار من قماش أسود، طاولاته الصغيرة المزينة دائماً بورود نضرة. منذ سنوات عديدة، ما عدا الفوانيس الكبيرة الأربعة السداسية الشكل، ذات الأهداب الطويلة من الحرير الأحمر التي يتم تعليقها في عيد القمر، لم يشهد تريبل هارموني أياً من هذه التزينات الشاذة التي لا تمت بأية صلة للتجارة. ومنذ سنوات عدة، لم يكن أحد في تريبل هارموي ليسمح لنفسه مطلقاً بأقل مساومة أو ترخيص أو إعلان عن طريق الملصقات، أو ببيع التصفية خلال أسبوعين، لأن تريبل هارموني يتمسك بصورته الرفيعة الشأن. خلال سنوات عدة، لم يدخن قط أي موظف أمام الطاولة أوحتى رفع صوته، الأصوات الوحيدة التي كان المرء يسمعها هي أصوات السعال أو بقبقة الماء في نرجيلة المدير العجوز.

كان مجيء المدير الجديد بالنسبة لكسين ديزهي يعني حتماً نهاية كل شيء، بما في ذلك المبادئ والتقاليد الأكثر شيوعاً. فالتصرف الحسن هو ما كان ينقص زو حتى عينيه اللتين بدل أن تبقيا خافضتي الجفنين، كانتا تفتشان في الأرجاء وكأنها تبحث عن لص بينما كان المدير السابق لا يتوانى عن ملاحظة حتى أقل تنهيدة غير لائقة تصدر عن أحد الموظفين، وهو جالس دوماً على واحد من المقاعد الكبيرة وعيناه مغلقتان.

في واقع الأمر، ما كاد يمر يومان على وصول المدير حتى حول المخزن إلى ما يشبه قصراً شعبياً. أمام الباب تمّ نصب قوس[1] بألوان صارخة، برزت عليه أحرف من خمسة أقدام مربعة تعلن عن «مراخصة[2] كبرى»، مصباحان غازيان كانا يلمعان بشدة لدرجة أن الوجوه كانت تتلون بمسحة خضراء اللون حتى يمكن القول أنه تجمهر صاخب لمدمني الأفيون. ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد. أمام المدخل كانت

---

(١) تعني الكلمة حرفياً قوس النصر الذي يزين الشوارع المؤدية إلى المعابد، أو عبارة عن رواق يوضع عند مدخل المخزن.

(٢) بيع عام لتصفية بضائع بأسعار رخيصة.

جوقة من ضاربي الطبول وآلات النفخ، على الطريقة الغربية، تعزف منذ الفجر حتى منتصف الليل. وثمة أربعة موظفين قد اعتمروا قبعات حمراء عسكرية، يوزعون كراسات عند الباب وعلى قارعة الطريق. وكأن ذلك لم يكن كافياً، كان موظفان آخران مكلفين حصراً بتوزيع الشاي والسجائر على الزبائن. حتى ذاك الذي لم يكن يشتري إلا نصف قدم من القماش الأبيض، كان يُدعى للدخول إلى خلفية الدكان وتُعرض عليه السجائر. الجميع كان يدخن، بما في ذلك الجنود ومرممي الطرقات ونادلات المطعم، حتى أضحت الصالة من الدخان سوداء تماماً مثل معبد لبوذا. ولتتويج كل ذلك، كان المشتري لنصف قدم من القماش، يأخذ قطعة أخرى مجاناً، وفضلاً عن ذلك، لعبة من السلولويد[1]، وكان الموظفون قد تلقوا الأوامر بحرية الثرثرة والتفكه مع الزبائن. وإذا طلب أحدهم مادة غير موجودة، عوضاً عن القول بأنها كانت كذلك، كانت بضائع أخرى تُجلب له ويرغم على مشاهدتها. ولأن كل بضاعة تتجاوز العشر ينات[2] كانت تُسلم لغاية المنزل، كان المخزن يقتني أيضاً دراجتين متداعيتين.

كان كسين ديزهي يرغب تماماً في إيجاد مكان يذرف فيه الدموع بغزارة. إنه يعمل في هذا المخزن منذ خمسة عشر عاماً أو ستة عشر عاماً، ولم يكن يستطيع في يوم أن يتصور أو يفكر على الأقل، أن يرى تريبل هارموني يسقط في يوم إلى هذا الدرك. كيف يستطيع بعد الآن أن يقدم نفسه للناس؟ من كان في السابق لا يحترم تريبل هارموني من سكان الحي؟ عندما كان الموظفون يخرجون مساء، حاملين في أيديهم فوانيس ضخمة تحمل اسم المحل، كان رجال الشرطة أنفسهم ينظرون إليهم بعيون أثيرة. وفي عام الثورة العسكرية، وُضع تريبل هارموني كما هو متعارف عليه، على قدم المساواة مع المخازن الأخرى المجاورة، لكن لم توجه إليه إهانة نزع بابه الصفاق أو لائحته التي تقول «أسعار ثابتة، لا تصفيات». وبمعنى آخر، كانت لافتته الذهبية عصية على اللمس. لقد قدم كسين ديزهي إلى المدينة منذ نحو

(١) مادة صلبة شفافة قوامها السلولوز والكافور تصنع منها الأفلام والأمشاط ...

(٢) الين عملة صينية لم تعد متداولة الآن وكانت مقسمة إلى عشرة ماوmao ومائة فانسfens أي قرش.

عشرين عاماً، وأضحى المخزن عائلته الثانية. طريقته في الحديث، في السعال تفصيل سترته الزرقاء، كل ذلك كان يستوحيه من المخزن. كان تريبل هارموني سبب وموضوع كبريائه معاً.

عندما كان يُحصل الديون، كان يُدعى لتناول الشاي. فالمشترون من تريبل هارموني لم يكونوا مجرد زبائن، بل أصدقاء. غالباً ما كان المدير كيان نفسه يقدم الهدايا للزبائن في مناسبات الزواج أو الخطوبة. إنّ تريبل هارموني محل رفيع المستوى. على مقاعده الكبيرة عند المدخل، غالباً ما كان يجلس أكثر الناس وقاراً. وفي الأيام التي يزدحم فيها الطريق بالمواكب، كانت نسّوة بعض الزبائن يستأذن المدير للاستراحة هناك لبعض الوقت. هذه القصة التي يعتز بها كسين ديزهي لا تزال محفورة في أعماق قلبه. لكنه كان قلقاً حيال الوضع الراهن.

مع هذا كله لم يكن يجهل أن الزمن قد تبدل. وعلى هذا، عدة محلات مجاورة كانت قد تخلت عن عاداتها القديمة. عبثاً الحديث عن المخازن التي افتتحت حديثاً ولم يكن لها في يوم أي تقليد تتبعه. كان يعلم ذلك حق العلم. لكن حبه لعادات تريبل هارموني ما كان إلا ليزداد، وكان فخوراً به وكأنه آخر قطعة من الساتان الحقيقي وسط سيل من الأقمشة الحريرية الصناعية. إذا كان تريبل هارموني، رغم كل شيء، مرغماً على السقوط إلى هذا الحضيض، حسن، يمكن للعالم أن ينهار! المصيبة أن تريبل هارموني قد أصبح مخزناً مثل المخازن الأخرى، بل أسوأ!

أكثر المخازن التي كان يكرهها هو بارفان دو سود parfuns de sud وهو بقالة[1] رفيعة المستوى تقع تماماً في مواجهة محله. كان المدير يضع عقب السيجارة في فمه بين أسنانه القاطعة من الذهب، ويجر دائماً حذاءه مثلما يجر حذاء بالياً. بينما كانت زوجته تجر في كل الأنحاء أولادها، على ظهرها، بين ذراعيها، وحتى في جيب ثوبها. وهي لا تكف عن الدخول والخروج من المخزن، والعودة إليه

---

(١) مخزن بقالة شهير مختص بمنتجات جنوب الصين كان موجوداً في بكين تحت اسم مشابه.

والخروج منه ثانية، وهي تثرثر ما يعلم الله به فقط، بلغة عامية خاصة بأهل الجنوب. عند الطاولة كان المدير يتشاجر مع زوجته وأيضاً عند الطاولة كانت تصفع أولادها أو ترضعهم. لا أحد يدري تماماً ما إذا كانوا يقومون بالبيع أو أنهم استسلموا للعبة ما. الشيء الوحيد الذي لا ريب فيه هو ثدي المديرة المعروض دوماً عند الطاولة. كان طاقم الموظفين وقد تفرقوا الله يعلم إلى أين، ينتعلون أحذية مهترئة، وفي الوقت ذاته يلبسون الحرير. البعض منهم كان يضع لصقات[1] على صدغيه، والبعض الآخر أملس الشعر مثل ثمرة كرنيب مصبوغة. الآخرون كانوا يعرضون نظارات بإطار ذهبي على أنوفهم والمخزن نفسه لم يكن يوحي سوى بالقرف: ترخيصات على مدار العام، إضاءة بالغاز في كل مساء، وفونوغراف يدور بلا توقف. كل زبون يشتري بأكثر من يوان، كان المدير يقدم له قطعة سكاكر من الشعير وإذا رفضها أحد الزبائن كان يحشو بها فمه قسراً. لا سعر ثابت لأية مادة، ولا قيمة ثابتة لليوان. لم تقع عينا كسين ديزهي أبداً على لافتة هذا المحل، ولم يشتر منه أبداً. فهو لم يكن يتخيل في يوم أن مخزناً كهذا يمكن أن يكون موجوداً في العالم، فكيف إذا كان يراه تماماً في مواجهة محله.

أكثر ما كان يثير الحيرة في نفسه أن بارفان دو سود كان يزدهر بينما كان تريبل هارموني ينحط من يوم ليوم. وهو لا يستوعب سبب ذلك. هل المخازن المجردة من التقاليد هي فقط القادرة على الازدهار يا ترى؟ أياً كان يستطيع أن يعمل تاجراً! هذا ما لا يمكن القبول به، حقاً لا يمكن القبول به! لن يغفر تريبل هارموني شيئاً كهذا في يوم! من كان يظن أنّه سيأتي يوم مع المدير زو، ونرى الفوانيس الغازية تحيل الجزء الأكبر من قارعة الطريق إلى اللون الأخضر، على جانب تريبل هارموني تماماً مثل بارفان دو سود، وأنّ المخزنين الاثنين سيتشابهان في النقائص؟ لقد وصل به الأمر حد التساؤل ما إذا كان يرى حلماً مزعجاً. كلا! هذا ليس بحلم. كسين ديزهي نفسه كان مرغماً على اتباع تعليمات المدير الجديد. لقد تلقى الأوامر بخصوص

---

(١) علاج تقليدي ضد مرض الشقيقة.

الثرثرة مع الزبائن، وتقديم السجائر لهم، وسحبهم إلى خلفية المخزن، وكل ذلك لبيعهم بضاعة رديئة! عليه كذلك أن يتحمل طلباتهم المتكررة لإعطائهم أكثر مما يستحقون من القماش وبعد ذلك، عليه اختلاس جزء منه عند القياس. ولقد رضخ لهذه التلاعبات رغما عنه.

بالمقابل كان أغلب الموظفين يبدون معتادين على ذلك. ما إن كانت زبونة تدخل حتى يحاصرونها متنافسين على إرضائها، ثم يعرضون عليها باختيارهم منتجات المخزن كلها. ومن أجل لا شيء يرافقونها إلى المنزل عند انتهاء الشراء، حتى لم تكن قد تبضعت إلا بقدم أو قدمين من القماش الأكثر رداءة. يحب المدير ذلك، فهو معجب بانقلابهم المفاجئ ومناوراتهم، حتى أنه يرغب أن تنبت لهم أجنحة.

أضحى المدير زو ومدير بارفان دو سود صديقين حميمين. أحياناً كانا يدعوان الناس في ريوسيت سيليست Reussite Celeste للمجيء ولعب دور مهجونغ[1]. كان ريوسيت سيليست مخزناً آخر للأقمشة افتتح منذ أربعة أو خمسة أعوام في الشارع نفسه. كان المدير السابق يعامله دوماً باحتقار، لكن ريوسيت سيليست شنّ حرباً هوجاء ضد تريبل هارموني، حتى أنه أشاع بأنه لن يعدم الوسائل ليسحق منافسه. لم تكن ردة فعل المدير القديم سوى كلمة صغيرة في حوار ما: «نحن نعتمد على سمعتنا». كان ريوسيت سيليست يحتفل بعيده السنوي ثلاثمئة وستة وخمسين يوماً في العام بفضل التصفيات. وها هم موظفوه في الوقت الراهن يأتون إلى هنا ليلعبوا المهجونغ. عجز كسين ديزهي عن توجيه الكلام لهم. عندما كان يجد لديه متسعاً من الوقت، كان يجلس خلف الطاولة بليد الذهن تماماً، بمواجهة الرفوف حيث كانت الأقمشة في الماضي مغطاة بقماش أبيض. بينما اليوم يقومون بنشر لفات كاملة لتعليقها من السقف حتى الأرض بمثابة ديكور. هذا الفيض من الألوان كان يشعره بالدوار. لقد انتهى تريبل هارموني تماماً. هذا ما كان يفكر به.

---

(١) لعبة صينية تشبه الدومينو.

مع ذلك، بعد مرور العيد الأول للقمر[1]، كان مرغماً على الشعور بالإعجاب تجاه المدير الجديد. لم تكن الميزانية تحوي أية أرباح، غير أنها لم تعد تحوي أية خسائر أيضاً.

- لا يجب أن ننسى أنّه العام الأول فقط، صرّح ضاحكاً المدير زو، لديّ مفاجآت أخرى أدخرها. ومن ثم، ذاك القوس، واستئجار فوانيس الغاز... كل ذلك يمثل مصاريف لا طائل منها. نتيجة لذلك! [أصعب ما في حواره أن يؤكد دائماً أحاديثه بعبارة «نتيجة لذلك»] لكننا من الآن فصاعداً، لم نعد بحاجة للقوس. سنستخدم وسائل أكثر ابتكاراً وأكثر توفيراً للمال. سوف ترى الأرباح! نتيجة لذلك!

أيقن عند ذاك كسين ديزهي أن المدير كيان لن يعود أبداً. لقد تغير العالم نهائياً. كان المدير الجديد ينهج نهج موظفي ريوسيت سيليست وبارفان دو سود. هؤلاء هم من كانوا يجنون الأموال! بانقضاء العيد، أشيع نبأ أن البضاعةاليابانية ستقع تحت التفتيش. تهافت المدير زو على شراءها متزوداً بكم كبير منها. وفي الفترة التي باشر فيها الموظفون المكلفون بالفحص بعملهم، بدأ عرض أقمشته في الأمكنة الأكثر ظهوراً للعيان.

- ابدؤوا بتقديم الأقمشة اليابانية للزبائن. أمر قائلاً. المخازن الأخرى لا تجرؤ على بيعها. سننتهز الفرصة لتصريفها. للفلاحين تقولون بكل بساطة إنها بضاعة يابانية، فهم يحبون ذلك. ولسكان المدينة تقولون إنها بضائع ألمانية.

يدخل المتفحصون إلى المخزن، تتطاير الابتسامات مثل فراشات على وجه المدير الذي يقدم لهم الشاي والسجائر.

- نحن لا نسمح بلافتة مثل لافتتنا أن تبيع منتجات يابانية على الإطلاق.

---

(١) ثمة ثلاثة أعياد في السنة القمرية، الأول اليوم الخامس من القمر الخامس، الثاني اليوم الخامس عشر من القمر الثامن وفي نهاية العام حيث يقومون بالجرد.

نتيجة لذلك! يمكن أن تروا أيها السادة أمام الباب ثمة أقمشة ألمانية ومنتجات محلية فقط، وفي الداخل، ثمة تفتا وساتان صيني فقط. نحن نملك في المناطق الجنوبية فرعاً مكلفاً بالبيع والتصدير من أجلنا.

أمام الأقمشة المطبوعة كان الشك يراود المتفحصين.

- شانغ فوليه! أمر المدير ضاحكاً. احضر إلى هنا قطعة القماش اليابانية المتبقية لدينا من خلفية المخزن.

يحضر الموظف القماش المطلوب. عندها يتشبث المدير برئيس المتفحصين قائلاً:

- سيدي أعترف لك بكل صدق أنه لا تزال لدينا هذه القطعة من القماش الياباني. إنها من جهة أخرى من النوع ذاته لقماش قميصك. نتيجة لذلك!

ثم يضيف وهو يستدير:

- فوليه، ارم هذه إلى الطريق.

يخرج رئيس المتفحصين دون أن يجرؤ على رفع رأسه وقد تعلقت العيون بقميصه.

بهذا الفيض من الأقمشة اليابانية التي تحولت، حسب الظروف، إلى منتجات ألمانية، صينية أو إنكليزية، تم جني أرباح هائلة. عندما يرمي أرضاً زبون خبير قطعة قماش أمام المدير، كان ذلك الأخير يأمر موظفه مبتسماً:

- اذهب واحضر أقمشة حقيقية غربية. ألا ترى أن السيد خبير في ذلك؟

ثم يضيف موجهاً الحديث للزبون:

- يجب أن نراعي أذواق جميع الناس. وأنت إذا قدمت لك هدية من هذا النوع فلن تقبلها. نتيجة لذلك!

على هذا النحو قدر المخزن على بيع أكثر موجوداته. حتى الزبون لحظة

خروجه، كـان يبدو غير قـادر على فراق المدير. اكـتشف كسين ديزهي السر في ذلك. لكي تكسب المال في التـجارة عليك أن تكون حاوياً أو أن تملك لساناً طلقاً مثل لسان ممثل ماهر في التفكه. حقاً هذا المدير فريد من نوعه! مع ذلك لم يكن لدى كسين ديزهي الرغبة في البقاء. كلما كان إعجابه بالمدير الجديد يزداد، كان عذابه في أعماق قلبه يزداد أيضاً. على ما يبدو أنّ الطعام كان ينزل في عموده الفقري عندما يأكل، ولكي يستطيع النوم مجدداً عليه مغادرة هذا المخزن الملعون!.

غير أنه قبل أن ينجح في العثور على مكان آخر، رحل السيد زو ليدير ريوسيت سيليست. كانت المؤسسة بحاجة لرجل يتمتع عقله بهذا الشمول، وهو من جهته لم يدعهم يتوسلون إليه كثيراً، بالنسبة له كانت التقاليد في تريبل هارموني قد ضربت جذوراً عميقة لها حتى لم تعد تسمح له بعرض مواهبه كلها.

بعد أن أوصل كسين ديزهي السيد زو، شعر أنّه تخلص من ألم كان يعذب قلبه.

بخمسة عشر أو ستة عشر عاماً من القدم في المخزن، يستطيع موظف مثله أن يسمح لنفسه، حتى لو لم يؤد ذلك إلى شيء، بدس كلمة إلى المالكين. ثمة واحد من بينهم هو الأكثر تعلقاً بالتقاليد. يعلم كسين كيف يؤثر به. شرع بإجراءات لصالح المدير كيان، وكلف أصدقاء هذا الأخير أن يدعموه في ذلك. كان يقول متذرعاً إنّ كيان كان الأفضل في كل المجالات، إن كل واحد من المديرين الاثنين، كان يتمتع بصفات خاصة به، لذا لزام التمسك بالحل الوسط، دون التعلق بالتقاليد البالية، وكذلك دون أن يكثروا إلى حد الإفراط من التجديدات إذا كانت سمعة الأعوام الماضية تستحق أن تبقى محفوظة في الذاكرة، لزام أيضاً التدرب على الطرق الحديثة. الجمع في آن معاً بين سمعة المخزن والمصالح، تلك كانت الحجة التي كان واثقاً أن يقتنع بها المالكون.

مع ذلك، كانت فكرة مغايرة تماماً تنمو في طويته. بعودة المدير كيان، كان يأمل أن يعود كل شيء إلى سابق عهده. على تريبل هارموني أن يكون تريبل

هارموني الحقيقي، ذاك الذي كان يعرفه في السابق، وإلا لن يشبهه في شيء أبداً. لقد فكر ملياً: يجب إلغاء الفوانيس الغازية، الجوقة، الإعلانات، الكراسات والسجائر. وفي الحالات القصوى يمكن تقليص عدد الموظفين. ذلك كفيل أن يقلص المصاريف بشكل جدي ولا يمنع أبداً من البيع دائماً بأحسن الأسعار دون إثارة جلبة لا طائل منها، وإنما بإعطاء الشاري أكثر مما يحق له من البضائع الجيدة. هل لزام عليه الظن أن الناس جميعاً هم حمقى؟

بالفعل استعاد المدير كيان منصبه. لم تعد تلمع في الشارع إلا الفوانيس الغازية التي تعود لبارفان دو سود. استعاد تريبل هارموني هدوءه وكرامته الغابرين، لكن على شرف عودة المدير كيان، تم تعليق بشكل استثنائي الفوانيس الأربعة السداسية الكبيرة ذات الأهداب القرمزية.

في اليوم ذاته، رأى الناس أمام باب ريوسيت سيليست جملين مزدانين، بكليتهما، بشرائط من الساتان المتعدد الألوان. فوق حدبتهما كانت تومض لمبات كهربائية ملونة. نُظم يانصيب خيري على جانبي الحيوانين، كلفة كل بطاقة منه ماو واحد. وعند بيع عشرة منها، يباشرون عملية السحب، بماو واحد فقط كان واحدهم يأمل ربح قطعة كاملة من التفتا آخر طراز. كان الحشد يتجمع بكثرة أمام باب ريوسيت سيليست حتى لم يعد بالإمكان السير، وكأنّه معرض حقيقي لعيد الباغود. يحدث فعلاً أن يبتعد فلان وهو طلق المحيا، وقطعة من الحرير تحت ذراعه.

يجلس المدير كيان في تريبل هارموني، على واحد من المقاعد الكبيرة المغطاة من جديد بقماش أزرق اللون وقد أغمض عينيه يجلس الموظفون هادئين وراء الطاولة، بعضاً منهم يقوم بالحساب بوساطة العداد. تمر الساعات دون أن يروا مشترياً احداً. أحياناً كان أحد المارة يجازف بإلقاء نظرة من الخارج وعلائم الرغبة في الدخول بادية عليه، لكنه بعد أن يرى اللافتة الذهبية يتجه صوب ريوسيت سيليست. أحياناً أخرى، يدخل زبون المخزن وحتى أنه يتفحص مادة ما، لكنه كان

يرحل خاوي الوفاض عندما لا يقبلون أبداً تخفيض الأسعار. فقط زبائن المخزن المعتادون كانوا يقومون بالتسوق من وقت لآخر. غير أنهم أحياناً لم يكونوا يأتون إلا من أجل محادثة ودية مع المدير، وهم يشكون من شقاء هذا الزمن، ثم يغادرون بعد أن يشربوا بضع كؤوس من الشاي، دون أن يشتروا شيئاً. كان ريوسيت سيليست المخزن الوحيد في الشارع الذي يقوم بالتجارة. منذ العيد الذي تلا ذلك، كان لزام البدء بتسريح الموظفين. قال كسين ديزهي للمدير والدموع في عينيه: سأعمل عوضاً عن خمسة، لا ثمة ما نخشاه!

- كلا، نحن لا نخشى شيئاً. يرد المدير العجوز.

تلك الليلة نام كسين ديزهي بعمق وهو على أهبة الاستعداد لتحمل عمل خمسة موظفين في اليوم التالي. لكن في نهاية عام واحد كان ريوسيت سيليست قد ابتلع تريبل هارموني.

قصة حياتي

عندما كنت صغيراً لم ألتحق بالمدرسة لفترة طويلة، لكنها كانت كافية لأستطيع قراءة كتب مثل «الشجعان السبعة» و«القضاة الخمسة» أو رواية «الممالك الثلاث». لهذا أتذكر تماماً عدةمقاطع من ديوان «جناح المسرّة». حتى الآن أستطيع سردها دون نسيان أي تفصيل فيها، وبشكل يجعل المستمعين يرتعدون. هذا ليس لكي يقول عني الناس الذين يصغون إليّ أنني أملك ذاكرة قوية فحسب، بل لأشعر بالسعادة كذلك. مع ذلك لم أقرأ النص الأصلي نفسه. ذلك شاق جداً. المقاطع التي أتذكرها، قرأتها في جريدة صغيرة تحت عنوان «تعليق على قصص جناح المسرّة». كانت الحكايات في هذا الديوان مترجمة إلى اللغة المحكية وأضيف إليها خدع غريبة لتعقيد القصة بأكملها. إنها بحق قراءة مشوقة!

بالكتابة كذلك الأمر، لم أكن سيئاً. إذا قام أحدهم بمقارنة خطي مع خطوط الوثائق الرسمية لمقر الإدارة الإمبراطورية في الماضي، أظن بحق أنني سأكون «محرراً»[1] جيداً حين يتعلق الأمر بالتناسق ونظافة الحبر أو تشكيل الصفحات. من الطبيعي أنّ طموحاتي كانت محدودة. فأنا لا أدعي أنني أملك موهبة أولئك الذين يكتبون مذكرات العرش، ولكن وثائق رسمية عادية مثل تلك التي نراها اليوم. وأنا أضمن لكم أنني قادر على كتابتها دون أي غلط مهما كان تافهاً.

نظراً للمواهب التي كنت أملكها فيما يخص القراءة والكتابة، كان لزاماً بشكل طبيعي أن أوظف في الإدارة. ليس ذلك بالضرورة طريقة لتكريم الأجداد،

(١) لقب ماندوشي يُنسب إلى الموظفين المكلفين بكتابة الوثائق الرسمية للإدارة الإمبراطورية.

لكنهـا على الأقل مـهنة يقـدرهـا الناس أكـثـر من غـيـرهـا . أضف إلى ذلك أن المرء يحصل على ترفيعات على كافة الأصعدة . لقد رأيت أكثر من شخص يشغل مركزاً رفيعاً ، مع أن أياً منهم لم يكن ليكتب أفضل مني ، حتى ثمة من بينهم من لا يقدر على نطق جملة واحدة بشكل صحيح . فإذا كان رجال مثلهم يمكن لهم أن يصبحوا موظفين مرموقين لا أرى لماذا لا أكون مثلهم .

لكن ها أنذا عندما بلغت الخامسة عشرة ، وضعني أهلي كمتمرن . وبما أنّ للمهن كلها معلم ، لا يكون في تعليم مهنة يدوية في ذاته ، أي شيء معيب سوى أنها أقل بريقاً من العمل في الإدارة . عندما يصبح المرء حرفياً يبقى كذلك طول حياته ، وحتى إذا جنى ثروة منها ، يمكن لموظف مرموق أن يمر قبله دائماً . خضعت لقرار أهلي دون إثارة مشاكل وبدأت التدرب . طبيعي أن الإنسان في الخامسة عشرة لاتكون لديه أفكار كثيرة . ومن ثم قال لي العجوزان كذلك ، إنه عندما أتقن المهنة تماماً ، يمكنني كسب المال ، وعندها سيهتمان بأمر زواجي . في ذلك الوقت ، كنت أتخيل الزواج شيئاً فاتناً ، لذلك قبلت المعاناة لعدة سنوات حتى وصلت من العمر سناً يمكنني من كسب قوتيّ مثل أي راشد . عندها تم تزويجي ، ومع كنّة فتية في العائلة بدت الحياة جميلة .

تعلمت مهنة لصق الورق[1] . في السنوات التي كان فيها السلم لا يزال سائداً ، لم يكن الهم يراود أي لصاق فيما يخص كسب قوته . في ذلك الوقت ، عندما كان أحدهم يقضي نحبه ، لم تكن الأمور تجري بهذا البخل كما في الوقت الراهن .

يكمن الفارق في أنه عندما تحدث وفاة ، لا تتردد العائلة المحزونة عند ذاك في الإنفاق بلا حساب ، ولا تتراجع أمام أية تضحية احتراماً للمجاملات ولإنقاذ المظاهر على هذا النحو . فقط من أجل إتمام «الإعدادات الجنائزية» يتم تخصيص

---

(١) تعني الكلمة حرفياً المحل حيث تصنع وتباع المواد الضرورية من أجل المأتم .

مبلغ ضخم من المال. ما أن يلفظ رجل أنفاسه، حتى يبدؤون على الفور بصنع «عربة جنائزية»[١] وهي شكل من أشكال التعبير كان سائداً في ذلك العصر، لكن الكثير من الناس اليوم على الأرجح لم يعودوا يفهمونه. بعد ذلك مباشرة، يأتي «اليوم الثالث بعد ليلة الوفاة»[٢] حيث لا يمكن ابداً الاستغناء عن «تماثيل الحرق»[٣] مثل السيارات والهوادج والبغال والأحصنة وصناديق الثياب، ورجال من الورق المقوى[٤] و«رايات لمرافقة الأرواح»[٥] وأزهار ورقية وأشياء أخرى كثيرة أيضاً... وإذا تمت لسوء الحظ الوفاة قبل الاقتبال[٦] لزم ذبح ثور وقفص من الديوك[٧].

عندما يأتي اليوم السابع الأول[٨] يقتضي الأمر في الوقت الذي يتم فيه ترتيل السوترا[٩] أن تُصنع مقصورات مزينة بالسبائك، وجبال من الذهب والفضة، ولفات من الأقمشة، ملابس، نباتات وأزهار من الفصول الأربعة، مجموعات من الأنتيكات وكل أصناف المفروشات[١٠]. وعندما تأتي ساعة الدفن، غير المقصورات الورقية، يكون المرء بحاجة أيضاً إلى الكثير من الرسومات لحرقها: حتى بالنسبة لأكثر الأشخاص عوزاً يكون من الضروري وجود زوج من الخدم[١١].

---

(١) عربة ورقية تخصص لنقل الميت.

(٢) في هذه الليلة يستقبلون روح الميت عن طريق الصلوات.

(٣) كلمة تعني كل الأشياء والكائنات الورقية التي يتم حرقها لخدمة ومرافقة الميت خلال رحلته نحو الأبدية.

(٤) أشكال تمثل رجالاً ونساء كانوا يعملون تحت إمرة المتوفى أو في خدمته.

(٥) أعلام صغيرة تحمل اسم المتوفى غايتها التذكير به عند إجراء الطقوس الجنائزية.

(٦) يعني قبل نهاية الشهر الأول الذي يلي الولادة حيث يُحتفل بقبول إمرأة في الكنيسة بعد الولادة.

(٧) لا يمكن لامرأة ماتت وهي تضع مولودها أو بعد الولادة أن تفلت من بحيرة الدماء الرهيبة في الجحيم إلا بذبيحة خاصة.

(٨) يتم الاحتفال بالمراسيم الجنائزية التي يشارك فيها الرهبان البوذيون بدءاً من الأسبوع الأول وحتى الأسبوع السابع في اليوم السابع حصراً.

(٩) مجموعة أحكام تلخص التعاليم في الدين والأخلاق والحياة اليومية.

(١٠) يعني ذلك كل ما هو مفروض أن يكون بحاجة له الميت لكي يمضي حياة رائعة في الآخرة.

(١١) رجل وامرأة مكلفان باصطحاب الميت الى الجحيم.

في السبعة الخامسة يتم حرق مظلة[1]. وفي اليوم الستين بعد الوفاة، يتم صنع زورق وجسور[2]، عند ذاك فقط يتخلص الميت منا نحن لصاقي الورق. هكذا، يكفي في العام أن يموت عشرة رجال أغنياء لنحصل على ما يسد رمقنا. غير أن لصاقي الورق لا يوقفون أنفسهم على خدمة الموتى فحسب، إنما يخدمون الخالدين أيضاً. والحال هذه، لم يكنْ خالدو الأعوام الغابرة بؤساء كحال خالدي هذه الأيام! خذوا على سبيل المثال السيد غوان[3]، كان الناس في الماضي يظنون أنهم مرغمون دوماً من أجله على صنع بيارق صفراء اللون وقبب ثمينة وأحصنة مع مروضيها، ورايات كبيرة مع النجوم السبعة للدب الأكبر، وأشياء أخرى من النوع ذاته. بينما الآن نميل للاعتقاد أنه لم يعد أحد يهتم بالدوق غوان! عندما يجتاح البلد وباء الجدري، نواجه عقبات كثيرة مع السيدات[4] ولأن عددهن تسع، يلزم صنع تسعة هوادج، كل واحد منها مجهز بحصان كميت اللون وآخر زعفراني، تسعة مشالح مع ما يماثلها عدداً من الأغطية الرأسية المزركشة برسوم العنقاء، كما يجب تحضير لباس كامل من أجل الصبية ووصيفات الشرف، مع ما هو ضروري من أجل الموكب[5]. بما أننا الآن نلقح في المشافي، لم يعد للجدري ما يعمله ونحن، لصاقي الورق، نرى مهنتنا تتراجع عن السابق. عمل أخر من أعمالنا هو «النذر»[6] الذي كان يدرّ علينا ربحاً معقولاً، لكن مع استبعاد الخرافات أيضاً، لم تعد له تلك الأهمية. آه! لقد تغير الزمن حقاً!

---

(١) طقس يحمي الميت من حرارة ~~شمس~~ جهنم.

(٢) جسر يسمح للميت بالعبور على نهر الجحيم.

(٣) غوان يو، القائد الشهير في عصر الممالك الثلاث، قُتل عام٢١٩م، يحترمه الناس كرب للفضائل الحربية وإله التعويذات وهو مرتبط بالدب الأكبر.

(٤) آلهة عند اليونان تكرم خصيصاً لإنجاب الأطفال أو للشفاء من الأمراض.

(٥) تؤلف هذه التقاليد جزءاً من طقس تشفعي يخصص لطرد المرض ويدل طول الموكب على الأهمية التي تحتلها الآلهة التي نحن بصددها بالنسبة لترتيبها في السماء.

(٦) كلمة مهنية خاصة بلاصقي الورق.

خارجاً عن خدمة الخالدين وأرواح الأموات، كان حرفيونا يعملون بالطبع من أجل الأحياء. كانوا يسمون ذلك العمل «الأبيض»[1] وهذا يعني إعادة إكساء المنازل من جديد بالورق. لم تكن المنازل في الماضي على الطريقة الغربية، إنما عندما كانت تسمح الفرصة بذلك، بعد عملية نقل أو زواج أو أي حدث سعيد آخر، كان الناس يعيدون إكساء الغرف كلياً بورق أبيض، بطريقة تظهر فيها جديدة تماماً. حتى أنّ العائلات الغنية جداً، كانت تطلبنا مرتين سنوياً، في الربيع والخريف، لتزين نوافذ بيوتها بالورق. لكن مع افتقار الناس من يوم لآخر، لم نعد نكسو السقف عندما ينتقل الناس. ومن ثم أولئك الذين كانوا يملكون المال في حوزتهم، كانوا يحولون منازلهم حسب الموضة الغربية. أي يدهنون الأسقف بالجص بشكل نهائي، وبذلك ينتهون من أمرها. بالنسبة للنوافذ، يركبون ألواحاً من الزجاج، وهكذا لم تعد هناك حاجة لتزيينها بالورق أو بالقماش الشفاف. منذ أن بدأ الإنسان يلعن على الطريقة الغربية فقد الحرفيون مورد رزقهم. آه! لم يكن ذلك تقصيراً من جانبنا. عندما أصبحت مركبات الجر على الموضة، صنعنا مركبات جر. كذلك الأمر بالنسبة للسيارات، لأننا نحن نعرف معنى التبدل. لكن ها هي العائلات التي توصي بصنع عربة أو سيارة لميت قد أصبحت تعد على أصابع اليد الواحدة. لقد دخلنا فجأة في عصر متبدلات كبيرة ولم تعد لابتكاراتنا الصغيرة أية فائدة. لقد تجاوزنا كلية تيار الأحداث ولم يعد بيدنا أية حيلة!

-٢-

كما أسلفت سابقاً لو أنني اعتمدت كلياً على هذه المهنة كمورد للرزق، لكان قد مضى زمن طويل على موتي جوعاً. مع ذلك إذا كانت الكفاءة التي اكتسبتها لاتستطيع أن تخدمني للأبد، إلا أنني في الواقع حصلت من سنوات التدريب الثلاث على منفعة لا يمكنني أبداً التوقف عن الاستفادة منها. كان يمكنني عند ذاك

(١) هبة خاصة تقدم في حالات الشفاء من المرض أو لنذر استجاب الله له.

أن أترك أدواتي جانباً وأن أغير مهنتي، إلا أن هذه المنفعة كانت ستلاحقني دائماً. حتى بعد وفاتي، ثمة أناس عندما سيتكلمون عني وعن طريقة حياتي، لن يتوانوا أبداً عن التذكير بأنني في شبابي كنت قد حصلت على تدريب لمدة ثلاث سنوات.

لا يحصل المتمرن على مهنة وحسب، بل يتعلم النظام أيضاً. عندما يصل للمرة الأولى إلى أحد المشاغل، يكون حكم الرعب والمعاكسات هو السائد. يطلبون منه النوم في وقت متأخر والاستيقاظ باكراً، عليه إطاعة الأوامر وإيعازات جميع الناس، وأن يظهر بمظهر الخادم المطيع تماماً، وأن يتقبل برحابة صدر الشقاء الذي يبتلى فيه كالجوع والبرد والألم والتعب، وكل ذلك وهويبلع دموعه. على هذا النحو كان المشغل الذي كنت أتمرن فيه هو منزل معلمي أيضاً. بعد أن يكابد المرء الأمرين من معلمه عليه أن يتحمل أيضاً زوج المعلم. فيكون بحق بين المطرقة والسندان. للبقاء في هذا النظام طوال سنوات ثلاث يجب على أكثر الناس عناداً أن يخنعوا وأكثرهم ليونة أن يتشددوا. أستطيع القول بكل صدق أن طبع المتمرن لاعلاقة له البتة بالصفات الفطرية، إنما يعتمد الأمر في النهاية على الضربات التي يتلقاها. ذلك أشبه بالحديد: عن طريق طرقه نحصل على الشكل المطلوب.

في تلك الأيام فكرت جدياً بالانتحار من فرط ما تحملت من الصعاب. لايمكن لأي شخص أخر أن يتحمل مثل هذه المعاملة! أما الآن، عندما أفكر بذلك أجد هذا التأديب وهذا التعليم كانا يستحقان وزنهما ذهباً. عندما يتلقى المرء تدريباًكهذا، لا يعد ثمة شيء في العالم لا يمكن أن يتحمله. نقبل بأي شيء. على سبيل المثال إذا رغبتم أن تجعلوا مني جندياً، حسن سأكون جندياً ممتازاً جدا! على الأقل في الجيش لا يكون التدريب إلا في أوقات محدودة، بينما لا يتمتع المتمرنون، خارج أوقات النوم بلحظة من الراحة. حتى أنني كنت أتذرع بحجة الذهاب إلى الحمام لأغفو وأنا مقرفص. وفي الأيام التي يستمر فيها العمل حتى ساعة متأخرة من الليل، كنا نحصل إجمالاً على ثلاث أو أربع ساعات من الراحة. كنت قد تعلمت ابتلاع وجباتي بسرعة كبيرة. لأنني ما أن أحصل على قصعة

الطعام، حتى أسمع المعلم يصيح أو تناديني معلمتي، أو كان زبون يأتي ليوصي على طلب ما. عندها لزام أن ألبي طلبه بكل أدب ولياقة. وأن انتبه للطريقة التي كان المعلم يحدد بها سعر البضاعة تبعاً لنوعية العمل. فإذا لم أقم ببلع قصعتي كلها دفعة واحدة، لن أستطيع بعدها أبداً إتمام طعامي!

تدريب كهذا علمني أن أجابه الظروف كلها، وأن أحتفظ فوق ذلك بما يتطلبه الأمر من لطافة. هذا شيء لايستطيع أن يفهمه في يوم، حسب رأيي المتواضع، من نال التعليم في المدارس. ففي المدارس الحديثة الآن، حيث يتم تنظيم مسابقات لألعاب القوى، يصبح الطلاب بعد دورتين في المضمار مثل منتصرين يمتطون أحصنة مغطاة بالزبد! ليس فقط علينا أن نساندهم وأن نُقبلهم ونمسد أفخاذهم بالكحول، بل هم يتصنعون الرياء أيضاً ويطالبون بسيارات! كيف يمكن لأولاد مدللين كهؤلاء (أبناء أبيهم) أن يفهموا ما هو التدريب والتمرين؟ لأعود إلى ما كنت أقوله، قدمت لي المصاعب الجمّة التي خضعت لها ركيزة تسمح لي بالعمل الشاق دون أن أتمرد. لم أكن في يوم أقبل أن أبقى عاطلاً عن العمل. وعندما كنت أعمل لا أقوم بخلق قصص أو مجاملات خادعة، كنت قادراً على تحمل كل ذلك مثل أي جندي، مع الفارق أننا في الجيش أبعد ما نكون عن اللطافة على عكس ماكان الحال عليه معي!

تثبت حادثة أخرى، فوق ذلك، قوة شخصيتي. عندما أصبحت رفيقاً بعد انتهاء فترة التمرين، فعلت مثل باقي الحرفيين لأثبت تماماً أنني أصبحت من الآن فصاعداً، أكسب قوتي بعرق جبيني. بدأ الأمر بشرائي نرجيلة. ما أن يتسنى لي الوقت حتى كنت أخرجها وأسحب منها الدخان بجلبة لأعطي لنفسي مزيداً من الأهمية. شيئاً فشيئاً، أدمنت الشرب أيضاً، والتمزّز بكثرة بكأس صغيرة من الماونيناس[1] وأنا أفرقع لساني جيداً. تكمن المشكلة أن عادة سيئة تجر وراءها دوماً عادة أخرى، نظن الأمر مجرد تمضية للوقت، ثم لا نستطيع كبح أنفسنا. على هذا

---

(١) تعني الترجمة الحرفية بول القطة وهو كحول سيء النوعية.

النحو وجدت نفسي رويداً رويداً أدخن الأفيون. في ذلك الوقت، لم يكن الأفيون ممنوعاً وحتى أنه كان رخيص الثمن . في بداية الأمر كنت أدخن لمجرد التسلية، بعد ذلك لم أعد أستطيع التخلي عنه. عند ذاك بدأت أجد نفسي محروماً من المال وتنبهت إلى أنني أصبحت أقل نشاطاً في العمل. حسن، تصوروا أنه بين ليلة وضحاها، دون انتظار أن يوجه إليّ أحدهم كلمة واحدة، نبذت كل ذلك: ليس الأفيون فحسب. بل التبغ والكحول أيضاً. كسرت نرجيلتي قسمين، وانتسبت إلى طائفة كانت تُلقب ب«العقل» حيث يجب الامتناع تماماً عن الشرب والتدخين خوفاً من مواجهة الشؤم. كانت فكرة أن يترصد لي الحظ السيء حافزاً لي لأفضل التوقف عن ذلك في الحال.

لكن عندما أفكر في ذلك اليوم، أرى أنه لم يكن بإمكاني امتلاك الشجاعة والحزم لو لم أكن في أحد الأيام متمرناً. لأننا عندما نقرر التوقف يكون مزعجاً للغاية أن نرى الآخرين يدخنون أو يشربون. يتملك المرء شعور أن آلافاً من الديدان الصغيرة تقرص قلبه! لحسن الحظ إن الخوف من الشؤم كان ينهاني عن ذلك. مع هذا، لم يكن الخوف وحده كافياً، لأن الإنسان مادام هو ليس في ورطة فإنه يسخر منها. ما يهم قبل كل شيء هو المقدرة على الثبات حتى النهاية، وهذا ما كان التدريب وحده يتكفل بتعليمي إياه ويهيئني له تماماً.

من وجهة نظر مهنية، كان لدي الشعور بأنني حتى لم أهدر وقتي إطلاقاً خلال السنوات الثلاثة التي قضيتها كمتمرن. تتشابه الأمور في كل المهن. على المرء أن يتماشى مع الزمن، فإذا لم تكن الوسائل المتبعة هي نفسها، يبقى التطبيق هو نفسه. منذ ثلاثين سنة يتقن أي بنّاء عمله، فهو يصقل الآجر ويسوي المفاصل، بينما الآن عليه استخدام الإسمنت وأحجار البناء الصناعيين. كذلك نجار كان في الماضي ينجر الخشب حتى الكمال، عليه اليوم أن يكون قادراً على صنع الأثاث على الطريقة الغربية. في مهنتنا يحصل الأمر ذاته، وحتى يتجاوز ذلك. نحن نملك القدرة على تصنيع أي شيء طبق الأصل تماماً. على سبيل المثال يمكن أن يطلب

منا، من أجل الدفن، إعداد مأدبة كاملة، ونحن أهل لتصنيع كل الأطباق من الورق، مثل الدجاج والبط كما السمك واللحم. وإذا حدث وماتت فتاة عند عائلتها قبل أن تتزوج، يُطلب منا أن نصنع جهازاً كاملاً لها. بما في ذلك تصنيع ثمانية وأربعين حمالاً أو اثنين وثلاثين[1]. عند ذلك نتوخى ألا ينقص أي شيء، ابتداء من علبة البودرة وقارورة التجميل حتى الصوان والمرآة المتحركة. كانت مهارتنا تعني بالنسبة لنا المقدرة على نسخ أي شيء من النظرة الأولى. وذلك لم يكن يتطلب كفاءة كبيرة، إنما قدر بسيط من الذكاء مع ذلك، إذ لا يمكن لإنسان بليد الذهن تماماً أن يصبح لصاقاً ماهراً للورق.

على هذا النحو، يمكن أن نصف عملنا بالمهنة واللعب في آن معاً. النجاح والفشل يعتمدان كلية على الطريقة التي بوساطتها نعرف كيف نستخدم أوراقاً بألوان مختلفة. وهذا شيء كان يتطلب التفكير. بالنسبة لي، رغم أنني لست خارق الذكاء جداً إلا أنني لم أكن مع ذلك غبياً. لذلك من بين الضربات التي تلقيتها أثناء تدريبي، قليل منها لم يكن له أية علاقة بالمهنة. كان السبب في الغالبية العظمى منها هو أنني كنت أميل جداً إلى فعل ما يجول في رأسي نظراً لشدة دهائي. في مهن أخرى، لربما لن أجد الفرصة أبداً لإظهار هذا الذكاء. عند بيطار أو في منشرة، نطرق الحدوات وننشر الخشب طول اليوم، نقوم بالشيء ذاته على الدوام. لهذا كان حظي كبيراً أن أعمل لدى لصاق ورق، إذ بمجرد تعلمي أوليات المهنة، استطعت تتبع وحيي الشخصي، وأنا في الوقت ذاته أسعى للحصول على نسخ هي أكثر ما تكون ابتكاراً ومطابقة للأصل.

أحياناً، كنت أهدر وقتي وأبذر المواد دون الوصول إلى نسخ ما كنت أتصوره. لكن هذا علمني أن أسعى وأفكر أكثر، ولا أتوانى مطلقاً قبل الوصول إلى هدفي. وهذا بحق تمرين ممتاز. معرفة كيف أستغل الذكاء الذي حباني إياه الله أضحى عادة وفرتها لي سنوات التمرين الثلاث. وأنا ممتن لها جداً. حتماً كان

---

(١) في الأعراس الكبيرة عند نقل جهاز العروس إلى بيتها الجديد.

بإمكاني فعل أشياء أكثر أهمية في حياتي، لكن على الأقل، كل ما كان الناس العاديون يستطيعون عمله كنت قادراً على التقاطه من النظرة الأولى بحسن نية... على هذا النحو كنت أعرف كيفية بناء جدار، زرع شجرة، تصليح ساعة ومعاينة فراء، اختيار اليوم المناسب للزواج، لذلك كنت أعرف القليل من أسرار المهن كلها، وكل ذلك كنت قد تعلمته بالممارسة دون أن أدرسه، معتمداً فقط على عيني ويدي، بفضل العادة التي اكتسبتها في العمل الشاق والتعلم دون توقف. كان يجب علي فوق ذلك أن انتظر حتى هذا الوقت، بعد أن أصبحت قاب قوسين أوأدنى من الموت جوعاً، لأفهم أنني لو كنت قد درست أكثر وغرقت في الكتب أكثر مثلما فعل الموهوبون المتمرنون للأيام الغابرة أو حاملو شهادات المدارس الحديثة، لكنت أصبحت خجولاً طول حياتي وجاهلاً جهلاً مطبقاً! بدل أن أجني ثروة من مهنة اللصاق أو أتبوأ مركزاً رسمياً، كانت على الأقل قد عرفتني على حياة مترعة بالخير، فقيرة لكنها غنية بالحياة ولا ينقصها المذاق الإنساني.

بإتمامي عامي العشرين، حصلت على احترام أقربائي وأصدقائي، احترام مرده ليست الثروة أو المكانة الاجتماعية، وإنما بكل بساطة أنني كنت أمارس أعمالي بعناية تامة ولا أنفر من العمل بتاتاً. وعندما صرت رفيقاً، كان يمكن للآخرين أن يجدونني في كل الأيام في قهوة على ناصية الطريق، حيث كنت أنتظر الزملاء الذين كانوا يقدمون لطلب مساعدتي. وسرعان ما صرت معروفاً في الحي بأكمله، فأنا شاب ماهر ولدي فائض من الحصافة. إذا كان ثمة أناس يريدون استئجاري للعمل أتبعهم وأمارس مهنتي، وإذا لا، لا أبقى عاطلاً عن العمل. لدي دائماً أقرباء أو أصدقاء يفوضون إلي كماً من الأعمال لإدارتها. لم أكد أتزوج حتى طُلب مني أن أقوم بدور وسيط[1] لرجل آخر.

كانت مساعدة الآخرين بالنسبة لي عبارة عن شكل من التسلية لا أستطيع الاستغناء عنه. لماذا؟ لأنه كما أسلفت القول، ثمة في مهنتنا نوعان من العمل.

(١) دور الخاطب كان يعهد للرجال كما للنساء.

الأول هام ونظيف وهو الرسومات الجنائزية، والآخر هو «البياض» وهو مختلف تماماً. لإعادة تغطية جدران منزل ما، يلزم في واقع الأمر نزع الورق القديم وهذا ما لم يكن قط عملاً ممتعاً. إن من لم يقم بهذا العمل لا يملك أدنى فكرة عن الغبار الذي يغطي الورق: فبسبب تراكمه خلال أيام وشهور يصبح أكثر جفافاً ونعومة من أي غبار آخر، ويتغلغل في الأنف. هكذا كنا نتحول بعد ثلاث غرف إلى أشباح معفرة، وعندما كنا نقوم بلصق الورق الجديد، بعد أن نعشق بشكل جيد سيقان الذرة البيضاء في السقف، كان ثمة رماد فضي اللون يفوح برائحة عفنة ويلتصق بالمنخرين. باجتماع الغبار وهذا الرماد يصبح الرجال مسلولين أو مصابين بالسل مثلما نقول اليوم. لم أكن أحب هذا النوع من العمل إطلاقاً. لكن في حال قدم أحدهم من الطريق لاستخدامي لم أكن لأستطيع الرفض أبداً، فعندما يأتي العمل يلزم القيام به. لذا كنت أقبل شريطة أن أبقى دائماً أو أكاد في أسفل الغرفة، لأكون ذاك الذي يقص الورق ويلصقه ويمرره للآخرين، ولا أقبل الصعود على السلم القصير، هكذا أستطيع العمل منخفض الرأس بطريقة أبلع فيها أقل قدر ممكن من الغبار. في الواقع، لم يكن هذا يحول دون أن أتغطى بسرعة من الرأس حتى القدمين بالغبار وأن يتحول أنفي إلى مدخنة حقيقية. بعد عدة أيام من هذا العمل، أشعر برغبة في تغيير عملي وممارسة عمل آخر لبعض الوقت. لهذا عندما كان أصدقائي أو أقربائي يطلبون مني خدمة، كنت أقوم بها بسعادة كبيرة.

من جهة أخرى، كانت مهنتي تضعني بلا توقف على تماس مع الناس خلال مراسيم الزفاف أو الدفن. أولئك الذين كانوا يوصونني أن أشتري حاجياتهم، كانوا يعهدون إليّ في أغلب الأحيان بأعمال أخرى أقوم بها في الوقت ذاته. كنصب خيمة ليوم الزفاف أو الدفن، تجهيز الرايات كلها من أجل الاحتفال، استخدام طباخ، استئجار سيارات أو أحصنة، الخ ... شيئاً فشيئاً جعلني حبي لهذا النوع من العمل، أتعلم كيف أجد الحلول للمصاعب وكيف أبذل جهدي في تسوية كل شيء على أفضل صورة، دون أن يكلف ذلك غالياً ومتجنباً أن يتصرف أي شخص بحماقة ما. اكتسبت بفضل هذا النوع من الأعمال خبرات كثيرة وتعلمت

كيف يلزم أن أتعامل مع الناس، حتى أنني بمرور الأيام أصبحت قبل أن أبلغ الثلاثين من عمري رجلاً حاذقاً بكل معنى الكلمة.

-٣-

يدل بوضوح الحديث الذي ذكرته آنفاً أنه كان من المستحيل أن أستمر رغم كل ذلك في كسب قوتي من مهنة لصق الورق. وكان التبدل مفاجئاً. يشبه ذلك معرضاً أوقفه المطر بغتة، مرغماً الحضور على التفرق راكضين في كافة الاتجاهات. بالنسبة لوضعي الشخصي، كان شعور ينتابني طول حياتي أنني أسير في طريق منحدرة دون أن أتمكن من التوقف مطلقاً. كلما كان قلبي يتطلع إلى السلام والهدوء، كنت أشعر بالغرق أكثر. لكن في هذه المرة، كان التغيير جذرياً إلى حد لا يدع فيه مجالاً لأي شخص لالتقاط أنفاسه. لم يكن ذلك تغييراً وإنما إعصاراً حقيقياً ندعه يستولي علينا بغباء دون أن نعلم إلى أين يحملنا. من بين المهن والأعمال التي كانت لا تزال مزدهرة في أيام شبابي، كان عدد كبير منها يجد نفسه في طريق مسدود، ولا نعد نسمع به البتة. يحدث هذا كما لو أن البحر ذاته كان قد ابتلعها. لا تزال مهنة لصق الورق تقاوم بطريقة ما، لكن إذا لم تسلم الروح أبداً فمن المحتمل أن لا تنهض من الوضع الذي آلت إليه. على المستوى الشخصي أدركت هذا الأمر منذ وقت مبكر. لو كنت أرغب خلال السنوات التي ساد فيها السلام لاستطعت بسهولة كبيرة أن أفتح دكاناً صغيراً وأضع فيه متمرنين اثنين، وأكسب لقمة عيشي مرتاح البال. بيد أنني لحسن الحظ لم أقم بذلك. إذ كيف كنت سأكسب قوتي دون الحصول على عمل ضخم خلال العام كله، صانعاً فقط عربة أو اثنتين من الورق وبعض الأسقف التي يلزم فرشها؟ يكفي أن نفتح أعيننا لنرى أنه منذ أكثر من عشر سنوات لم يعد ثمة طلبية مهمة. لذلك لم أكن مخطئاً أبداً عندما قلت لنفسي أنه يتوجب عليّ تغيير مهنتي.

مع ذلك لم يكن ما ذكرته سابقاً السبب الوحيد في تغيير مهنتي المفاجئ.

رجل واحد لم يمنع التاريخ قط عن الدوران. والرغبة في معارضة التبدل هي صراع غير متكافئ الأطراف. إن الصراع ضد الزمن ينهك القوى ولا يجر علينا إلا الهموم. بالمقابل إذا وقع حادث ما يخصك وحدك، تكون وطأته عليك في أغلب الأحيان أكبر بكثير، فهو يستطيع أن يجعل منك مجنوناً بين ليلة وضحاها. وعندما يصل الأمر إلى حد أن تجد طبيعياً أن تلقي بنفسك في النهر أو في قعر البئر، فلن يكون من المستغرب أبداً، بل أن ذلك من المسلمات، أن نترك مهنتنا لنمارس غيرها. إن حدثاً في ذاته لا يعني إلا فرداً ما يكون قليل الأهمية، لكن عندما يقع على ظهرك أنت وتكون وحدك من يتحمل تبعيته، فإنه يقوم بسحقك: مثل حبة الأرز هي صغيرة جداً، مع ذلك بالنسبة للنملة التي تحملها تكون حملاً مضنياً. نحن بحاجة للتنفس من أجل أن نحيا، لكن عندما نواجه هما يقوم بقطع أنفاسنا ويفقدنا الرشد. الإنسان شيء وضيع جداً!

كان سوء طالعي أنني كنت فطنا ولطيفا مع الناس. للوهلة الأولى يبدو هذا لكم شيئاً لا يصدق، لكنه مع ذلك حقيقي تماما وأنا أقسم على ذلك. لو لم يحدث هذا معي شخصيا، لما تصورت أن يحدث شيء كهذا في يوم. لكن المصيبة وقعت على رأسي أنا بالذات. على الفور ظننت أنني سأغدو مجنوناً فعلاً. الآن، عندما أفكر بالأمر، بعد مرور عشرين أو ثلاثين عاماً على ذلك يدفعني للابتسام كما لو أن الأمر بكل بساطة كان مجرد حكاية. لكنني فهمت اليوم أن الصفات التي يتحلى بها المرء لا تفيده بالضرورة. إذ لا يكفي أن يكون المرء طيباً، بل يجب أن يكون الآخرون كذلك، فيما لو أردنا أن تخدم هذه الطيبة في شيء. في هذه الحالة نكون مثل سمكة في الماء. لكن في الحالة المعاكسة، عندما يسود الشر لا يخلق الخير إلا الإزعاجات. لماذا إذن على المرء أن يكون ماكراً ولطيف المعشر معا؟ الآن بعد أن أدركت هذه الحقيقة، أفضل عند تذكري هذه الواقعة أن أهز رأسي مبتسماً. في الواقع كان ذلك صعب الفهم للوهلة الأولى، لكن يلزم القول أنني كنت حينها ما أزال شابا.

مثل كل الشباب، كنت أحب أن أبدو أنيق المظهر: لذلك، عندما كنت أقوم بزيارات مجاملة أو أنشغل بالأعمال التي يعهد بها الآخرين إلي، لا يمكن لأحدهم أن يقول، وهو يرى لباسي ومظهري المتميز، إنني كنت حرفيا بسيطا. في الماضي كانت الفراء باهظة الثمن ولا يمكن لأي شخص ارتداؤها. في أيامنا، يظن الناس أن كل شيء مسموح لهم. ما أن يربح أحدهم في السباق أو يحصل على الجائزة الكبرى في اليانصيب، حتى نراه يرتدي معطفاً من فراء الثعلب، حتى لو كان من يرتديه غلاماً في الخامسة عشرة من عمره أو طائشاً في العشرين لا يزال بلا لحية. في الماضي مشهد كهذا غير وارد على الإطلاق. العمر والمكانة هما اللذان يحددان اللباس وزينة كل واحد. في ذلك الوقت كانت ياقة من فراء السنجاب كافية ليكون مرتديها أنيقاً. لذلك كنت دائماً أرتدي واحدة، أضعها فوق سترة أو صدرية من الساتان الأسود. ساتان لم يكن في ذلك الوقت من النوع المقاوم جداً لكنه مع ذلك يبقى صالحا لعشر سنوات. عندما كنت أذهب لأرمم الأسقف، كنت أعود بالطبع مغطى بالغبار، غير أنني ما أن أصل حتى أقوم بالاغتسال وفي الحال يتحول الشبح المعفر الذي كنته إلى شاب غندور. بضفيرتي السوداء اللون وجمجمتي الزرقاء تماما واللامعة من فرط حلقها، وصدريتي ذات الفراء، لم أكن بحق أي شخص!

بالنسبة لشاب غندور، ليس هناك ما يرعبه حتماً أكثر من الزواج من فتاة قبيحة الشكل. لذا كنت قد ذكرت على مسامع أهلي عرضاً، أنني أفضل البقاء عازباً على الزواج من فتاة لا تروق لي. في ذلك العصر، لم يكن ثمة مجال للزواج بحرية. لكن ثمة إمكانية أن نرى بعضنا قبل الزواج أثناء فترة الخطوبة. لذلك طالبت قبل كل شيء بلقاء شخصي ورفضت الوثوق بالكلمات الجميلة للوسيط المعتاد في مثل هذه الظروف.

على هذا النحو، عقد قراني في العام نفسه الذي ناهزت فيه العشرين عاماً، وكانت زوجتي أصغر مني بعام واحد جميلة أو لا، كان الجميع يجدها لطيفة وممتلئة حيوية. يجب القول أنني كنت قد التقيت بها شخصياً قبل الخطوبة، وكان ذلك

المعيار المضاعف الذي كنت قد حددته عند اختيار شريكة المستقبل. لو لم تكن تملك هاتي الصفتين، لما كنت حتماً قد قلت نعم. كان اختياري فضلا عن ذلك يتناسب والرجل الذي كنته حينذاك. شاب وأنيق ومثابر في أعماله. لذا كنت أرى نفسي تعساً مع امرأة قبيحة وحمقاء مثل دجاجة رومية.

كان التكافؤ بيننا كبيراً لدرجة أن هكذا اتحاد لا يمكن إلا أن تباركه السماء. لم نكن نحن الاثنان رشيقين وشابين فحسب، بل يتمتع كل واحد منا بطول لا بأس به. وحتى سهولة تأقلمنا بين الناس كانت تدهش أصدقاءنا وأقرباءنا وتثير ابتسامة إعجاب في عيون الأشخاص الأكثر سناً ممن كانوا ينظرون إلينا. كنا نرغب، نحن الاثنان متنافسين على سرعة البديهة وسهولة التعبير، أن نكون محط الأنظار في كل مكان، فقط لمتعة سماع المديح الإجماعي الذي كان الناس يسبغونه علينا، وهم يتحدثون عنا كما يتحدثون عن زوجين شابين ينتظرهما مستقبل ناجح. مديح كهذا يصدر عن الآخرين لا يمكن له إلا أن ينمي الاحترام والحب الذي كنا نكنه لبعضنا البعض، كما لو أننا نكاد نكون أبطالاً حقيقيين في إحدى الروايات.

حتى لا أكتمكم شيئاً كنت سعيداً جداً. لم يكن والداي يملكان ثروة إنما لديهما منزل. وهذا المنزل الذي يمكننا أن نقطنه دون دفع إيجار له، كانت فيه باحة مليئة بالأشجار. كذلك ثمة قفص يحوي زوجاً من طيور الصفارية كان معلقاً تحت الإفريز. بالإضافة لذلك، كانت لدي مهنة وعلاقات طيبة مع الناس وامرأة شابة تلائمني. فإذا لم أكن سعيداً مع كل هذا، لا يكون مرد ذلك إلا أنا ذاتي.

بالنسبة لزوجتي، كنت عاجزاً تماماً عن إيجاد نقيصة واحدة فيها. صحيح أنني أحياناً كنت أشعر بأنها أليفة أكثر من اللازم مع الناس، غير أنه من الطبيعي أن لا ينقص امرأة ممتلئة حيوية مثلها الصدق أو العفوية. إذا كانت تثرثر فليس مرد ذلك عدم معرفتها بأصول الحديث. وإذا لم تكن تتجنب رفقة الذكور، فهذا تحديداً لكي تتمتع بالميزة التي يتيحها لها وضعها الجديد كمتزوجة. حتى أنه كان طبيعياً بعد فراق أسرتها، أن تفقد فتاة موهوبة مثلها القليل من حيائها وأن تعيش بحرية معتبرة نفسها

من الآن فصاعداً «كسيدة» ولا يوجد ما يسيء في ذلك. أضف أنها كانت ودودة جداً ومجاملة جداً مع الأشخاص الأكثر شباباً. في حالة كما في أخرى، كانت طبيعتها الحرة والعفوية هي التي تدفعها للتصرف بمودة كاملة. لذلك لم أكن أبداً أحفظ لها أية ضغينة.

الحمل والأمومة زادا أيضاً من جمالها. وأنا لم أكن لألومها على ذلك. إذ هل ثمة في العالم ما يؤثر أكثر من امرأة شابة حامل وما يثير الحنان في القلب أكثر من أم شابة؟ عندما كنت أراها جالسة على عتبة المنزل، تكشف قليلاً عن صدرها لتقدمه للرضيع، لم أكن أستطيع منع نفسي عن حبها أكثر، ولم يكن يخطر في بالي أن ألومها على تهاونها في هكذا تصرف.

ببلوغي الرابعة والعشرين من العمر، كنت قد أصبحت أباً لولد وفتاة. لكن بالنسبة لتربية الأطفال تكون مقدرة الزوج ضئيلة جداً. فهو عندما يكون حسن المزاج، يحمل الرضيع بين ذراعيه ويلعب معه للحظة، لكن المسؤولية كلها تقع على عاتق الزوجة. عندما لا يكون المرء أحمق يمكن له أن يتفهم الأمر دون انتظار أن يخبره أحد بذلك. مع أن المساعدة التي يرغب الأزواج أحياناً في تقديمها إلى زوجاتهم لا تجدي في نهاية الأمر نفعاً. سبب آخر ليقدم الزوج إلى زوجته مزيداً من الحرية والاستقلالية مهما كان تفهمه لهذا الأمر بسيطاً. إن معاكسة امرأة حامل وأم شابة تعني بحق، وأنا أقسم على ذلك، أن يكون فاعلها أبلهاً وشريراً. منذ اللحظة التي أصبحت فيها أماً، فسحت لزوجتي مجالاً لحرية التصرف أكثر: كنت أجد ذلك طبيعياً وعادلاً.

لقول الأشياء بطريقة مجازية، تشبه العائلة شجرة تزهر عند قدوم الأطفال. فهي لا تكشف عن جذورها العميقة إلا عند الإزهار. عندما يحدث ذلك ليس ثمة عملياً مكان للقلق أو لإظهار الغيرة: لأن الأطفال في سن الطفولة يقيدون أمهم بشدة. لهذا اعتبرت عبثاً أنّ زوجتي كانت أليفة أكثر من المعتاد كي لا أقول أنها كانت فاسقة. حقاً لم يكن للقلق أن يساورني وهي أم لعائلة.

- ٤ -

حتى اليوم لا أتوصل لفهم حقيقة ما جرى معي . كل ما أعرفه أنني كدت أصبح مجنوناً عندما تركتني زوجتي دون سابق إنذار لتهرب مع شخص آخر . وإلى الآن لا أزال غير قادر على استيعاب الأمر ، رغم أنني لست شخصا بليد الذهن . فأنا لم أكن أقضي وقتي في التوسط للآخرين فحسب ، لكني كنت أعلم كيفية التعامل مع الناس . وكنت أول من يكشف سيئاتي وحسناتي على حد سواء . إلا أنني في هذه المسألة بالذات ، فكرت عبثاً ولم أجد شيئاً واحداً يبرر ما لحق بي من خزي وعقاب مماثلين . ولعدم قدرتي على اكتشاف أسباب أخرى ، لم أستطع أن أقول إلا شيئاً واحداً ، مرد شقائي هو ذكائي ولطفي بذاتهما .

الرجل الذي هرب مع زوجتي كان رفيقاً من أيام التدريب أكبر سناً مني . يدعوه الجميع ب«نوارو» وهكذا كنت أنا نفسي أدعوه ، مفضلاً ألا أكشف عن هويته الحقيقية ، على الرغم من أنه كان غريمي . لقب بهذا الاسم لأن سحنته لم تكن فاتحة اللون وعندما أقول أنها لم تكن كذلك ، فهذا يعني أنها كانت سوداء اللون . كان لون وجهه يماثل لون كرات الحديد التي كان الناس في الماضي يدحرجونها في باطن يدهم لتليين أصابعهم . سمرة غامقة اللون جداً لكنها في الآن ذاته ملساء جداً ولامعة جداً تجذب من شدة لمعانها . عندما كان يشرب قدحين من الخمر أو يشعر بالحر الشديد ، يتضرج وجهه بالحمرة ، حتى يمكن القول أن ذلك يشبه غيوم سوداء عندمغيب الشمس تتألق كلية بفعل اللون الأحمر . مع ذلك كله ، لم تكن في قسمات وجهه سمات جمالية خاصة بل كنت أجمل منه بكثير . كان طويل القامة ، لكن قامته بعيداً عن أن تفرض الهيبة ، كانت تظهره بهيئة رجل يتخلع في مشيته . مختصر القول لو لم تكن له هذه السحنة السوداء اللامعة ، لكان محياه منفراً .

كنت معه على الدوام ودوداً للغاية . لم يكن رفيق فترة التمرين فحسب ، بل

كان ساذجاً وخشن المعشر لدرجة أنني حتى لو لم أكن له الحب، لم يكن ثمة سبب يدفعني للشك فيه. لم تكن طريقة التفكير الخاصة بي تهيئني للحذر من الناس خاصة. على العكس، كنت أظن أن عيني لا يمكن لها أن تخطىء، حتى أنني عندما كنت أثق بنفسي، كنت أثق كذلك بالآخرين. لم أفكر قط أن واحداً من أصدقائي سيصل به الأمر إلى درجة طعني في الظهر على هذا النحو. منذ اللحظة التي كنت أقرر فيها أن أعقد صداقة مع أحدهم، كنت أعامله كصديق فعلاً. في حالة الرفيق الذي كنت أتحدث عنه، حتى لو كنت أملك أسباباً للشك فيه، كنت أدين له، مهما يكن من أمر، بالاحترام وحسن الضيافة كونه يكبرني سناً. كنا قد تعلمنا المهنة لدى المعلم نفسه ونلتقي في زاوية الطريق نفسها لنكسب لقمة عيشنا. فإذا كان ثمة عمل لنا أو لا، لم يكن بمقدورنا ألا نلتقي عدة مرات في اليوم. هكذا عندما يعرف المرء أحداً معرفة وثيقة كيف عساه ألا يتخذه صديقاً؟

عندما يكون ثمة عمل، نذهب للقيام به سوية، وإذا لا، كان يأتي دائماً للأكل أو لشرب الشاي عندي. أحياناً كنا نلعب الورق أي سورهو[1]، لأن لعبة المهجونغ لم تكن بعد منتشرة جداً. وكان هو يستجيب لحفاوتي بلا كلفة. كنا نأكل ونشرب ما كان متوفراً، إذ لم أكن أحضر له شيئاً خاصاً، ولم يكن هو ليبدي غضاضة من ذلك. كان يأكل كثيراً، لكنه لم يكن صعب الإرضاء بالنسبة لنوعية الطعام. لا زلت أراه وهو يحمل قصعة كبيرة في يده، على وشك أن يأكل معنا على سبيل المثال حساء المعكرونة. كان ذلك المشهد مسلياً. عنقه ترشح عرقاً من كافة الجهات ويصدر فمه صفيراً صاخباً، ويضحى وجهه قرمزي اللون أكثر فأكثر، متحولاً رويداً رويداً إلى ما يشبه كرة ضخمة من الفحم ضاربة إلى الحمرة. من كان يظن أن رجلاً كهذا كان يبيت لي الغدر؟

بعد فترة، اكتشفت لدى رؤيتي نظرات الغرام التي كانا يتبادلانها، أن لاشيء كان يسير نحو الأفضل في أحسن البلدان، إلا أنني لم أولِ الأمر عناية خاصة.

---

(١) لعبة قديمة يُستعمل فيها أوراق تابوت، وهو أطول من الورق العادي وعدده ٧٨ورقة.

الإنسان الأحمق كان سيتصرف بلا التواء قائلاً في نفسه أنه لا ثمة دخان بلا نار إطلاقاً، وسوف يثير على الفور مشاجرة ساخنة جداً. غير أن احتمالات أن يخفق في ذلك وهو لا يملك أي دليل ستكون مساوية لاحتمالات أن يتبين جلية الأمر على الفور. لذلك نظراً لتحفظي الشديد، رفضت التصرف بلا هوادة وقررت أخذ الوقت في التفكير قليلاً بروية.

حين استجوبت نفسي في البداية لم أجد ما أدين به ذاتي. حتى مع كل السيئات التي يمكن أن تكون لديّ، كنت أبزه بأناقتي وذكائي وشخصيتي. هو، من جهة أخرى، لم تبدُ عليه ملامح الشر لا في وجهه ولا تصرفاته، وحتى لم تكن لديه الوسائل الضرورية لتحقيق ذلك. لم يكن أبداً نموذجاً من أولئك الذين يرمون بشباكهم لامرأة منذ اللقاء الأول.

لأقفل القضية استند الفحص الدقيق الذي كنت قد باشرت به على سلوك زوجتي الشابة: ها قد مرت خمس أو ست سنوات وهي معي، ولا يمكن القول أبداً أننا لم نكن سعداء في العيش سوية. على افتراض أنها كانت تتظاهر بالسعادة وكانت قادرة على الهرب مع أحد ما كانت تحبه، وهذا ما كان عملياً في ذلك الوقت من المستحيلات، لا يمكن أن يكون هذا الشخص هو نوارو، كنا نحن الاثنان حرفيين بسيطين ولم يكن وضعه الاجتماعي أعلى شأناً مني. كذلك، لم يكن أكثر غنى أو شباباً مني. إذا، ما الذي كان يدور في خلدها؟ هذا ما كنت أجهله. عند اللزوم كانت تستطيع أن تدع نفسها تستسلم للإغراء، لكنه هو، كغاو، كانت الوسائل تنقصه بحق. هذا مناف للعقل! آه حسن! لو كنت أرغب لكنت من يستطيع القيام بدور الغاوي. صحيح أن المال في حوزتي لم يكن وفيراً، لكني على الأقل، كنت أحظى بطلعة بهية! بينما هو، نوارو، فعلاً لم أكن أدرك ما الذي كان يملكه لذاته! وعلى افتراض أنها فقدت رشدها للوهلة الأولى ولم تعد تميز بين الخير والشر، كيف وافقت على الابتعاد عن ولديها؟

لهذا لم أستطع أن أصدق ما كان يقال، ولا أن أقطع على الفور علاقتي مع

نوارو. ولا حتى أن استجوبها بسذاجة أقصد هي. فكرت في كل شيء، لكن لعدم عثوري على هفوة واحدة، لم يكن أمامي أي حل سوى أن أنتظر بصبر أن يفهم الناس أخيراً أنهم أثاروا الشك بلا طائل. حتى لو لم يكونوا قد نشروا إشاعات خاطئة، كنت مرغماً على التنبه. لأنني لم أكن أوافق على أية حال أن ننجرف كلنا بلا سبب وجيه في الوحل، أنا وصديقي وزوجتي. عندما يتمتع المرء ولو بقدر ضئيل من الذكاء فإنه يتصرف بروية حتماً.

بعد ذلك بفترة بسيطة فقط اختفى نوارو وزوجتي. منذ ذلك الوقت لم أراهما قط. لماذا قبلت أن تلحق به؟ هذا ما لا أستطيع أبداً أن أفهمه إلا إذا رأيتها، هي، وأجبرتها على الاعتراف بالحقيقة كلها. لأن عقلي أنا، لم يكن في يوم قادراً على تبين حقيقة الأمر. من جهة ثانية، كان الأمل يراودني دائماً في أن أراها مجدداً في يوم لأفهم ما كان قد جرى معي. لكن حتى هذا اليوم لازلت أتخبط في الظلمة الأكثر سوادا.

بالنسبة للمشاعر التي كانت في ذلك الوقت تنتابني ماذا كان يجدي نفعاً أن استرسل فيها؟ يستطيع الجميع أن يتصوروا ماذا يمكن أن يكون الحال عليه بالنسبة لشاب أنيق يجد نفسه في منزله مع طفلين صغيرين بلا أم. ماذا يعني بالنسبة لرجل ذكي وصارم أن يرى زوجته التي يحبها تفر مع واحد من أصدقائه، والعار الاجتماعي الذي ينتج عن ذلك لم يجرؤ الناس الذين كانوا يتعاطفون معي على فتح أفواههم، والذين لا يعرفونني، عندما كانوا يعلمون بالقصة، كانوا يتجنبون اتهام رفيقي، ولا يلبثون أن يعاملونني كزوج مخدوع. في مجتمع كمجتمعنا، يدعي أنه يقوم على الشفقة البنوية والاحترام الأخوي، الصدق وحسن النية، يحب الناس كثيراً أن يكون ثمة مخدوع يشيرون إليه ببنانهم. من جهتي، أبقيت فمي مقفلاً، أكز على أسناني. صورة واحدة كانت تلاحقني وهي صورة خيالهما في مستنقع من الدماء. عند أول لقاء كنت سأضربهما بطعنة سكين دون أية محاكمة. في ذلك الوقت، كانت روح الانتقام التي تسكنني تبدو لي الوحيدة الجديرة برجل.

غير أنه الآن بعد مضي هذه السنوات، أفكر بالكاد بالدور الذي لعبته هذه المسألة في حياتي.

متأملاً الحصول على أنباء عن نوارو، ركضت استعلم في كل مكان تقريباً. غير أنه كان عناء لا طائل منه. لقد اختفى الاثنان تماماً كما تختفي الأحجار في عمق المحيط. ولعدم قدرتي على جمع المعلومات الصحيحة تبدد غضبي شيئاً فشيئاً. وما يثير الدهشة أن تبدده على هذا النحو، قد فسح مجالاً للشفقة على زوجتي. لايستطيع نوارو في واقع الأمر، كلصاق للورق أن يجد عملاً إلا في مدينة كبيرة قريبة من بكين أو تيان تشين. لأنه في الريف، لا يحتاجون لتماثيل متقنة الصنع مثل تلك التي كنا نقوم بها. لذلك كيف يستطيع القيام بأودها إذا كانا قد هربا أبعد من ذلك؟ فإذا كان قادراً على خطف زوجة أفضل صديق له، ما الذي يستطع ردعه عن بيعها بعد ذلك؟ عند هذه الفكرة كان الخوف يعذب روحي. كنت أتوقع بحق أن ترجع فجأة بعد أن تكون قد هربت منه، وتقول لي كيف وقعت في حبائله، وكذلك المآسي التي جعلها تعاني منها. حينها إذا ارتمت عند قدمي أظنني لن أكون قادراً على طردها. عندما نحب امرأة نحبها للأبد دون أن نأخذ بالحسبان الحماقات التي يمكن أن ترتكبها. في الوقت نفسه، لأنني كنت أرى أنها لن تعود أبداً وليست لدي أخبار عنها، كنت أتمزق بين الحقد والشفقة. وكانت الأفكار تتقاذف روحي لدرجة أنني كنت أعجز أحياناً عن النوم الليل بطوله.

بعد مضي عام أو أكثر، فقدت هذه المشاعر المتناقضة الكثير من حدتها. مع ذلك كنت غير قادر على نسيان زوجتي. وسأكون كذلك حياتي كلها. لكنني كنت أقول لنفسي أنني لن أقلق من أجلها أكثر من ذلك. خضعت أمام الحقيقة الصريحة للوقائع ولم أعد أشعر أنني مرغم على أن أُشغل بالي بها أكثر من ذلك.

مع هذا، بالنسبة لي، لم تكن الأمور قد انتهت تماماً. وسوف أحكي عنها لأن تلك المسألة التي لم أنجح في تفسيرها البتة كان لها عظيم الأثر في حياتي. كان الأمر كما لو أنني بفقدي زوجتي الحبيبة في الحلم، استيقظت لاكتشف أنها اختفت

بالفعل دون أن تخلف وراءها أي أثر. لم يكن الحلم غير مفهوم فحسب، بل من يستطيع حقاً أن يتحمل رؤيته يتحقق؟ إن رجلاً يرى مثل هذا الحلم إما أن يصبح مجنوناً، أو لا يستطيع التخلص من ذلك إلا بعد أن يتغير جذرياً: ألم يفقد نصف حياته؟

-٥-

في بادئ الأمر لم أكن أرغب في الخروج من غرفتي. كنت أخشى حتى الضوء وحرارة الشمس. أكثر ما عانيت منه هو خروجي للمرة الأولى إلى الطريق. فإذا مشيت مرفوع الرأس كما لو أنّ شيئاً لم يكن، ثمة حتماً أناس يقولون أنني لم أكن في يوم أعرف معنى العار. وإذا مشيت على العكس من ذلك محني الرأس، سيعني ذلك الاعتراف لنفسي كم كنت جباناً. وفي الحالتين سأكون أنا المخطئ. مع ذلك لم يكن لدي ما ألوم به نفسي أو أشتم بسببه أي شخص.

بانتهاء سنوات التقشف أخذت أدخن وأشرب من جديد. أضحى الشؤم أو عدمه سيان عندي. لا يمكن أن يكون ثمة أمر مهين أكثر من فقد المرء لزوجته. لم أكن أستدر الشفقة من الناس ولا ثمة سبب عندي، فضلاً عن ذلك، لأتشاجر مع أي شخص. لذا كنت أدخن وأشرب وحدي محتفظاً بآلامي لنفسي. لكي يستبعد الإنسان الخرافات، لا شيء يماثل شقاء ما يقع عليه دون أن يكون قد تحسب به. في السابق لم يكن ثمة آلهة واحدة أتجرأ على إغاظتها، وأنا الآن لم أعد أؤمن بشيء ولا حتى ببوذا حياً! أدركت بفعل التفكير المتواصل أن الخرافة تكون حسنة فقط عندما نأمل الحصول على نعمة غير متوقعة. أما عندما تقع مصيبة طارئة لنا، نفقد الأمل ولا نعود بشكل طبيعي نؤمن بأي شيء. لذلك أحرقت الكوة التي أضع فيها تمثال الثروة والموقد[1] اللذين كنت قد صنعتهما بيديّ هاتين. ادعى كثير من الناس

(١) الآلهتان الرئيسيتان المنزليتان.

حولي أنني قد أصبحت مرتدا[1] في الواقع، لم أكن أعتنق الدين المسيحي ولا حتى الإسلامي، إنما قررت بكل بساطة ألا أخضع لأي شخص. عندما لا يعود بإمكان المرء أن يثق بالناس، تصبح كذلك أسباب اعتماده على الآلهة أقل بكثير.

كما أنني لم أصب بالانهيار العصبي. على الرغم من وجود ما يدفعني فعلياً للموت غماً، إلا أنني مع ذلك لن أضع نفسي في مأزق مشابه. كوني رجلاً يحب المرح بطبيعته، قلت لنفسي من الأفضل لي ألا أفقد ابتهاجي ما دام لا يسعني إلا الاستمرار في العيش. صحيح أن مصيبة كبرى لا نتوقعها غالباً ما تكون قادرة على تبديل عادات وطباع شخص بين ليلة وضحاها. إنما في حالتي الشخصية، كنت قد قررت ألا أدع نفسي تنهار. لذا كان التدخين والشرب وعدم الاعتقاد بالآلهة بالنسبة لي، هي الوسائل التي أعبر فيها عن فرحي. إن كان حقيقياً أو مزيفاً سيان عندي. ما كان مهماً هو أن أكون مبتهجاً! . عندما كنت متمرناً، كنت أعرف سلفاً معنى أن يكون المرء حاذقاً. المحنة التي كنت أجتازها لم تقم بالنتيجة سوى بتعزيز رأيي أنه لا ثمة موقف آخر أمامي. اليوم أيضاً وقد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الموت جوعاً، لا أزال أضحك، أضحك دون أن أعرف حتى أنا نفسي إذا ما كان هذا الضحك مغتصباً أم لا. وسأحافظ على ابتسامتي ما دمت حياً. لكن في أعماقي كنت أشعر بالفراغ مع أنني لم أتوقف منذ ذلك الحين عن أداء الخدمات وتقديم يد العون. إنه أشبه ما يكون بثقب تركته رصاصة فوق الجدار. كنت أحب مساعدة الناس تماماً كالسابق، لكن عندما كانت الأمور تجري على نحو سيّء، أو كنت أواجه صعابا غير متوقعة، لا يضيق صدري منها أبداً لأن ذلك لم يعد حتى يثير غضبي. فالفراغ الذي كنت أشعره في أعماق نفسي كان يتركني لا مبالياً. منذ ذلك الوقت لم أعد أستطيع البتة أن أكون حميماً جداً دون أن أكون في الآن ذاته نفوراً جداً. ولا أن أكون سعيداً جداً دون أن أشعر بالقليل من الحزن. أضحى

---

(١) كلمة احتقار تخص الصينيين الذين اهتدوا إلى دين المبشرين الأجانب.

الضــحك عندي ممزوجـاً بـالدمـوع في أغلب الأحـيـان، دون أن يكون بالإمكان تمييزهما بوضوح عن بعضهما البعض.

لم تكن هذه التغيرات التي عصفت في داخلي لتخطر ببال الآخرين لو لم أكن أنا من تحدث عنها، دون أن أستطيع مع ذلك قول كل شيء. بالمقابل استطاع الجميع أن يشهدوا التغيرات التي سيكون لها أيضاً أبعد الأثر في حياتي. في الواقع بدلت مهنتي ورفضت العودة للعمل كلصاق للورق. سأشعر حتماً بالخزي عند ذهابي مجدداً إلى ناصية الطريق لانتظار الزبائن. فالزملاء الذين يعرفونني يعرفون أيضاً نوارو، ولا شيء غير نظراتهم الملحة كانت ستمنعني عن الطعام. في ذلك العصر حيث لم تكن الصحف منتشرة بكثرة، كان المرء يخشى عيون الناس أكثر من أنباء الصحافة. اليوم يكفي تصريح أمام مقر الإدارة الإمبراطورية للحصول على الطلاق. بينما في الماضي لم تكن هذه القضايا تسوى على هذا القدرمن السهولة. لذلك أهملت كل أصدقائي، حتى المعلم وزوجته لم تعد لدي الرغبة في رؤيتهما، وأقصى ما كنت أتمناه هو أن أغير بيئتي كلية. أن أقفز إن جاز القول قفزة واحدة من العالم الذي كنت فيه إلى عالم آخر. بالنسبة لي لا ثمة طريقة أخرى أحسم فيها القضية كلها لصالحي. حسب مجريات الأمور، تزداد حياة لاصقي الورق صعوبة شيئاً فشيئاً. لكن علي الاعتراف أنه لولا هذه المسألة لم أكن لأغير مهنتي بهذه السرعة ولا بهذه الصراحة. لم أشعر بأي ندم بعد تركي عملي القديم، لكنني عاتبت نفسي على الظروف التي تخليت فيها عنه! في النهاية هذا لا يهم، الشيء الذي يهم هو أن يعرف الجميع أنني قد غيرت مهنتي.

عند هذا الحد اتخذت قراري. لكن هذا لم يكن يعني أنني كنت أعلم تماماً ما الذي سأفعله عوضاً عن مهنتي. لذلك كنت مرغماً على البحث بلا هدف مثل قارب فارغ يعوم على سطح المياه دون أن يكون له أية بوصلة ترشده سوى ذروة الموجة. مع ذلك، كما نوهت سابقا كنت أعلم تماما السمات التي أتمتع بها كي أفترض أنني أستطيع دوما أن أقوم بعمل كاتب أو أشغل مركز موظف صغير. وبما

أنه من المفيد أن يكون المرء في الإدارة، قلت لنفسي أنه حتى بالنسبة لرجل مثلي، تركته فجأة زوجته، سيكون حتما الدخول في سلك الإدارة وسيلة لأستعيد فيها القليل من الاعتبار. عندما أفكر بذلك اليوم، أجد أن هذه الفكرة كانت سخيفة. بينما في الماضي كنت أعتقد بصدق أنها الطريقة المثلى للخروج من الأزمة. في الواقع لم أكن قد فعلت شيئاً بعد، لكني كنت سعيداً جداً، كما لو أنني كنت واثقاً سلفاً من عثوري على هذه الوظيفة واستعدادتي لاحترام الناس. هذه الفكرة فقط كانت تجعلني أرفع رأسي عالياً. المصيبة أن المرء لا يصبح موظفاً بالسهولة التي يتعلم فيها مهنة حرفية. يتطلب الأمر في الحالة الأولى ثلاث سنوات، بينما في الأخرى قد يتطلب ثلاثين عاما! كذلك كانت سلسلة من الصعاب تنتظرني جراء هذا التحول! عندما أقول إنني أعرف القراءة! لأن الناس القادرين على سرد كتاب كامل غيباً كانوا كثيرين ويموتون جوعاً! بالنسبة لمعرفتي الكتابة، لا يمكن القول بحق إن الحالة كانت استثنائية! كنت حتماً قد غاليت جداً في تقدير نفسي! مع ذلك، عند التمعن بذلك جيداً، لاحظت أن أولئك الرجال الذين يتبوؤن مراكز مرموقة ويمضون الأوقات في تجهيز الولائم كانوا غير متعلمين إلى حد يتعرفون فيه بالكاد على اسمهم. انتهى الأمر بي إلى التساؤل عما إذا كنت في الواقع متعلما جدا، أكثر على أية حال مما يلزم ليصبح المرء موظفاً... ذكياً كما كنت، كيف سأحاذر الظهور بمظهر الغبي؟

شيئاً فشيئاً انتهى بي الحال إلى الفهم. في الواقع، لم تكن المعرفة هي الأساس وإنما التوصية أولا يجب أن يكون للمرء صلات. والحال أن ذلك كان سهلا. غير أنه لم تكن لي أية صلات على الرغم من موهبتي. كنت حرفياً، وكذلك كان الناس الذين أعرفهم. أما من جهة والدي، كان أيضاً رجلا من الشعب، رغم أنه يتمتع بلا طائل بكل الصفات الطيبة في العالم. في هذه الشروط، أين يمكن أن أقدم نفسي جدياً للحصول على وظيفة؟

عندما ترغمك الظروف على سلوك طريق ما لا يمكنك بعد ذلك أن تسلك

طريقا آخر. مثل ذلك كمثل القطار الذي يرغم على تتبع قضبانه ولا يمكن له إلا أن ينقلب عندما يقع حادث ما! كان الحال معي يشبه ذلك. لم يكن بمقدوري بعد اتخاذ القرار في التخلي عن المهنة اليدوية وعدم عثوري على مكان شاغر في الإدارة، البقاء هكذا عاطلاً عن العمل. لذلك عندما وجدت أن خطوط السكة قد نصبت أمامي كنت مرغماً على التقدم مستسلماً خوفاً من سهولة التراجع.

لذلك أصبحت شرطيا.

بالنسبة لفقراء المدن الكبرى، كانت الشرطة ومركبات الجر[1] مسلكين مرسومين تماما. عندما لا يعرف المرء قراءة حرف واحد ولم يتعلم مهنة ما، يكون الحل الوحيد أن يجر مركبة. لا يحتاج ساحب المركبة لأي رأسمال، يكفي لكي يأكل الووتو[2] أن يسيل عرقه. لكن بالنسبة لشخص يعرف بعض الحروف ويتمسك بسمعته، بالنسبة لحرفي لم يعد بكسب قوته، الحل يكمن في الانخراط في سلك الشرطة. الميزة الأولى هو أن المرء لا يكون بحاجة كبيرة للوصاية كي يتم قبوله، الثانية، هي أنه ما أن يتم التطوع حتى يكون له الحق في لباس كامل وستة يونات تدفع سلفا. قد لا يحب المرء ذلك، لكنه يحصل على وظيفة على أقل تقدير. بالنسبة لي، كان على أية حال الدرب الوحيد أمامي الذي يمكن أن أسلكه. من جهة لم يصل بي الحال إلى سحب المركبات بعد، ومن جهة أخرى، لم يكن لدي خال أو صهر في المناصب العليا للإدارة. لذلك كان العمل في الشرطة هو الذي يناسبني تماما. هكذا لا أسعى إلى ما هو أعلى جداً من مستواي ولا إلى ما هو أقل جداً. لم يكن علي سوى لفظ كلمة واحدة لأرتدي اللباس ذا الأزرار النحاسية. بالمقارنة، كان التطوع في الجيش بالنسبة لي مفيداً أكثر، فإن لم أترق إلى رتبة ضابط، يمكن على الأقل الاستفادة قليلاً من النهب. لكنني لا أستطيع أبداً أن أكون جندياً، لسبب وجيه وهو أن ولدي لا يزالان في كنفي ولا أم تقوم على رعايتهما! ومن ثم الجنود

---

(١) مركبة خفيفة ذات عجلتين يجرها رجل في الشرق الأقصى.

(٢) خبز يصنع من دقيق الذرة على شكل مثلث يحوي ثقباً في داخله.

أوباش بينما يكون رجال الشرطة أكثر تهذيباً. بمعنى آخر، يمكن للجنود أن يملؤوا جيوبهم مالا بينما يبقى الآخرون محكوم عليهم بالفقر والتهذيب طول حياتهم. فقراء إلى حد مرعب ومتحضرين إلى حد يثير الغموض!

عندما أفكر بسنوات الخبرة الخمسين أو الستين التي خلفتها ورائي، يمكنني على الأقل ذكر شيء واحد: حتى عندما يحب المرء مثلي أن يتدخل في حديث، يكون من صالحه ألا يتحدث خبط عشواء، وفي كل لحظة، وفي غير الوقت المناسب. المؤسف أنه مع لسان حاد مثل لساني، لم يكن بإمكاني أن أمنع نفسي عن تمرير كلمة أو ابتكار اسم مستعار لأحد ما. لهذا نلت مرتين ما كنت أستحقه حقاً. المرة الأولى عندما تركتني زوجتي وكان يفترض بي أن أقفل فمي لسنة أو اثنتين. والثانية عندما دخلت سلك الشرطة، قبل أن أتطوع كنت أصف رجال الشرطة بكل أنواع الأسماء «مكلفون بمهمة في الشوارع»، «وزراء المحارس»، «مفتشون بأقدام عفنة». عند قولي هذا لم أكن اخترع شيئاً من عندي. كنت أدل فحسب على المناصب العليا التي كانوا يشغلونها. والحال هذه ها أنذا قد أصبحت واحداً من أولئك «المفتشون بأقدام عفنة». عندما نقول أن الحياة ليست إلا مزحة نصنعها بأنفسنا، يكون ذلك صحيحاً تماماً! لكن إذا كنت أنا نفسي قد صفعت نفسي على الأقل لا يكون مرد ذلك أنني كنت أفعل ما يخالف الأخلاق، وإنما بكل بساطة لأنني أحب المزاح. هذا يعلمني على أية حال، أن الحياة أمر جدي حيث لا تجد مزحة بسيطة مكاناً لها!

لحسن الحظ كنت أملك ذلك الفراغ في داخلي: لم يعد بإمكاني السخرية من الآخرين دون أن أسخر أيضاً من نفسي. إنها طريقة مثل غيرها للتخلص من ذلك. في الماضي كانوا يلقبون هذا بـ«موكسيني[1]: وضع طبقة رقيقة من الجص فوق الجرح»، أما اليوم فلا بد من وجود تعبير جديد لذلك إلا أنني لا أعرفه أبداً.

---

(١) تقصير في العلاقات الإنسانية كما في العمل يقوم على إيجاد كل الذرائع الممكنة للتخلص من قضية ما بأقل الخسائر.

عندما وجدت نفسي مرغماً على التطوع بصفة شرطي بسيط، شعرت أنّ ذلك كان مجحفاً بحقي. حتماً لم يكن في مواهبي ما هو استثنائي إلا أنني أجرؤ على التأكيد إنّه بالنسبة لما كان يجري في الشارع، كانت معارفي أعلى بكثير من الوسط، وكنت أفكر أنها ستكون ذات نفع لي في مهنتي الجديدة تحديداً. سيىء بالفعل أن نعرف ضباطاً في الشرطة، ثمة من بينهم واحداً تحديداً كان لا يعرف التحدث أبداً باللغة المحلية، ويأخذ وقتاً طويلاً فقط ليحسب ما إذا كان اثنان واثنان يساويان أربعة أم خمسة. حسن. هذا لم يمنعه هو من أن يصبح ضابطاً، وأن أجد نفسي مجرد شخص منهك القوى! إن فردتي حذائه الجلدي تساويان على الأقل نصف راتبي السنوي! هكذا يمكن للمرء أن يصبح ضابطاً دون أن تكون لديه أدنى خبرة أو كفاءة! رؤساء مثل هؤلاء ثمة الكثير منهم! هذا ما يثير الحنق. لكنني لم أجد شخصاً واحداً إلى جانبي أشتكي له. أتذكر بشكل خاص ضابطاً مُدرباً كان يقول في أول مرة دربنا فيها «قف» بدل أن يقول «استعد». هذا السيد الموقر، كان حتماً يعمل في الماضي في سحب المركبات. يكفي في الواقع أن يملك المرء توصية لتسيير أموره. ذاك الذي كان في الماضي لا يزال يجر العربات، يمكنه بين ليلة وضحاها، أن يجد نفسه ضابطاً مدرباً، فقط لأنّ واحداً من أنسبائه قد أضحى في غضون ذلك موظفاً كبيراً في الإدارة. حتى عندما يصيح «قف» لا يكون لجملته تلك اية أهمية: إذا لا يسمح أي شخص لنفسه أن يسخر من ضابط!

بالطبع لم يكونوا جميعهم أبداً على هذا النحو، لكن مع مدرب كهذا يمكن أن نتخيل الجو المتساهل والمستوى الرديء للتدريب الذي كانوا يعلموننا إياها. بالنسبة للتعليم داخل الصف، كان من الثابت جداً أن هذا النوع من المدربين لم يكونوا مؤهلين له. يفترض بهم على أقل تقدير أن يكونوا على معرفة ببعض الحروف لحفظ ماء الوجه. لذا كان مدربونا في الصف يقسمون إلى فئتين تقريباً. الفئة الأولى، عجائز أكثرهم من مدمني الأفيون، لوكانوا يدركون قليلاً عما كانوا يتحدثون، كان يمكن لهم أن يصبحوا موظفين في مناصب عليا بسبب الصلات التي لديهم وحسب. لكن بما أن الحالة لم تكن كذلك، أصبحوا مجرد مدربين. الفئة

الثانية، عبارة عن نماذج من الشباب لا يتحدثون إلا عن أشياء غريبة ويدلون طولا وعرضا بخطب عن الشرطة اليابانية أو المخالفات في فرنسا، كما لو أننا كنا كلنا شياطين من بلاد أجنبية ... الميزة معهم أنهم كانوا يسردون كل ما يجول في أذهانهم ويمكن أن نغفو ونحن نستمع إليهم. وبما أنه لم يكن أحد منا يعلم تماما ما هي فرنسا أو اليابان، يمكن لهم أن يتحدثوا عنهما ماطاب لهم ذلك. أنا نفسي كان يمكنني جداً أن أقدم درساً كاملاً عن الولايات المتحدة، لكن لسوء الحظ لم أكن مدرباً، في الواقع، لم تكن ثمة وسيلة لمعرفة ما إذا كان الشباب اليافعين الذين نحن بصددهم يفهمون أو لا الأشياء الغريبة التي كانوا يصمون بها آذاننا. ما كان أكيد تماماً، أنهم كانوا يجهلون الصين بكاملها. هاتان الفئتان من المدربين كانتا مختلفتين بالعمر كما في المعرفة، مع ذلك ثمة نقطة مشتركة بينهما: كانوا جميعهم في الوضع ذاته، لايقدرون على رفع مستواهم الاجتماعي ولا على النزول به، لذلك كانوا محكوم عليهم أن يؤمنوا وظائفهم بأية طريقة كانت. على الرغم من أنهم كانوا ينتفعون من الرعاية السامية، لكنهم كانوا من الوضاعة إلى حد كان فيه عمل المدرب هو الذي يناسبهم أكثر. هل هناك ما هو أكثر سهولة في الواقع من تعليم رجال الشرطة الذين من أجل ست يونات في الشهر كانوا لا يجرؤن على فتح أفواههم؟ بعيداً عن المدربين، لم يكن الرتباء الآخرون أكثر قدرا منهم. عندما يستطيع المرء أن يكون وكيل والٍ أو جاب للضرائب، لا يسعى لوظيفة في الشرطة. لكن عندما لا يستطيع ذلك يلزم أن يعيش بطريقة أو بأخرى. ما قلته الآن عن المدربين كان ينطبق أيضاً على الضباط الآخرين ابتداء من أول درجة في السلم الاجتماعي حتى آخر درجة، لم يكن أمام تلك النماذج كلها أي مستقبل وكانوا مرغمين على فعل أي شيء من أجل العيش. عندما يتعلق الأمر بكسب المعاش، حتى الدببة تستطيع أن تتدبر أمرها. بالمقابل، يلزم على رجال الشرطة العاديين الذين يمضون سحابة نهارهم في الطريق أن يملكوا قدراً ضئيلاً من الخبرة. بعضهم يتصرف بحذاقة أفضل من غيره، لكن يطلب من الجميع أن يتمتعوا بسليقة الرد السريع وأن يعرفوا كيفية التصرف في اللحظة المناسبة وتقليل الحوادث قدر الإمكان. يلزم عليهم في آن معاً أن يتجنبوا

خلق الكثير من المشاكل للإدارة وإرضاء جميع الأطراف المتنازعة. لهذا، إن اعترفنا بذلك أم لا، قليل من الموهبة كان ضرورياً. لا يطلب الكثير من الضباط لذلك يكون من الأسهل أن يصبح المرء ملكاً للجحيم من أن يكون مجرد شيطان صغير!

-٦-

قد يجدني المرء متعجرفاً، لكنه يخطئ في ذلك عندما أقول أنني كنت أعتبر نفسي ضحية لظلم، يكون ذلك صحيحاً بالفعل. تخيلوا إذن هذا! بستة يونات في الشهر كنت أكسب تماماً ما يكسبه خادم وليس لي الحق بما هو «جانبي»[1]. ستة يونات هي كل شيء ولكل شيء. يا له من راتب زهيد لراشد مثلي! بالنسبةلشخص نزيه يتمتع بمظهر حسن، في زهرة شبابه، ويتمتع بسرعة البديهة وفوق كل ذلك يعرف القراءة والكتابة! ونقول أن كل هذه الصفات مجتمعة لا تقدر إلا بستة يونات!

من هذا الراتب البائس، وبعد اقتطاع ثلاثة يونات نصف من أجل الطعام، كان يجب أيضاً الأخذ بالحسبان الضرائب والهدايا، فيبقى لي بالكاد يوانين. بالنسبة للباس يمكن بالطبع ارتداء اللباس الرسمي، لكن بعد انتهاء ساعات الدوام، لا يمكن للمرء على أية حال أن يبقى كذلك داخل منزله! لذلك هو على الأقل بحاجة لثوب أو ما يماثله. فإذا قمنا بشرائه، نكون قد أنفقنا راتب شهر بكامله. وبعد، من ليس له عائلة لا يقوم بأودها؟ هناك الأهل أيضاً لكن لنؤجل الحديث عنهم الآن. لنتصور فقط وضع إحدى العائلات: يلزم على الأقل غرفة للسكن وما يسد الرمق وكسوة للزوجة. كل ذلك بيوانين! من كان لا يملك مدخولاً آخر لايمكن له أن يسمح لنفسه أن يقع مريضاً أو ينجب أطفالاً ولا أن يدخن ولا أن يأكل قليلاً

(١) إكراميات متنوعة يتقاضاها الخدم بالإضافة لراتبهم خاصة أثناء حفلات الاستقبال.

خارجاً عن الوجبات، لأنه حتى مع هذا النظام لا يمكن أن يوازي بين المدخول والمصروف في نهاية الشهر!

في هذه الظروف، لا أتوصل إلى فهم كيف يوافق بعض الناس على تزويج ابنتهم من رجل يعمل في الشرطة. مع أنني عملت وسيطاً لبعض الزملاء. عندما كنت أقول لعائلة الفتاة طبيعة عملهم كان الأهل يستاؤون ولا ينبسون بكلمة، لكننا كنا نعلم في الحال ما كان يجول في أذهانهم: آه، حسن، إنه يعمل في الشرطة! لكن ردة فعلهم تلك لم تكن لتقلقني، لأنه في تسع حالات من عشر، يتبع التكشيرة هزة رأس إيجابية. هل ثمة كثير من الفتيات في سن الزواج على الأرض؟ هذا ما كنت أتساءل عنه. من وجهة نظري، أن رجل الشرطة مرغم فوق ذلك على الظهور بمظهر لائق: يجب عليه ألايتعرض لسخرية الشعب ولا أن يستثير عطفه. ما أن يرتدي لباسه الرسمي عليه أن يكون نظيفاً ومنضبطاً في آن معاً، فعالاً ومحترماً. هو الذي ينظم حركة الشارع كله، يضبط حركة المارة والسيارات مثلما يفض المشاحنات والمشاجرات. لذلك هو يتبوأ مركزاً هاماً، لولا نقطة واحدة أنّه بعد حسم الطعام لا يبقى له أبداً إلا يونان يصرف منها حتى نهاية الشهر. لهذا عليه أن يتصرف كما لو أن معدته ليست خاوية ويتصرف باستقامة. لكن عندما تحين ساعة الزواج وإنجاب الأولاد، لا يمكنه التأمل بقرش واحد زيادة. لذلك كنت دوماً أبدأ اقتراح زواج من هذا النوع كما يلي «السيد يعمل في الإدارة!» دون أن أحدد ماهية العمل. والناس لحسن الحظ لا يحاولون معرفة المزيد، لأن سؤالاً واحداً يزيد عن ذلك سيفسد الأمر بكامله!

في الواقع، كان رجال الشرطة يجدون مستقبلهم جائراً على الدوام. فهم مرغمون على القيام بجولاتهم الليلية في كل الأوقات. ولا مجال للكسل أو التراخي: إذ يخشى المرء أن يجد نفسه مفصولاً عن العمل. ولا مجال كذلك للشكوى، يعلم المرء تماماً أنها ليست بالحياة الكريمة، لكنه يتمسك بمكانه بادئ الأمر ولا يتخلى عنه حتى لا يتأسف عليه بعد ذلك. لذلك يقوم بعمله إنما دون حماس

زائد ويحيا مثل الجميع بما يتيسر له، متظاهراً بالنشاط والعزم مثل علبة تايجيكان(١).

أن تكون مهنة كهذه قادرة على التواجد وأن يقوم كثير من الناس بممارستها كان شيئاً يدهشني دائماً. إذا حدث بعد هذه الحياة أن ولدت من جديد تحت شكل إنسان آخر دون أن أشرب من شراب النسيان(٢)، أكون واثقاً أنه عند ذكرى حياتي الحالية سآخذ بالصراخ حتى أفقد صوتي، وسوف أنبذ مهنة الشرطي مثلما أنبذ العار أو الاختلاس أو قاتل لا يقول أبداً اسمه! أما الآن وقد أصبحت طاعناً في السن جداً وأشارف على الموت جوعاً، لديّ شيء آخر أفعله غير الصراخ: يلزم أولاً الاهتمام بإيجاد رغيف خبز للعشاء!

بالطبع عندما انتسبت إلى سلك الشرطة، لم أكتشف سر هذه المهنة بين ليلة وضحاها: إذ لا يجدي نفعاً أن يكون المرء خبيثاً... على العكس كنت سعيداً بما فيه الكفاية بلباسي الرسمي الذي كان يلائمني تماماً، وحذائي وعباءتي. كنت أتمتع بحق بمظهر لائق. ثم كنت أقول لنفسي أنه على أية حال من الأفضل أن أحصل على مكان من أن لا أحصل على شيء بتاتاً. بفضل ذكائي وموهبتي كنت أتصور أنني سأحصل حتماً على ترقية بلا تأخير. كنت أتصور وأنا أنظر بعين الحسد إلى نجوم وشارات رؤسائي أنه يمكنني أن أحصل على مثلها، ولم أتخيل قط أنه يمكن توزيعها خلافاً للجدارة أو المؤهلات.

لكن بعد أن تجاوزت سحر العمل الجديد، سرعان ما بدأ السأم يتملكني من اللباس الرسمي. فهو عوضاً من أن يفرض احترام الناس كان ينبههم إليّ: «انظر هذا هو الشرطي». وحتى اللباس بذاته لم يكن فيه ما يثير الإعجاب. في الصيف يمكن أن نقول عنه أنه جلد ثور حقيقي يجعلنا نتصبب عرقاً بداخله، في الشتاء، لايعود له أية علاقة بالجلد وإنما يشبه ورق اللصق. لا يمكننا أن نرتدي شيئاً تحته.

---

(١) علبة صينية لا تستند على القوة الفيزيائية الظاهرة وإنما على الليونة والقوة.

(٢) شراب يقدم في جهنم ويخصص لتحريض الأشخاص على نسيان حياتهم السابقة.

لذلك كـان الهـواء يتسلل من الأمـام ليـعـاود الخـروج من الخلف وكـأنه تيـار هواء حقيقي! والحذاء كان أمره مشابهاً! في الشتاء نشعر بالبرد وفي الصيف نشعر بالحر الشديد، بذلك لا يكون المرء مرتاحاً في انتعاله أبداً. عندما يرتدي جوارباً عادية تعوم الأقدام داخل الحذاء وعندما يرتدي جورباً مضاعفاً يضيق الحذاء بشدة حتى لايتمكن من إدخال الأقدام فيه. لا أعلم كم من الرجال قد جنوا ثروة من الحصول على الامتياز التجاري لصناعة هذه الملابس وهذه الأحذية. كل ما كنت أعرفه أن قدمي كانتا مثخنتين بالجراح دوماً: في الصيف بسبب الفطور وفي الشتاء بسبب التشققات. بالطبع لا يعفى المرء من مهمة الدورية أو من نوبة الحراسة: إذا لم يقم بعمله وداعاً لليونات الست! عندما يكون الحر قائظاً أو البرد قارساً يحق لأي امرئ أن يجد ملاذا له سوانا، حتى ساحبي العربات يكونون أحراراً في الاستراحة ما شاء لهم ذلك. رجال الشرطة هم الوحيدون الذين يلتزمون بالعمل في كل الأوقات. ولا يهم إن كنت تقضي نحبك نهائياً. فبستة يونات نقداً يمكن شراء حياة إنسان!

أتذكر أنني قرأت في مكان ما جملة تقول «أننا لا نعمل جيداً إلا إذا كان البطن ممتلئاً». لا أعلم تماماً في أي مناسبة يمكن ذكرها، لكنها على أية حال تنطبق تماماً على رجال الشرطة. أكثر ما يثير الحزن في الواقع والأكثر غرابة في الوقت ذاته، أن رجالاً مثلنا لا يأكلون حتى الشبع، كانوا مرغمين، رغم كل شيء، على مقاومة الجوع والظهور بأفضل حال في الشارع! المتشردون، حتى عندما لا يشعرون بالجوع، ينحنون على أنفسهم ليوهموا الآخرين أنهم لم يضعوا الزاد في أفواههم منذ أيام خلت! بالمقابل، يكون رجال الشرطة خاوي البطون وعليهم بأي ثمن أن يتظاهروا بالشبع وأن ينفخوا كروشهم، ليبدوا الأمر أنهم قد ابتلعوا منذ برهة ثلاثة أوعية من المعكرونة برقائق الدجاج. يمكن أن نفهم لم يتظاهر المتشردون بالجوع، لكن أن يلعب رجال الشرطة دور الأشخاص المتخمين، هذا ما أجده غريباً بحق!

لم يحب الناس كذلك الطريقة التي يتصرف بها رجال الشرطة لتسوية الأمور كيفما اتفق، وذلك بوضع طبقة بسيطة من الجص فوق الجرح. آه! إذا كانوا

يتصرفون على هذا النحو فلأنهم يملكون الحق في ذلك. سأتحدث عن ذلك مطولاً بعد قليل. أريد قبلاً أن أروي قضية فظيعة ستساهم من ثم في تفسير وتوضيح حديثي. لذلك سأبدأ بها.

-٧-

في ذلك المساء كان يفترض أن يكون هناك قمر كالمعتاد. لكنه كان محتجباً خلف غيوم كبيرة جعلت الليل في ظلمة حالكة. كنت على وشك القيام بجولة في مكان مقفر. وسط السكون الذي كان يلفني، كان الضجيج المنبعث من نعل حذائي المزين بالمسامير ومن السيف الياباني الذي كنت أحمله معلقاً في حزامي، مثل كل رجال الشرطة في ذلك الوقت، يعززان شعور الوحدة والضيق اللذين كنت أشعر بهما: أي شيء تافه كان يمكن أن يثير الخوف في نفسي. هر يمر أمامي بغتة أو مجرد صيحة عصفور كانا كافيان لأنتفض في مكاني. الفراغ الذي كنت أستشعره كان يبدو لي فألا سيئا كما لو أن شيئا كئيبا كان ينتظرني أبعد بقليل. دون أن أكون خائفاً جداً لم أكن كذلك مطمئناً حتى أنني كنت أراقب خوفي لدرجة أصبحت فيها يداي رطبتان تماما. مع ذلك كنت في العادة أكثر شجاعة وهذا لا يعتبر شيئاً أمام وجوب حراستي لجثة ميت أو تنفيذ الحراسة أمام منزل تسكنه الأرواح. لكنني لا أعرف البتة لماذا في ذلك المساء، كنت أعاني من الهلع وكلما كنت أسخر من ذاتي، كان شعوري يزداد يقيناً أن خطراً ما كان يختبئ في مكان ما. عندما كنت أسرع الخطى كنت أقوم بذلك متعمداً، لأن فكرة واحدة كانت تسيطر علي ألا وهي الذهاب بأقصى سرعة لأجد نفسي أخيراً في مكان مضاء وسط وجوه أليفة.

بغتة سمعت صوت تراشق بالرصاص! توقفت في الحال، وعادت لي شجاعتي قليلاً، كما يحدث ذلك عندما نجد أنفسنا حقاً في مواجهة الخطر ولم نعد نتخبط في الشك. مثل حصان يسير في الليل، كنت هناك، أرهف السمع، عندما دوى من جديد رشق من عيارات نارية تبعه رشق آخر.

توقفت الضوضاء عند ذاك، غير أنني ما زلت أصيغ السمع وأنا أعاني الأمرين من الصمت حتى أنّ قلبي كان يخفق بسرعة كبيرة، مثلما يحدث عندما يرى المرء البرق ويتوقع قصف الرعد. بان، بان، بان! دوت طلقات النار في الاتجاهات كلها!.

خانتني شجاعتي من جديد. عند الرشق الأول تمالكت زمام نفسي لكن في هذه المرة، كانت العيارات النارية أكثر عدداً، والخطر كان حقيقياً فعلاً. مثل كل الرجال أمام الموت، أشعر بالخوف يغزو كياني. أخذت بغتة أجري، لكن بعد عدة خطوات توقفت فجأة لأسمع. تزداد العيارات النارية كثافة أكثر فأكثر. لكنني لم أكن أستطيع رؤية شيء: كانت الظلمة حالكة جداً لدرجة أنني كنت أسمع الدوي، لكنني أجهل لماذا كانوا يطلقونه ومن أين كان مصدره، كما لو أنه في الظلمات لم يكن أحد غيري وفي البعيد ضجيج العيارات ذاك. في أي اتجاه أركض؟ وما الذي يجري هناك؟ فرضت لحظة تفكير ذاتها، لكن عقلي لم يكن ليتجاوب معها. يعتريني شعور بالشجاعة لكنه لا يفيدني في شيء، نظراً لأنني لم أكن أعلم ما الذي كنت أواجهه. علي الفرار إذن. من المستحسن دوماً أن أتحرك من أن أبقى هنا أرتجف بحماقة.

ركضت مثل مجنون، تقبض يديّ على مقبض سيفي. كنت مثل هر أو كلب لا يحتاج تحت ضغط الرعب للتفكير كي يجد طريق منزله. ناسياً تماماً أنني شرطي، كنت أقول لنفسي أن واجبي الأول هو العودة إلى المنزل لأرى ماذا حل بولديّ البائسين وهما بلا أم. مادام علينا الموت كنت أفكر أنه من المستحسن أكثر أن نموت كلنا معاً!

لأعود إلى منزلي علي اجتياز العديد من الطرقات. والحال هذه، كدت أصل إلى الشارع الأول حتى فهمت أنه لا مجال أبداً للركض. كان الشارع أسود اللون من الناس، تحتشد فيه أطياف لا يمكن تمييزها كانت تركض بسرعة كبيرة وهي تطلق

العيارات النارية. إنهم جنود! وهم يضفرون شعرهم[1]! والقول إنني قد قصصت ضفيرتي منذ أيام فقط! كان لزاماً علي أن أتبع مثال أولئك الذين عوضاً من أن يحلقوها كلية كانوا يجدلونها ويلفونها على قمة الرأس! لو أنني كنت أستطيع على الفور إسدال ضفيرتي، حتى لو وضعت في اعتباري أن أولئك الجنود كانوا يكرهون رجال الشرطة عادةً، غير أنهم برؤيتهم ضفيرتي لن يصل بهم الأمر، ربما، إلى حد تسديد أستون بندقيتهم عليّ. بالنسبة لهم، من ليس له ضفيرة لا يمكن إلا أن يكون ملحداً وهو يستحق تنفيذ الحكم فيه، وأنا الذي لم يكن له تلك الضفيرة الثمينة! لم أكن أستطيع الحراك: لم يعد بإمكاني إلا الاختباء في الظلمة وأن انتظر تصريف الأحداث حتى أقرر ما يجب عمله. كان الجنود يركضون على ناصية الطريق بفرق متتابعة، ولم تكن العيارات لتتوقف أبداً. ما الذي كانوا يستطيعون القيام به؟ هذا ما كنت أجهله.

بعد برهة من الزمن، أحسست أن الجنود كلهم قد مروا، فرأيت وأنا أمد رأسي قليلاً نحو الخارج أنه لم يعد ثمة شيء يتحرك. لذا عبرت الجادة بسرعة مثل عصفور ليلي ووجدت نفسي في الجانب الآخر من الطريق. فعلت ذلك بسرعة مذهلة، مع ذلك سنحت لي الفرصة في الوقت ذاته أن ألمح بطرف عيني وأنا أقطع الطريق بريقا أحمر اللون. كان تقاطع الطريق في نهاية الجادة يحترق. اختبأت مجدداً في الظل، لكن لمعان الحريق سرعان ما أضاء في البعيد الشارع كله. مددت مرة أخرى رأسي. نجحت بالكاد في رؤية المخازن التي كانت تجاور تقاطع الطريق فريسة للهب. بينما كان الجنود في الظل يروحون ويأتون وهم يطلقون العيارات النارية. فهمت عندذاك ماهية الأمر: إنه عصيان للجنود. خلال فترةوجيزة جداً، ازداد لمعان الحريق بشكل خطير وهو يمتد تدريجيا. عند رؤيتي المسافة التي تغطيها النيران سلفاً، أمكنني استنتاج أن المقاطعات ومفترقات الطرق المجاورة كلها كانت تشتعل.

(١) تلميح إلى محاولة إرجاع الأسرة الماندوشية للجنرال شانغ كسون الذي احتلت فرقه بكين في حزيران ١٩١٧.

لا يجوز إطلاقاً أن نقول أشياء كهذه. لكن مشهد الحريق رائع بالفعل! من البعيد، نرى السماء سوداء تماماً تومض فجأة ثم تعود لتغرق في الظلمة على الفور ثم تومض من جديد. بغتة نرى كتلة من اللهب المحتدم ترتفع ورقعة من السماء تلتهب وتصبح متأججة مثل صفيحة معدنية احمرت بفعل النيران. وسط هذا الحريق القرمزي نلمح كذلك عدة أعمدة من الدخان الأسود والعديد من ألسنة اللهب ترتفع إلى مستويات مختلفة في السماء: طوراً كان الدخان هو الذي يخفي اللهب، وطوراً آخر ينبثق اللهب عبر الدخان. كان الدخان يصعد ويتكثف بشدة لدرجة أنه كان يخفي النيران التي كانت في الأسفل، وهو يدور بالتفافات لا تعد ولا تحصى: يشبه ذلك ضباب كثيف يخفي الشمس الغاربة. بعد برهة، يستعيد بريق النيران نشاطه أكثر ويتحول الدخان من اللون الأسود إلى الرمادي الشاحب. أما ألسنة اللهب، رغم قلة عددها، كانت مضطرمة جداً وصافية جداً حتى أن ضوءها مجتمعاً كان يضيء نصف السماء.

في الأماكن الأكثر قرباً، كان المرء يسمع ضوضاء على اختلاف أنواعها، في الوقت الذي كان فيه الدخان يتصاعد، والنار قد أخذت تركض في الاتجاهات كافة. بدا الدخان حينذاك شبيهاً بتنين مخيف يغطيه السواد والنار شبيهة برؤوس عديدة لمعدن محمر تتمايل بأطوال مختلفة وتنبثق من الاتجاهات كافة. هذا المزيج من الدخان والنار كان يتصاعد عالياً جداً في السماء على شكل نفثات ملفتة كانت تتجزأ بغتة، وهي تُسقط من جديد آلافاً من الشرر أو كراتاً ضخمة من النار. عند ذاك يشعر المرء أن الدخان وقد تخفف قليلاً من حمله قد أخذ يرتفع بحرية أكثر نحو السماء. كرات النار من جهتها، ما أن كانت تسقط وسط اللهب، حتى كانت ترتد بنشاط نحو السماء الرحبة مسببة انفجار حزم من الشرر. أحياناً، كانت بعض الكرات عوضاً عن أن تجد نفسها وسط الحريق، كانت تسقط أبعد من ذلك متسببة في خلق بؤر جديدة باحتكاكها مع كل ما هو قابل للاشتعال. عندها كانت النار تطرد النار وتسود الظلمة مجدداً حتى تتلاقى بؤر الحريق من جديد وتهب النيران من كل حدب وصوب وهي تبصق اللهب. فجأة صوت سقوط! كان منزل ينهار وهو

يثير وسط الشرر غيمة من الجمر والغبار والدخان، بينما كان الشرر تحت اللهب ينسحق للحظة ثم يعاود الظهور من الاتجاهات كلها كأنه ألف ثعبان مجتمعين يقذفون النار بألسنتهم. كان الحريق، دون أن يثير ضجة، يبلغ ببطء وأناة القسم العلوي من المنزل، لكنه عندما أدرك النار التي كانت تستعر في ا لقمة، سمع صوت أشبه بالزئير وأضحى النور باهراً جداً وصافياً جداً إلى درجة يمكن له فيها أن يخترق قلب الإنسان.

بالإضافة إلى المشهد كانت هناك الروائح أيضاً! كلها متباينة، وبعضا منها كان يمكن التعرف على كنهه بسهولة. الرائحة الأولى كانت تنبثق حتماً من مخزن الأنسجة الحريرية الذي كان يثبت لافتة بحروف سوداء على خلفية ذهبية. والرائحة الأخرى من البقالية. انطلاقاً من الروائح، فهمت لماذا لم تكن النار تأخذ الشكل نفسه. إذ يكون الأمر تبعا لما يحتويه المخزن من بضاعة، شاي أو أقمشة. في الحالة الأولى، تكون النار خفيفة وتحلق عاليا جدا، بينما في الحالة الثانية كانت بطيئة وتصنع الكثير من الدخان. لم يكن أي من هذين المتجرين يخصني، لكن بما أنني كنت أعرفها كلها، لم يكن شيء ليثير بي ألما مهولاً سوى الشعور برائحة الحريق الذي كان يدمرها ورؤية النار التي كانت ترتفع لتعاود السقوط. ناسياً حتى الخطر الذي كنت فيه، أصبحت لا أعي ما أفعل مثل غلام غارق تماما بمشهد الشارع. كانت أسناني تصطك لكن ليس من الخوف بقدر ما كان من تأثري أمام اتساع الكارثة.

عند ذاك فقدت كل أمل في العودة إلى المنزل. لم أكن أعلم كم كان يقدر بالإجمال عدد الجنود في الشوارع. لكن إذا حكمت حسب عدد الحرائق التي كانت تندلع في كل مكان، يجب أن يكون عدد منهم على الأقل في كل مفترقات الطرق الرئيسية. كان في نيتهم النهب علنا، لكن من يدري بعد أن يضرموا النار في العديد من المخازن دون أن تهتز شعرة واحدة في رؤوسهم، أن لا يجدوا في المناسبة ذاتها، تسلية في قتل الأبرياء؟ إن رجلاً من الشرطة مثلي قد قص ضفيرته،

لا يساوي في نظرهم أكثر من حشرة تافهة، يكفي أن يضغطوا الزناد ولا يعود أحد يتحدث عنه بعد ذلك. لم يكن الأمر معقداً إلى هذا الحد.

عند هذه الفكرة، خطر لي أن أعود إلى «الثكنة». لم تكن بعيدة جداً. لايلزمني سوى أن أقطع طريقاً آخر. لكن الآوان كان قد فات على ذلك. ما أن لعلعت الطلقات الأولى حتى كانت المنازل كلها سواء الغنية أم الفقيرة، قد أغلقت أبوابها. لم يعد ثمة أحد في الشوارع، باستثناء الجنود المرتزقة، حتى يمكن القول أنها بحق مدينة مهجورة. عندما بدأت المخازن تحترق، أخذ الناس الذين كانوا في داخلها بالهرب على ضوء الحريق. الأكثر شجاعة كانوا لا يزالون يقفون على جانب الطريق، يشاهدون الحريق يبتلع مخزنهم أو مخزن سواهم، لكن لم يكن أحد ليجرؤ على مواجهته. إنهم فقط يرفضون الرحيل، ويلبثون هناك دون أن ينبسوا بكلمة ليشاهدوا ألسنة اللهب التي كانت تركض في كل اتجاه تقريباً. الأقل شجاعة لم ينتظروا طويلا للاختباء في الهوتنغ[1]. كانوا يزدحمون في الأزقة ويمدون رؤوسهم لينظروا في اتجاه الطريق، لكن لا أحد ينبس بحرف وكلهم يرتجفون من الخوف.

كان الحريق بانتشاره قد ازداد قوة، لكن بما أن الطلقات النارية قد أخذت تقل تدريجيا، حزر سكان الأزقة على ما يبدو ما كان يجري. أخذ بعض منهم يفتح بابه ليلقي نظرة إلى الخارج، ثم تجرأ آخرون على السير عدة خطوات باتجاه الطريق. على ضوء الحريق كانوا يلمحون عدة أطياف، غير أنهم أيقنوا أنه لم يعد ثمة شرطي هناك، وأن متاجر الحلي وبنوك الإسعاف[2] التي نهبها الجنود كانت تفتح بابها على مصراعيه! ... كل هذه المتاجر التي اكتسحها الجنود كان فيها ما يخيف الناس، وفي الوقت نفسه ما يملأ نفوسهم شجاعة: إن شارعاً بلا شرطي يشبه إلى حد كبير غرفة صف بلا أستاذ، حتى أكثر الطلاب رزانة فيها يأخذون بإثارة الجلبة.

(١) زقاق أرضه مطروقة أحيانا يكون ضيقاً ومتعرجاً، وهو واحد من السمات العمرانية لبكين.

(٢) مصرف للتسليف بفائدة معقولة للفقراء.

ما أن كاد منزل يفتح بابه حتى سارت المنازل الأخرى على منواله. بعد برهة تجمهر الناس في الشارع وأخذوا يقولون في أنفسهم: بما أن المخازن قد نهبت لنتابع إذن النهب! في الأحوال العادية لا يخطر ببال أحد أن شعبا شريفا جدا ويحترم القانون يمكن له أن يفكر في النهب. لكن عندما حانت الفرصة، لم يتأخر الناس عن الكشف عن وجههم الحقيقي. فقط عند لفظ كلمة النهب، رأيت في الحال وفي التو شباباً جسورين يهرعون أولا داخل بنوك الإسعاف ومتاجر الحلي والساعات. في الهجوم الأول لم يهرع إلا الرجال لكن في الثاني تسللت النسوة والأطفال بينهم. لم يكن الأمر داخل المخازن حيث مر الجنود صعبا. لا يلزم على المرء سوى الدخول وخدمة نفسه. لكن بعد برهة جاء دور المخازن التي لم يكن الجنود قد مسوها بسوء. في كل مكان فيه ثمة شيئ نافع للأخذ، في السوق كما عند بائع الحبوب أو الشاي، سرعان ما كان الباب يتحطم.

لم أر في حياتي كلها بلبلة كهذه: النسوة كما الرجال، الشباب كما الشيوخ، كلهم كانوا يصرخون ويركضون، يتدافعون ويتشاحنون إلى أن كان الباب تحت قوة الدفع والزعيق يخضع لهم، تراك!

يمكن القول حينئذ أن فرقا من النحل كانت تثب إلى الداخل بأقصى فوضى ممكنة. كان الرجال المنقلبون أرضا يصيحون والصبية الأكثر شجاعة يتسلقون الطاولات، وعيون الجميع كانت حمراء من الرغبة ومستعدون لقتل بعضهم البعض كي يتمكنوا من الدخول. كان الحشد كبيراً جداً حتى امتلأ الطريق به عند خروجه. البعض كان يحمل غنيمته فوق ظهره، الآخر في ذراعه، أو على كتفه، أو تحت مرفقه. كل الوسائل كانت ناجعة. مثل جيش من النمل، نراهم يرفعون رأسهم عاليا ليعودوا بأقصى سرعة مع الزوجة والأولاد، وكانوا جميعهم يتبادلون الشتائم بجلبة. كان الأمر حتما بمثابة نعمة لم يكن ليتوقعها الفقراء! لكن العائلات الأكثر غنى لم تكن هي أيضاً تحرص على البقاء في الخلف!

بعد نهب الأشياء القيمة أولاً، كانت المؤن والمحروقات تحمل بعد ذلك.

بعض منهم أخذ بنقل جرار مليئة بزيت السمسم، آخرون حملوا لأنفسهم كيساً من الطحين فقط. تغطى الطريق بالزجاجات والأواني المكسورة، بينما سقيت الأرصفة بفيض من الأرز والحبوب من شتى الأصناف. آه! بالنسبة لعملية سطو، كان الأمر كذلك حقاً كل واحد كان يأسف لامتلاكه يدين فقط ويلوم نفسه لعدم تمكنه من السير بسرعة أكبر، حتى أن ثمة بعضهم كان قادراً حتى على دحرجة برميل من السكر أمامه، مثل جلالة[1] تدفع كرية ضخمة من البراز.

لكن الأكثر قوة من بينهم كان أولئك الذين يعملون أذهانهم، نرى الرجال وقد تسلحوا بسكاكين المطبخ يلبثون عند مخارج الأزقة منتظرين قدوم الآخرين. «ضع هذا أرضاً!» كانوا يقولون هذا وهم يومضون بنصل سكينهم. في الحال تصبح الأكياس والثياب على الأرض. لا يلزم عليهم بعد ذلك سوى حملها مجددا بكل هدوء ودون مشقة إلى منازلهم. لكن في بعض الأحيان إذا لم يلب أمرهم، كانوا ينقضون بسكينهم ويبقرون كيس الطحين الذي ينتشر مثل الثلج ويتدحرج رجلان على الأرض. عند رؤيتهما، كان الناس الذين يجتازون الطريق بسرعة يقولون عند مرورهم بهما «لماذا يتعاركان بينما ثمة خير للجميع؟ بعد أن يدرك الشخصان مدى غبائهما ينهضان دون تأخير ويركضان نحو نهاية الطريق حيث تدوي صيحات النداء للنهب. حتما، لا ثمة ما يزعج!

بقيت مختبئا في الظل وسط حشد من البائعين. لم أكن أقول شيئا. لكن يبدو عليهم أنهم يقدرون تماما الموقف الصعب الذي أجد نفسي فيه، لأن أي شخص لم يكن ينبس بكلمة والحلقة من حولي ظلت متراصة دوما. ما الفائدة إذن من التذكير بأنني رجل شرطة، بينما هم أنفسهم لا يجرؤون على رفع رؤوسهم؟ كان من المستحيل بالنسبة لهم أن يحموا ممتلكاتهم وبضائعهم، وكل واحد منهم يعلم أن أقل حركة مقاومة سوف تكلفهم حياتهم، بمواجهة بنادق الجنود وسكاكين اللصوص. لذلك كانوا يخفضون رؤوسهم ويبدو على سيماهم جميعا الانزعاج

(١) حشرة تعيش من زبل الحيوانات العاشبة.

الشـديد. في الواقع، كـان خـوف واحـد يعتـمل في صـدورهم ألا وهو أن يجدوا أنفسـهم وجـها لوجه مع الناس الـذين ينهبون خيـراتهم، لأن هؤلاء الآخرين كـانوا أيضـاً من زبائنهم في الأيام العـادية. من الخجل حتى الغضب، ثمة خطوة واحدة، وبغياب أي نوع من القانون، لا تقدر حياة بعض الباعة إلا بثمن بخس! لذلك كانوا هم من يحمونني من الضرب.

كنت بأمس الحاجة لهم، نظراً أنه في الحي لا يمكن للناس ألا يتعرفوا علي. كنت أقوم بجولات كل يومين أو ثلاثة، وعادة لا يمكنهم التبول على أحد الجدران دون أن أتدخل وأضـايقـهم. لذلك كـانوا أكـيـدا يكرهونني! وبرؤية النشـاط الذي كانوا يكرسونه للنهب في هذا المساء، كنت مقتنعاً أنه إذا ما وقع نظرهم علي فسوف يعـاقبونني شر عقـاب ولن أخرج من تلك الورطة حيا. وحتى في حـال لم يتعرف علي أحد، لا يمكن أن أمر ببذلتي وسيفي، دون أن يلمحونني! هذا بالإضافة إلى أنه في ظروف مماثلة سيكون الظهور المفاجئ لرجل شرطة في غير موقعه تماما! علي أن أسبقهم وأعترف لهم بأنه لم يكن يتوجب عليّ التجرؤ بالتواجد في هذا المكان، وهم لن يغفروا لي ذلك بهذه البساطة. بغتة أضحى الشـارع أكثر سكونا والرجال الذين كانوا على الرصيف أخذوا يركضون وراء بعضـهم البعض في الزقاق، بينما كـان جنود تعتريهم حـالة من الفوضى يتقدمون ببطء شـديد وسط الشـارع. نزعت قبعتي وألقيت نظرة من فوق كتف متمرن كـان يقف هنـاك ورأيـت حينذاك جندياً يحمل بين يديه شيئا يشبه مشبكا على شكل سلطعون. كان ذلك دون أدنى ريب عبارة عن مجموعة من الأساور الذهبية والفضية. فوق ذلك كان ذلك الرجل حتما يحمل معه أشياء أخرى، بالتأكيد الكثير من المعادن الثمينة، نظرا للبطء الذي كـان يقوم به. هل هناك ما هو طبيعي أكثر من هذا، ومايمكن أن يحسد عليه أكثر من أن يتقدم على هذا النحو دون أن يستعـجل السيـر وكأن شـيئاً لـم يكن وسط الطريق. يداه ممتلئتان بالأساور ويستعين بالمخازن المحترقة كأنها مشاعل عملاقة لينير المدينة بأكملها.

ما أن مر الجنود حتى خرج الناس مجددا من الأزقة. ولأنه لم يبق ثمة شيء للنهب أو يكاد، أخذ الناس جميعهم يقومون حتى بنقل أبواب المخازن، وبعضهم وصل به الأمر إلى حد نزع اللافتات من فوق المدخل. لأردد تعبيراً كنت غالباً ما أصادفه وأنا أقرأ الصحيفة، يمكن القول أنه عندما يسمح شعبنا الطيب لنفسه بالنهب، فهويقوم بذلك رأسا على عقب بالفعل. فقط عند هذه اللحظة عينها، نرى الباعة يحتجون صارخين: «النار! النار، يجب ألا ننتظر حتى يحترق كل شيء!». عندما يسْمع المرء صرخة كهذه، بالكاد يمنع نفسه عن ذرف الدموع. بدأ الناس الذين كانوا إلى جانبي بالتحرك، ماذا سيحل بي لو رحل الجميع لإخماد النار وتركوني هنا وحيدا، أنا رجل الشرطة، إلى أين أهرب؟ أوقفت عندها بائع لحم خنزير أعطاني قميصاً مشرباً بدهن الخنزير كان يرتديه، سرت ملامساً الجدران، وأنا أحكم مسك قبعتي تحت ذراعي، ووضعت إحدى يدي فوق سيفي والأخرى تمسك بطرف القميص، واحتميت بسرعة في «الثكنة».

-٨-

نظراً لأنني لم أشارك في عملية السطو، ولم يكن بالإضافة لذلك، من شأني أن ينهبوا، يمكننا أن نقول أنني لم أكن معنياً بما جرى. مع ذلك، لقد رأيت وفهمت. فهمت ماذا؟ شيئاً لن أكون قادراً على التعبير عنه بجملة واحدة على نحو صحيح، لكنه مع ذلك قد قلب كياني. ثمة أحداث لا ننساها أبدا. بالنسبة لي ثمة حدثان: رحيل زوجتي وعصيان الجنود ذاك، الذي كان نظيرا له. في الحالة الأولى، لم تكن المسألة تخص سواي، ولزام أن تبقى محفورة في أعماق قلبي ومن العبث أن نعرفها بغير كونها مسألة شخصية. بالمقابل يمس عصيان الجنود عدداً كبيراً من الناس، ما أن أفكر به، حتى يدفعني للتفكير بكل أولئك الناس، وبالمدينة كلها، وانطلاقاً من هذا، أحكم رأساً بنفس الطريقة على كثير من الأحداث الهامة، كما لو أن الأمريتعلق بهذه المسألة أو تلك مما تم مناقشته في الصحف. قضية تعليمية على

عدة أصعدة: هذه هي العبارة التي كنت أبحث عنها. قد لا يفهمها الناس جميعهم، لكن بالنسبة لي أجدها صحيحة تماما.

سنحت لي الفرصة في السابق أن أتحدث عن الفراغ الذي تركه رحيل زوجتي محفوراً في داخلي. حسن، لم يقم عصيان الجنود الذي كنت قد شهدته إلا بتوسيعه أكثر بحيث أن عدداً كبيراً من الأشياء كان يمكن لها أن تجد بسهولة مكانا فيه. لكن لننهي الحديث أولا عن التمرد! إذ يمكن أن يدرك المرء بشكل أفضل ما كنت أرغب في قوله عندما أنهي حديثي.

عندما وصلت إلى عنبر النوم في الثكنة، لم يكن أحد قد آوى إلى فراشه بعد. لا ثمة ما يثير الدهشة في هذا، لكن ما يدعو للعجب أكثر أن لا أحد كان يظهر عليه علائم القلق أو حتى أدنى أشكال الخوف: البعض كان يدخن، آخرون يشربون الشاي، تماما مثلما نفعل عندما نسهر في ليلة الزفاف أو أثناء مراسيم الجنازة. ومع أنني في حال يرثى لها إلا أن ذلك لم يوقظ فيهم أدنى شعور بالتعاطف معي بل جعلهم ينفجرون ضاحكين. كان لدي الكثير في جعبتي لأسرده على مسامعهم، لكن عند رؤيتي موقفهم وجدت أنه لم يكن ضرورياً حتى أن أفتح فمي. لذلك تهيأت للنوم عندما أوقفني العريف قائلاً: «النوم ممنوع! نحن ننتظر طلوع النهار حتى نمشط الحي بأكمله!» هنا كان دوري أن أنفجر ضاحكا. كان الشارع يتعرض للنهب والحرائق، لكن عوضا عن إرسال العناصر إلى هناك، ننتظر حتى يبزغ الفجر لنتدخل! هذا هو الهزال بعينه. لكن بما أن الأوامر هي الأوامر، كان يجب أن أنتظر بدوري شروق الشمس.

في هذه الأثناء، علمت أن الضباط من الرتب العليا في الشرطة كانوا منذ زمن طويل على علم بأمر العصيان الذي يتم التحضير له، ولكنهم وجدوا من المناسب ألا يخبروا مرؤوسيهم به. معنى القول أن قوات الأمن كونها غير قادرة على السيطرة على الوضع بالقوة، لم يكن في نيتها أن تمنع حالات الشغب من الحدوث. فإنه، في هذه الظروف، عاد أو لا، فالمأمورون ورجال الشرطة من مهماتهم الغبية

المعتادة، كالدوريات أو نوبات الحراسة الليلية، فهذا يتعلق بهم فقط. لا تخلو الفكرة من الدهاء بل هي شيطانية أيضاً. على أية حال، لقد حذا رجال الشرطة حذوي، فعندما سمعوا طلقات النار عادوا راكضين إلى الثكنة. إنهم ليسوا بالأغبياء جدا، هؤلاء الزملاء! كانوا بتصرفهم على هذا النحو يبرهنون تماما على أنهم موضع ثقة رؤسائهم، من أعلى إلى أسفل السلم الاجتماعي، لا ثمة مجال للريب: كل واحد يقوم بواجبه، إنما وهو يتظاهر بذلك!

على الرغم من نعاسي الشديد، كنت أتحرق للذهاب لرؤية ما يجري في الشارع. كانت الصور التي لمحتها في الليل تلاحقني وأرغب في العودة نهارا إلى الأمكنة نفسها لأتمكن من المقارنة وإنهاء اللوحة. لهذا بدا النهار لي بعيدا جداً، لشدة لهفتي لقدومه. عندما أقبل أخيراً، وضعت فرقتنا في صفوف. من جديد شعرت برغبة في الضحك، إذ كان من بيننا من اهتم بأمر إسدال ضفيرته وتظاهر العرفاء بأنهم لم يروا ذلك. آخرون قبل أن يصطفوا في أرتال، كانوا قد نظفوا بالفرشاة بدلاتهم بعناية وحتى أنهم قاموا بتلميع أحذيتهم. إن تلميع الأحذية في مثل هذه الظروف كان عملاً سخيفاً بحق!

مع هذا، ما أن وصلنا إلى الشارع حتى تلاشت عندي أي رغبة في الضحك. حتى ذلك الوقت، لم أكن قد استوعبت بعد جيداً معنى كلمة «الكارثة» لكن في هذا اليوم فهمت ذلك. في السماء حيث لا يزال بعد بعض النجوم، كانت بعض الغيوم الرمادية تكشف عن مسحة خفيفة من الزرقة مصحوبة بشيء من النداوة والضوء الشاحب. مع ذلك كانت تسود في كل الأنحاء رائحة الشياط الثابتة ذاتها، بينما لا يزال دخان أبيض يهيم في الجو. كانت أبواب المخازن مفتوحة على مصراعيها ولم تكن أي نافذة قد سلمت من النار. كان أرباب العمل والموظفون عند العتبة، سواء واقفين أو جالسين، غير أنهم جميعاً لا ينبسون بحرف ولا أحد يبادر بحركة لالتقاط ما يمكن أن يكون موجوداً. يشبه الأمر قطيعاً غبياً من الخراف قد حرم من سيده.

توقفت النار عن الانتشار، لكن في الأماكن التي مرت بها، لا يزال يرتفع بهدوء دخان أبيض اللون يترافق، في الآن ذاته، مع ألسنة صغيرة من اللهب اللامع. هبة ريح واحدة كانت كافية لإشعال دعامات بناء من جديد وأن تثير فتيل الحريق من حوله. لم تعد المنازل التي احترقت في بادئ الأمر إلا عبارة عن أكوام هائلة من تراب محروق، ولأن جدرانها الجانبية لم تكن قد تقوضت بعد، كانت تحيط بما يشبه تلالاً مأتمية لا يزال الدخان ينبعث منها. بالمقابل، لا تزال قائمة الأبنية التي هاجمها الحريق مؤخراً، لم تكن الجدران والواجهات قد هدمت بعد لكن الأبواب والنوافذ كانت قد احترقت بالكامل وتبدو مثل فوهات كبيرة سوداء. على عتبة واحد من هذه المنازل، كانت قطة تجلس وهي تواصل العطاس بسبب الدخان، لكنها لم تكن ترغب بالرحيل أبداً.

هكذا تحول تقاطع طريق كان في العادة يعج بالحركة والناس الذين كانوا يسلكونه إلى ركام من خشب محروق وآجر مهشم، حيث تنبثق بصمت مجموعة من أعمدة متفحمة. في كل الأرجاء كان الأمر مشابها: في كل مكان تسود الرائحة الكئيبة عينها والتي لا تتوقف عن الفوح. لا أعلم كيف سيكون جهنم إنما على الأرجح يلزم أن يكون مشابهاً إلى أبعد حد لما كنت أراه في مواجهتي. عندما أغلقت عيني، تذكرت المظهر الذي كان لنفس المكان في السابق بمحلاته الجميلة التي تبهج العين بمنظرها. وها هو الحال الآن لا أرى أمامي سوى كومة من الأنقاض! إن التراكب المفاجئ لهاتين الصورتين قد دفعني للبكاء. هذه هي إذن «الكارثة»! حول الحريق، نلمح الكثير من الباعة والموظفين الذين كانوا قد بقوا هناك ببلاهة تندس أياديهم في جيوب أثوابهم يعتريهم الذهول الشديد أمام الأضرار الأخيرة للحريق. عندما رأونا نصل رمقونا بالكاد بنظرة، ويبدو من ردة فعلهم أنه بالنسبة لهم كان كل شيء قد انتهى ولم يعد ثمة مجال حتى للتأثر.

خلف الحريق كانت أبواب المحال مشرعة، لكن لا أثر لحياة فيها. انتشر الحطام على الأرصفة وقارعة الطريق وكان المشهد بحق مؤثراً أكثر. في الواقع

لايمكن لأحد أن يرتاب بخصوص الحريق، لكننا نشعر بالحيرة إزاء هذه المخازن المدمرة التي يلفها الصمت، ونتساءل بإلحاح كيف يمكن لشارع تجاري مزدهر جداً أن يتحول إلى كومة من الأقذار كهذه. إنه تحديداً الموقع نفسه الذي تم إرسالي إليه للحراسة. من أجل أي هدف؟ أجهل هذا! طبقاً للنظام لبثت واقفاً لا أروم حراكاً، كأني متجمد بسبب تيار الهواء الذي كان يجوب الشارع. أمام المحال، لا تزال النسوة والأطفال يلتقطون البقايا، لكن بما أن التجار أنفسهم لم يكونوا يقولون لهم شيئاً، لم يكن لدي سبب وجيه لأتدخل، لذا تساءلت عما كنت أفعله هنا حقا.

عند شروق الشمس بدت الأضرار أكثر فظاعة مثلما يبدو المتشردون في وضح النهار. يمكن التعرف على لون وشكل كل حطام على الأرض، لكن من بينها ثمة مجموعة كبيرة في حالة فوضى عارمة إلى درجة يكون فيها المرء مشدوها تماما أمامها. بالإضافة إلى ذلك، لاحظت أن أيا من الذين كانوا يأتون في الصباح الباكر لم يكونوا هناك: لا بائع البقول ولا بائع الطلمية لوجبة الفطور، لا مركبة ولا حتى حصان واحد: الشارع كله كان على هذا الوضع، وكان الصمت بليغاً إلى درجة يمكن أن نقول فيها أن الشمس ذاتها لم تكن تلمع كالمعتاد وتبدو وكأنها معلقة في فراغ السماء. عندما مر ساعي البريد من أمامي محني الرأس جاراً وراءه ظلا كبيرا انتفضت مرتعداً.

بعد لحظة وصل ضابط من شرطة الحي يتبعه شرطي. كان الحذاء العسكري للرجلين يصدر رنيناً قوياً وسط الجادة كما لو أنهما كانا قد تلقيا خبرا سارا. قال لي الضابط أن أحرص على حفظ النظام في الشارع طبقا للتعليمات الأخيرة للسلطات العليا. قمت بالتحية النظامية وأنا أتساءل عما كان يعنيه الضابط. ويبدو أن الشرطي الذي كان بصحبته قد لاحظ هيئة الذهول على محياي، فأضاف بصوت منخفض: وصلت السلطات، يلزم طرد كل من يلتقط الأشياء من الطريق في أقصى سرعة. لم تكن لدي الرغبة إطلاقاً في إطاعته، لكن بما أنني لم أكن أجرؤ أيضاً على معارضة الأوامر التي أعطيت لي علانية، ذهبت للتمركز أمام الحوانيت

وأخذت ألوح بيدي لأنبه النسوة والأطفال الذين كانوا هناك، لكن دون أن أستطيع قول كلمة واحدة.

بينما كنت أقوم بتطبيق النظام على طريقتي، ذهبت إلى بائع لحم الخنزير، فقط لأقول له أنني أحمل له قميصه مغسولاً. غير أنني عندما رأيت الرجل جالساً عند عتبة حانوته الصغير، لم يخطر في بالي البتة أنه يمكن أن يكون هو أيضاً ضحية للنهب فلقد جرد دكانه الصغير من محتوياته مثل الدكاكين الأخرى، وعندما وجهت له الحديث لم يكلف نفسه حتى عناء رفع رأسه. عند ذلك أجلت النظر في دكانه، كل ما يمكن حله، الوضم[1] كما كلابات اللحم، جذع الخيزران الذي يستخدم كصندوق كما صواني دهن الخنزير الذائب، كل ذلك قد اختفى ولم يبقَ إلا الطاولة واللوحان الطينيان اللذان يسندان لوح التقطيع.

عدت على الفور إلى موقع الحراسة، وكان لدي شعور بأن رأسي يكاد ينفجر. إذا اقتضى الأمر أن أكون في يوم حارساً دائماً في الشارع نفسه فسأكون واثقاً من شيء واحد: لن يطول الأمر لأصبح مجنوناً.

ظهرت السلطات العليا بالفعل. رأيت عندئذ اثني عشر رجلاً من الفرقة، على رأسهم ضابط يمسك بيديه الاثنتين لوح المرسوم الذي ينص على تنفيذ حكم الإعدام الفوري على كل شخص يضبط متلبّساً بجرم النهب. هذا غير الجنود الذين كانوا يتسلحون كلهم بحرابهم. عند رؤيتهم جمد الدم في عروقي: ما هذا! أيضاً جنود بضفائر! هم أنفسهم الذين رأيتهم ينهبون كل شيء ويحرقون كل شيء هم الآن ملكفون بعملية القمع! يا لها من ملهاة غريبة! وعلي أيضاً أن أؤدي التحية العسكرية أمام اللوح!

نفذت الأمر ثم ألقيت على الفور نظرة دائرية سريعة ما إذا كان لا يزال ثمة أناس على وشك التقاط بقايا الحريق من الأرض لأنبههم قبل أن يفوت الأوان. في

(١) خشبة الجزار يقطع عليها اللحم.

الحقيقة لا يستحق أشخاص يقبلون على أنفسهم سرقة حتى خشبة اللحام أي تعاطف، لكن سأجد الأمر غير عادل بتاتا أن أراهم يغتالون على يد هؤلاء الجنود بضفائرهم تلك. لسوء الحظ، قبل أن يسعفني الوقت لقول ذلك، كان غلام في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره قد طوقته الحراب قبل أن يستطيع الفرار. إنه يمسك بين يديه لوحا وزوجا عتيقاً من الأحذية. دفعوه أمامهم ولمع نصل سيف. بالكاد تمكن من لفظ كلمة «أمي» حتى كان الدم قد انبجس بعيداً جداً، وأضحى الرأس معلقا على عمود كهربائي بينما كان الجسد لا يزال يفتل.

لم يعد لدي القوة على بصق لعابي. أخذت الأرض تميد فجأة تحت ناظري. على الرغم من أنني شهدت الكثير من عمليات القتل ولم تُخِفني في يوم إطلاقاً إلا أن النقمة في هذه المرة كانت أقوى مني. عندما قلت قبل قليل أنني فهمت شيئاً، هذا هو ما كنت ألمح له. كيف يمكن في واقع الأمر أن يتحدثوا عن «العدل» بينما هم أنفسهم الذين يعودون إلى ثكناتهم وأيديهم ملآى بحلي ذهبية وفضية، ومن ثم يخرجون منها مجدداً ليذبحوا صبياً كان كل ما التقطه هو زوج عتيق من الأحذية؟ إذا كان هذا هو «العدل» فأنا أتبب... على هذا «العدل» العاهر! أنتم تعذرونني إذا ما كنت فظاً هكذا لكن في حالات كهذه لا نعود نعلم ما هي فائدة التهذيب أو الحضارة!

بعد ذلك بفترة، سمعت أقاويل أن هذا التمرد العسكري كان له فائدة سياسية، ولهذا السبب كان الجنود الذين شاركوا في عملية النهب قد خرجوا لاحقاً لتمشيط المنطقة. لقد تم تدبير المؤامرة مسبقاً من بدايتها إلى نهايتها. لكن ما هي الفائدة السياسية من كل ذلك؟ شخصياً أنا لا أجد فيها أية فائدة. كل ما يمكنني قوله أن هذا الوضع قد دفعني للاحتجاج. لكن ما ينفع الاحتجاج عندما لا يكون المرء إلا مجرد «مفتش بأصابع عفنة؟»

سأتوقف عند هذه المسألة عن طيب خاطر لكن سردي سيكون غير مكتمل إذا لم أطرح بعض الأسئلة، تاركاً المجال لمن هم أكثر ذكاء مني أن يبحثوا في تفاصيلها. الأسئلة هي التالية: كيف يمكن لتمرد عسكري أن يكون جزءاً من إجراء سياسي؟ وإذا كانوا يدفعون الجنود عمداً إلى النهب، بماذا يفيد الدولة وجود الشرطة؟ لماذا ثمة في الواقع رجال شرطة إذا كان عملهم يقتصر على منع الناس من التبول في الطرقات وليس التدخل عند نهب المتاجر؟ إذا كان مواطنونا الذين يتسمون بالوداعة والطيبة قادرين على الاستسلام للنهب، لماذا بحق الآلهة يكون عمل الشرطة مقتصراً على توقيف اللصوص العاديين؟ تكمن المشكلة كلها في معرفة ما إذا كنا نرغب أم لا بوجود رجال الشرطة. إذا كنا لا نرغب بهم، لماذا يتم استدعاؤهم ما أن يبلغ الأمر حد القتال. وبماذا يفيد أن تدفع كل شهر ضريبة الشرطة؟ وإذا كنا على العكس من ذلك نريدهم، لماذا نفضل ألا يتدخلوا البتة، لماذا ندع الناس ينهبون كل على هواه ولا نرى ضحية واحدة للنهب تستطيع لفظ كلمة واحدة؟

أنا هنا لا أسرد إلا بضع أمثلة. لكن ثمة الكثير من الأسئلة يلزم طرحها. ولأنني لست بقادر على الإجابة عنها غلي أن أوقف عند هذا الحد ثرثرتي. على أية حال كانت الأسئلة التي ذكرتها كافية سلفا لتشوش ذهني. فمن كثرة التفكير بها ضاع رشدي ولم يعد يبدو لي أنني أملك زمام الأمور من بدايتها إلى نهايتها، وشعرت تماماً أن الأمر قد تجاوز إدراكي. كل ما يمكنني قوله هو أن أردد تعبيراً قديماً وهو أن كل هؤلاء الرجال، بما فيهم على السواء الضباط والجنود ورجال الشرطة والمواطنين الوادعين «ليسوا بذلك المستوى». وهذا بالنتيجة جعلني أشعر أن الفراغ في داخلي كان ينمو باطراد. كان تأثير الحياة عليّ وسط كل هؤلاء القوم الذين «ليسوا بالمستوى المطلوب» أن أدركت على الأقل شيئاً واحداً، وهو أنه يكفي أن

يتظاهر المرء بالغباء وأن لا يتعلق كثيراً «بواقع» ما يجري. ثمة تعبير آخر لا يستحق أن يكون طي النسيان. كانوا يقولون «سخر من العالم»[1].

أيا كان يجد نفسه مثلي غير مؤهل للتخلص من هذه الورطة، سيجني فائدة كبرى من استخدام هذه العبارة التي تتمع بميزة أنها تعبير جاهز، يعني تماما ما يريد أن يعنيه، وهي بالإضافة لذلك تجنبك أن تبدو كأحمق. «سخر من العالم» عندما نقول ذلك نكون قد قلنا كل شيء، لكن إذا وجدنا أن هذا التعبير كان بارداً قليلاً يمكن أن نضيف دوماً كلمة «تفه»! بذلك يصبح التعبير ملائماً أكثر.

-١٠-

عند هذا الحد لن نقحم أنفسنا في مناقشات جديدة لأنه من المحتمل أن الجميع يعلم بماذا تتعلق الأمور فيما يخص مواطنينا. لنعُد الى مناقشة قضية الشرطة وحدها. تهاون كهذا من جهتها كان من الأمور الطبيعية وليس فيه مايثير العجب. خذوا على سبيل المثال محاربة القمار. في السابق، كان يرأس في الخفاء نوادي القمار شخصيات مشهورة. كذلك لا يتوقف الأمر عند استحالة أي حجز رسمي فحسب، بل حتى أن عمليات القتل التي كانت تقع فيها لا تعرض مرتكبيها لأية عاقبة. بعد إحداث وظائف لرجال الشرطة، بقيت منازل القمار مفتوحة كالسابق ولم يجازفوا دائماً بالقيام بعمليات حجز. ولا حاجة لذكر السبب. مع ذلك لم يكن لذلك تأثير جيد. كان يلزم إيجاد حل ما. عندها طرأت على بالهم فكرة مهاجمة السمك الصغير فقط. لذا قرروا إلقاء القبض على عدد من اللاعبين العجائز وبعض النسوة العجائز: تمت مصادرة بعض ألعاب الورق وفرضوا غرامات لا تتجاوز العشر يونات. على هذا النحو يقوم رجال الشرطة بواجبهم وتم إنذار الرأي العام وأضحى كل شيء ضمن النظام. هذا المثال ليس إلا واحدا من بين

(١) أي يتصرف المرء بلا مبالاة دون أن يأخذ الأمور بمحمل الجد، بطريقة ينقذ فيها ماء وجهه.

كثير، لكنه يشير تماما إلى أنه، منذ البداية، لم يخدم عمل الشرطة إلا في وضع طبقة رقيقة من الجص على الجرح، وهو إذ يقوم بذلك يعمل، كيفما اتفق، على إطعام طبقة من الناس كانت في السابق تتضور جوعاً. هذا هو كل ما كان يمكن أن يطلب منهم. لم يكن المجتمع بحاجة إلى رجال شرطة حقيقيين، ولا أدرك بحق لماذا كانوا يعرضون حياتهم للموت من أجل ست يونات.

بعد هذا التمرد العسكري، ازداد وضعنا سوءاً على سوء. الشباب الأقوياء الذين انتفعوا إلى أقصى حد من عملية النهب كانوا قد ملأوا جيوبهم من مكاسبها. نرى بعضاً منهم يرتدي سترتين الواحدة فوق الأخرى، آخرون يلبسون خواتم بعدد أصابع أيديهم، وكلهم يتبخترون في الشارع وهم ينظرون شزراً إلى عناصر الشرطة، يطلقون الصفير عند مرورهم بهم ومحياهم ينطق بالاحتقار الشديد. لذلك كان محكوم علينا أن نخفض رؤوسنا إلى حد يثير الشفقة. وهذا كان أمراً طبيعياً فنحن لم ننبس بكلمة عندما وقعت هذه الأضرار، فكيف نستطيع بعد هذا أن نلوم الناس على احتقارهم لنا؟ ثم نتج عن ذلك ظهور المقامرين: يمكنهم بالمال الذي لم يكلفهم أي عناء أن يسمحوا لأنفسهم بخسارته قدر ما يرغبون! لم نكن نجرؤ على حجز الأموال إذ ثمة الكثير جداً للاستيلاء عليه. كنا نسمع الناس من الجهة الأخرى للجدار يصيحون معلنين عن «تسعة» أو عن «زوج»[1]. بيد أنه لم يكن في وسعنا سوى التظاهر بعدم سماع شيء، ونعبر طريقنا متجنبين إصدار أدنى ضجة. على كل حال مادامت الأمور تحدث على هذا النحو في الساحات الداخلية للمنازل، فستستمر على هذا المنوال أيضاً. المصيبة أنّ الناس لم يدعونا نحفظ حتى القليل الباقي من ماء وجهنا!

على هذا النحو، أصرّ الشبان الأقوياء الذين تحدثت عنهم للتو على عدم إظهار أدنى أشكال الخوف من رجال الشرطة. في نهاية المطاف، استطاع آباؤهم وأجدادهم الاستغناء تماماً عن رجال الشرطة، والجيل الصاعد كان يقبل بامتعاض

(١) ترتيب لعبة من اثنين وثلاثين حجراً من أحجار الدومينو تدعى بايجو Paijiu.

أن يكون السبّاق في الخضوع لهم. لذلك كانوا يلعبون بكل بساطة في الطريق. يكفي وجود زهر النرد ليقيموا المصرف وكان اللعب يتم بالقرفصة مباشرة على الأرض. يتم اللعب بالكرات(١) بلاعبين كما بخمسة. وكل ضربة بماو واحد «أنبدأ؟ حسناً! - ها قد عادت». وكانت الكرات تتصادم: بان! لقد ربح أحدهم ماواً. ولأنهم يلعبون بالجملة لمدة ساعة كانت عدة يونات تنتقل بسهولة بين الأيادي. وكل هذا كان يحدث أمام ناظرينا بينما نحن نتساءل ما إذا كان واجب علينا التدخل أم لا. إذا تدخلنا لا نعلم تماماً ماذا يستطيع رجل واحد، كل ما يحمله من سلاح هو سيف لن يقطع به في يوم حتى قطعة جبن، أن يفعل أمام هذه العصبة من الشبان الشجعان. عندما يكون المرء ذكياً لا يدفع بنفسه داخل وكر للزنابير. لذلك لاأفضل بالنسبة لرجال الشرطة من عدم التدخل: لذلك يمرون منعطفين عن طريقهم الرئيسي. لسوء الحظ كانوا يتعرضون حين ذاك إلى تفتيش «ماذا؟ ألم تروا مقمرتهم؟ هل أنتم عميان ... ... » عند عودتهم إلى الثكنة يجدون أنفسهم معرضين على الأقل لعقوبة تأديبية. هذا النوع من الهم لمن نستطيع نحن أن نشكوه؟

إن حوادث كهذه لا نقوم في الواقع بوضعها في حسابنا أبداً. من جهتي لو كنت أحمل مسدساً عوضاً عن هذا السيف القديم، فلن أتردد أبداً في قتل كائناً من كان. من الطبيعي أنه لا شيء يستحق أن يعرّض المرء حياته للموت من أجل ست يونات، لكن البؤس لا يمنع المرء من أن يتحلى دوماً ببعض الميزات، وثمة أشياء لايقدر المرء على تحملها، خاصة عندما يثيرون حفيظته. المصيبة أنني لا أملك أي مسدس بين يديّ، بينما كان قطاع الطرق والجنود يحملونه. عندما أرى على سبيل المثال بأم عيني عسكرياً أرعن يستقل مركبة دون أن يدفع أجرة ويسوط صاحبها بنطاقه، لن أملك الجرأة في يوم أن أقول له أن يذهب في حال سبيله دون أن ابتسم له: شرطي زيادة أو نقصان ليس في الأمر مشكلة! في إحدى السنوات، في ماخور لحثالة من الناس قام الجنود بقتل ثلاثة من زملائنا. حسن، لم نستطع حتى أن

(١) نوع من لعبة البلياردو يستخدم فيها كرتان، لا يتم قذفها بل تحريكها بضربة قدم.

نكشف عن هوية الجاني الحقيقي! ثلاثة من رجالنا قتلوا من أجل لا شيء، ولم يعاقب جندي واحد ولا حتى بضرب العصا! تستطيع مسدساتهم أن تنطلق لوحدها بينما نحن، بقبضاتنا وأيدينا العارية، كنا نمثل الحضارة!.

لأقول كل شيء، في مجتمع كانت تسود فيه البربرية والجور وحيث يتم إعلاء مجد العائلة على حساب الأمن العام، كان عمل رجال الشرطة بكل بساطة فائض عن الحاجة. إذا تفهمنا ذلك وإذا تذكرنا ما كنا قد ذكرته سابقاً عن الراتب الضئيل وعن ضعف إمكانياتنا، نكون قد فهمنا كل شيء أو نكاد. كل ما كنا نستطيع عمله هو مداواة الواقع بأي طريقة كانت. وكوني أنا رجل شرطة، لاأبحث بذلك عن أعذار، أريد فقط أن أذكر الأشياء لتكون جليّة تماماً وليعلم كل الناس كيف تسير الأمور. أريد بكل صدق إفراغ ما في جعبتي.

في نهاية عام أو عامين من الخدمة، أصبحت بين زملائي شخصاً مميزاً. ما أن كان يحدث شيء مما يقع، حتى كان رؤسائي يضعونني في المرتبة الأولى. لم يكن زملائي أبداً يشعرون بالغيرة بسبب ذلك، لأنه في القضايا الخاصة التي تهم كل واحد منهم لم أكن كذلك من أولئك الذين يبقون في الصفوف الأخيرة. على هذا النحو في كل مرة كان منصب العريف يصبح شاغراً، كان الجميع يهمس في أذني «هذه المرة، المنصب لك!» كما لو أنّ الجميع كانوا يأملون أن أشغل هذا المنصب. في الواقع لم أكن أنا دائماً الموعود، لكن على الأقل كان الجميع يعترف بمواهبي.

القول إنني كنت أعرف كيفية التعامل كما يدلّ على ذلك كل ما سبق. على سبيل المثال، عندما كان الناس يبلغوننا عن سطو منازلهم، كنا أنا والمفتش نذهب لإثبات الحالة. نعاين الأمكنة على عجل، ثم استطرد على الفور وأنا أسرد بأدق التفاصيل، قدر الإمكان، كل المراكز التي فيهامواقع حراسة وعدد نوبات الحراسة الليلية، كما لو أننا نعاني ألماً مبرحاً في ممارسة مسؤولياتنا. بعد ذلك كنت أبحث عن مكان فيه باب أو نافذة غير موصدة بإحكام وأبدأ بهجوم معاكس، دون أن أكون فظاً وإنما بحزم مع ذلك «هذا الباب ليس آمنا، عليك أن تركّب مزلاجاً حديثاً.

لكني أنبهك، عليك أن تضعه نحو الأسفل، هنا قرب العتبة سيكون ملائماً جداً. لا يمكن للص أن يصل إليه بسهولة. وهناك وسيلة أخرى، وهي وجود كلب داخل المنزل، حتى لو كان صغيراً سيقوم بالنباح عند أدنى ضجة، وهذا ينفعك أكثر من ثلاثة كلاب حراسة في الباحة. كما ترى سيدي، مع مزيد من السهر من جانبنا ويقظة أكثر من جانبك، إذا ما توحدت قوانا أضمن لك أن لا شيء سيفقد بعد الآن. حسن! سنعود الآن، لكننا سنقوم بتعزيز دوريات الليل، هذا مؤكد. يمكنك النوم قرير العين يا سيدي».

بعد حديث كهذا نجد أنفسنا مبررين من مسؤلياتنا، وتجد الضحية نفسها مرغمة على وضع مزلاج وامتلاك كلب صغير. عندما نقع على سيد منزل مضياف، يكون لنا الحق إضافة لذلك بشرب الشاي من نوعية جيدة. آه! أن نحتجب وراء مثل هذه الأمور دون أن يبدو ذلك علنياً، هذا ما كنت خبيراً به! كل ما يتطلبه الأمر معرفة تدليس بضع كلمات حلوة وأن يتكلم المرء كلمات معسولة. هكذا نتنصل من كامل المسؤولية ونكون واثقين من تجنبنا الكثير من المشاكل. كان زملائي يعرفون مثلي هذه الوسيلة لكنهم يفتقدون إلى سهولة الكلام وينقصهم حسن التصرف. ذلك لأنه ثمة أكثر من طريقة للتعبير، ويلزم العثور في الوقت المناسب على تعبير ملائم، محتفظين بليونة النابض الذي يستطيع التقدم ليرتد بعد ذلك. لكن هذا الأمر لا يمكن تعلمه، بل هو جزء من الأشياء الفطرية.

عندما كنت أقوم وحدي بدورية ليلية وأقع على لص، يمكن أن يتساءلوا أيضاً كيف أتصرف حيال ذلك. حسن، كان ذلك بسيطاً: كنت أتابع طريقي وكل واحد منا يجتهد عدم إزعاج الآخر. هكذا أفضل بكثير، لأنني لو أثرت ضغينته، فسوف يختبئ في اليوم التالي في الظل وأكون معرضاً لتلقي حجر على رأسي وأكون قد نجحت تماماً في عملي! هكذا... من؟ آه نعم، ذلك الأخرق وانغ جيو قد فقد واحدة من عينيه وهو يحاول الإمساك بلص! في يوم كان فيه عند مخرج أحد الطرقات مع دونغ زيهي وقد تسلح كلاهما بزوج من المقصات، أخذوا يقصون

عنوة ضفائر المارة. إيه! والناس الذين أتحدث عنهم لا ينسون ذلك على الفور. لقد انتظروا أن يعاود وانغ جيو المرور وحيداً، وعندها قاموا برمي الكلس في عينيه وهم يصرخون: «هذا يعلمك أن تقص ضفائر الناس أيها القذر! وهكذا فقد إحدى عينيه. لو كنت قد قمت بواجبي بالطريقة ذاتها، قولوا لي أنتم: هل سأكون الآن على قيد الحياة؟ في كل مرة كان رجال الشرطة يجدون مناسباً أن يتدخلوا، كان الناس يرون أنهم يتدخلون فيما لا يعنيهم ولا نعود ندري ما علينا عمله.

على عكس ذلك الأحمق جيو، كنت أتمسك بقوة بعيني حتى لاأفقد بغباء واحدة منهما! من ثم، عندما كنت أفعل ما بوسعي لأتجنب لقاء لص، لم أكن أقدر أن أمنع نفسي عن التفكير بولدي الصغيرين اللذين حرما من والدتهما، ومن أن أعد المال المتبقي لدي حتى نهاية الشهر. في ذلك العهد، ثمة أناس كانوا على الأرجح لايعدون إلا قطع من ذوات الخمسة أو العشرة وحتى العملة الفضية. أما أنا فكنت أعد قروشي النحاسية واحدا واحداً. عندما يكون بحوزتي عدد إضافي منها كنت أشعر أنني في بحبوحة، لكن عندما تكون أقل من المفترض كنت أقع في ضائقة مالية. في مثل هذه الظروف كنت أرى نفسي شريراً إذا ما ألقيت القبض على اللصوص: أليسوا هم أيضاً من الفقراء؟ وكنت أقول لنفسي عندما لا نملك وسيلة أخرى للتخلص من الفقر، يقدم الناس كلهم على السرقة، فالبطن الخاوي لايعود يتعرف الخير من الشر.

-١١-

بعد هذه البلبلة في صفوف الجيش حدث انقلاب كبير من جديد. تخلت إمبراطورية كينغ عن مكانها لجمهورية الصين[١]. نادراً ما كنا نواجه تغيرات في

(١) يبدو أن الراوي هنا يهمل تسلسل الأحداث تاريخيا وعلى الرغم من أن محاولات إرجاع السلالة الامبراطورية إلى العرش مثل تلك التي ذكرت في الأعلى قد حدثت بعد، إذ يعود سقوط الأسرة الحاكمة إلى عام١٩١١.

السلالة الحاكمة أو في النظام، لكني شخصيا كنت أجد أن ذلك لم يكن يعود علينا بأيّ فائدة تذكر. الحق يقال، بالنسبة لحدث لا يقع حتى كل مائة عام، كاد الاهتياج أن يكون مشابها الى ذلك الذي تسبب به التمرد العسكري. ومن ثم قال الناس إنهم مع حكم الجمهورية، سيكون للشعب اليد الطولى في مراقبة الأمور كلها. والحال هذه لم أشهد أي شيء من هذا القبيل. بقيت على الدوام رجل شرطة ولم يزدد راتبي، وكان العمل الذي يطلبونه منا روتينيا دوما كالسابق. في الماضي كما في الوقت الراهن كنت ضحية للإهانات ذاتها. في السابق، كان خدم أولئك السادة، أي كبار الموظفين في الإمبراطورية، يعاملوننا باحتقار. بعد ذلك، عاملنا الرجال الذين يدافعون عن مصالح الموظفين الجدد لقاء أجر يتقاضونه بالقدر نفسه من البغض. لذلك بقينا «نسخر من العالم» فالانتقال من نظام إلى آخر لم يغير في واقع الأمر أي شيء. لا أقصد بذلك أن العدد المتنامي من الناس الذين يتنزهون في الشارع وقد قصوا ضفائرهم لا يعتبر ضرباً من التقدم. فضلا عن ذلك، قل اللعب بالدومينيو وزهر النرد[1]، أخذ كل الناس، الفقراء والأغنياء على حد سواء، يلعبون المهجونغ. ولم نكن كالسابق نجرؤ على مهاجمة اللاعبين إنما يلزم الاعتراف بأن لوازم اللعبة الجديدة كانت أكثر تطوراً وتمثل شكلاً أكثر تحضراً.

في واقع الأمر لم يحسب للشعب، تحت إمرة النظام الجديد، أي حساب أكثر من السابق: أولئك الذين يلفتون الأنظار هم كبار الموظفين وجنود الجمهورية! لقد ظهروافي كل مكان تقريباً مثلما ينبت الفطر بعد هطول المطر. وكنا نتساءل بحق من أين كانوا يخرجون. من الطبيعي أن لا يتم وضع الموظفين والجنود في كفة ميزان واحدة، بيد أن هذا النوع الجديد كان يملك بالفعل نقاطا مشتركة. رجال كانت أقدامهم حتى الأمس القريب لا تزال ملوثة بالطين قد وجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها جنوداً أوموظفين مرموقين. فرسموا على الفور ملامح الاستعلاء على وجوههم وأخذوا يحدقون فينا بعيون جاحظة هي أكثر ما تكون غباء. يمكن أن نشبه

(١) لعبة يستخدم فيها زهر واحد وتعتمد المراهنة على واحد من وجوهه الستة.

ذلك بفانوسين كبيرين يتألقان بالحماقة. هذه العصبة من البلهاء لم تكن تفهم شيئاً من شيء. مهما كان ما تقوله لهم يردون عليك بعنف دوما. إنهم حمقى إلى درجة تدفعنا للشعور بالأسف عليهم. وهذا لم يكن يمنعهم أبداً عن الشعور بالرضى عن أنفسهم. أحيانا، كنت أقول لنفسي عندما تقع عيناي عليهم: كلا، لن يكون بمقدوري البتة أن أصبح موظفاً، لا في الجيش ولا في الإدارة. فأنا لست غبياً بما فيه الكفاية لهذا المنصب!

ولأن كل موظف كبير يستطيع عمليا أن يطلب رجال الشرطة ليقوموا بالحراسة أمام مقره، أصبحنا نوعا من الشرطة الخاصة يدفعون رواتبنا من المال العام. وكلفت شخصياً لحراسة أحد المقرات. نظرياً هذا النوع من العمل لا يدخل أبداً في مهام الشرطي. إنما يتطوع رجال الشرطة كلهم لهذا العمل. عندما تم تكليفي بهذا العمل، رُقيت إلى درجة «شرطي من المرتبة الثالثة» لأنّ شخصاً عادياً مرهقاً لا يكون لديه الكفاءة المطلوبة لهذا العمل. عندها فقط انتسبت «إلى السلم الاجتماعي». لم يكن العمل من جهة أخرى متعباً. فخارجاً عن إطار الحراسة ليل نهار، لا ثمة شيء آخر نفعله. خلال عام يمكن أن نقتصد على الأقل ثمن زوج من الأحذية. لا ثمة عمل هام نقوم به، وهو إضافة لذلك ليس بالعمل الخطير. على هذا النحو، عندما كان سيد المنزل يتشاجر مع زوجته لا يطلبان منا التدخل أبداً. لذلك، لا خوف علينا من التورط في المشاجرة أو من تلقي بضع ضربات عن طريق الخطأ. بالنسبة للحراسة الليلية كانت فقط عبارة عن القيام بدورة أو اثنتين حول المقر. ونكون على ثقة أننا لن نلتقي باللصوص، فالجدران عالية جداً والكلاب شرسة جداً على لصوص عاديين. من جهة أخرى، لم يكن قطاع الطرق يهاجمون إلا بيوت كبار الموظفين المتقاعدين: من جهة تكون الغنيمة أكثر ربحا ومن جهة أخرى تقل فرصة المجازفة في أن يلاحقهم القضاء رسمياً. لذلك لا ثمة سبب لديهم لمهاجمة موظفين على رأس عملهم.

عندما يكون واجبنا حراسة أحد المساكن، لا يقتصر الأمر على عدم تمكننا من منع لعب الورق، بل على العكس من ذلك يقوم هؤلاء السادة والسيدات بلعب المهجونغ تحت حمايتنا. عندما كان المدعوون يقدمون للعِب، يكون الأمن سائداً أكثر من المعتاد، ففي الخارج تغزو السيارات والأحصنة الشارع، وفي الداخل، تكون الرؤية مثل وضح النهار، يقبل الخدم ويدبرون دون توقف، ثمة طاولتان أو ثلاث على الأقل للعَب المهجونغ، أربعة أو خمسة فوانيس غازية، باختصار تكون الضوضاء كبيرة خلال الليل بطوله لدرجة يستحيل فيها وقوع أية عملية سطو. لذلك يمكننا أن ننام قريري العين حتى ينبلج الصباح ويرحل الزوار. عندها فقط نعاود الخروج للحراسة ولتقديم التحية عند الباب وإظهار لياقة سادة البيت على هذا النحو.

عندما يكون هناك زواج أو وفاة نستفيد من الأمر أكثر. في الحالة الأولى يكون لنا الحق في حضور التمثيلية الغنائية في المنزل ومجاناً. بالإضافة إلى ذلك نكون واثقين من رؤية كل الممثلين المشهورين ومن توزيع أدوار لا يمكن أن نشهده في يوم حتى على المسرح. في حالة الوفاة، لا يكون لنا الحق في حضور عروض مسرحية، لكن بما أنّ مراسيم الدفن لا تنتهي خلال يوم أو اثنين يكون لدينا على الأقل ثلاثين أو أربعين يوماً، وهو الوقت الضروري لقراءة السوترا كلها، وخلال ذلك نحصل مثل باقي الناس على ما نأكله. تعادل حالة الوفاة عند أحد الأسياد مأدبة فاخرة استثنائية بالنسبة لنا. الشيء الوحيد الذي يرعبنا هو موت أحد الأطفال. في هذه الحالة لا ثمة احتفال ديني بالإضافة إلى أنّ كل الناس كانوا يكون جدياً ولا يكون بمقدورنا عدم الإصغاء إليهم. ثمة أيضاً أوقات صعبة نمر فيها، خاصة عندما تهرب فتاة من المنزل أو عندما كانت خليلة تطرد من أجل فعل شنيع: عندها لا مجال لوليمة أو لعرض مسرحي وعلينا مشاركة السيد والسيدة في قلقهما!.

لكن ما يسعدني بشكل خاص في هذا العمل الجديد هو حصولي على مزيد

من الحرية والحركة، وغالبا ما كنت أستطيع العودة إلى المنزل للاهتمام بشؤون أطفالي. في «الثكنة» أو في «القسم» كان أقل غياب لوقت محدد صعب المنال جداً لأنه في المفوضية كما في الخارج، تم تحديد العمل بشكل نهائي، ولا يمكن بسهولة تعديل المناوبات. أمام المساكن، على العكس، عندما أنتهي من مهمة الحراسة لايكون ثمة شيء آخر أفعله، لذلك ما علي سوى قول كلمة واحدة لزملائي لأتمكن من الغياب لبقية النهار. هذه الميزة غالباً ما كانت تشعرني بالخوف من أن أعود مجدداً إلى «الثكنة». أطفال لم يعد لديهم أم ترعاهم لهم الحق في رؤية والدهم قليلاً، أليس كذلك؟

بالإضافة إلى هذه الميزة ثمة واحدة أخرى. بما أنني لم أكن أشعر جسدياً بالتعب لم يكن لدي هموم كثيرة. لذا كنت أجد دوماً ما أكرس له وقتي. ما أن تسنح لي الفرصة حتى كنت أقرأ من أول سطر حتى آخر سطر الجرائد التي كنّا نستلمها في المسكن. الصحف اليومية الشهيرة كما الجرائد الرديئة، البرقيات كما المقالات. كنت أقضي وقتي في قراءة كل شيء بلا تمييز حتى عندما لم أكن أفهم ما أقرأه. لقد ساعدني ذلك كثيراً: إذ تعلمت على هذا النحو أشياء كثيرة وحروفاً كثيرة كنت أجهلها. اليوم أيضاً ثمة كم من الحروف أجهل كيفية نطقها، لكني أصبحت معتاداً على قراءتها وقادراً على معرفة مغزاها مثلما يحدث عندما نلتقي أحيانا في الشارع بأناس لانستطيع تذكر أسماءهم لكن وجوههم تبدو لنا مألوفة تماما. غير الجرائد كنت أستعير الروايات من كل مكان تقريباً. لكن بعد المقارنة، كنت أفضل قراءة الصحف، فبفضل الأحداث التي تسردها والتنوع الهائل في مفرداتها لا نشعر بالملل ونحن نقرأها. مع أن ذلك كان يتطلب جهداً أكبر بشكل واضح. لذلك عندما كنت أصادف مقاطع لا أفهمها، لا أجد أمامي أي حل سوى معاودة قراءة إحدى الروايات. لكن الأحداث في هذه القصص تجري على نفس الوتيرة. يكفي قراءة مقطع واحد ليحزر المرء كيف ستجري الأمور بعد ذلك. لذلك نقرأها دون مشقة لمجرد الترويح عن النفس. باختصار، إذا لزم الأمر أن ألخص تجربتي، أقول إن الصحف والروايات تكمل بعضها البعض: الأولى تساهم في تفتيح الذهن والثانية في تسلية المرء.

على الرغم من ذلك، كانت للخدمة أمام المساكن بعض المساوئ أيضاً. المشكلة الأولى تكمن في وجبة الطعام. «في الثكنة» أو في «القسم» يقتطعون تلقائياً حساب المطعم من راتبنا. مهما كانت نوعية الطعام الذي يقدمونه نتناول على الأقل طعامنا في ساعة محددة. بالمقابل عندما يطلب منا حراسة أحد المساكن، نكون على الأكثر ثلاثة أو أربعة أشخاص. لذلك لا يكون ممكناً إيجاد شخص يقبل أن يعد الطعام لعدد قليل كهذا، وليس لنا الحق في استخدام مطبخ السكن. إذا كان أولئك السادة يرغبون برجال شرطة، فذلك لأنهم يعرفون أنهم على هذا النحو يضعون بالمجان أناسا في خدمتهم يرتدون لباساً موحداً، لكن لا يعنيهم في شيء أن يعرفوا إذا كان هؤلاء الناس يملكون أو لا معدة مثل سائر البشر. لذلك وقعنا في الحيرة لا ندري ما يجب علينا فعله. إذا أردنا أن نعد الطعام بأنفسنا، يلزم أن نشتري المواعين الضرورية كلها لذلك. والحال هذه نحن مهددون دوماً أن ننتقل إلى مكان آخر ولا نعلم متى بالضبط. ومن ثم إذا كان الناس يطلبوننا للحراسة أمام باب مسكنهم فذلك لكي نقوم بذلك على نحو لائق من أجل المراسم وليس لكي ننشر في كل الأرجاء أطباقاً وقصعات أو لإحداث ضوضاء تصدر عن مواعين الطبخ تماما أمام باب منزلهم. لذلك لم يكن أمامنا من وسيلة أخرى سوى أن نشتري بأنفسنا طعام الإفطار.

لكن ذلك كان مكلفاً للغاية. عندما يتوفر المال لا ثمة شيء أسهل من شراء الطعام: يطلب المرء ما يريد، من لا يعتبر نفسه سعيداً مع قدحين من الخمر وطبقين لذيذين؟ والحال هذه، يجب ألا ننسى أن شخصاً مثلي لا يقبض في نهاية الأمر إلا ستة يونات في الشهر. في واقع الأمر لم يكن ما يهمني أن أتناول طعاماً بسيطاً، لكن ما كنت أجده شاقا بحق هو أن أجد لكل وجبة حلاً، فمجرد التفكير في ذلك كان يولد في الرغبة بالبكاء. كيف يسعني في آن معا أن أقتصد وأنوع الطعام قليلاً؟ لم يكن بوسعي على أية حال أن أتناول باستمرار طلمية الفلفل وأن ألقمها في فمي مثل البط!

المؤسف في الأمر، أنه بما أن كل ما هو لذيذ كان دوماً غالي الثمن، كان يلزم إذا أردت التملص من ذلك أن أقبل في كل مرة الاكتفاء ببعض قطع جافة من الطلمية وقطعة بائتة من اللفت المملح. لكن ذلك أيضا كان مضراً للصحة لذلك كنت أفكر ألا يصل بي الأمر إلى ذلك. وكلما كنت أفكر بالأمر كنت أجد نفسي تعساً وغير قادر على اتخاذ القرار المناسب. انتهى بي الأمر أن أبقى خاوي البطن وأن لا أتناول الطعام في بعض الأيام حتى عندما تكون الشمس قد مالت للغروب منذ زمن!

في المنزل هناك أيضاً ولداي! وكل لقمة كنت أرفضها لنفسي تصبح لقمة زائدة لهم: لا يمكن للمرء أن يتوقف عن حب صغاره! عندما كنت أتناول الطعام في الثكنة، لا يمكنني في حال من الأحوال أن أوفر. لكن في الفترة التي أتحدث لكم عنها كنت حراً في القيام بذلك والتضحية من أجل ولدي. لذلك عوضاً عن تناول ثماني قطع من الطلمية كنت أجبر نفسي على تناول ستة فقط وأشرب بعد ذلك كأسين من الماء القراح لأنهي وجبتي. مع هذا النظام الغذائي يمكن للمرء أن يفهم لماذا لم أكن أستطيع كبح نفسي عن البكاء!

وأقول أنه أثناء ذلك كان السيد الذي كنت أقوم بالحراسة أمام مسكنه يكسب الآلاف والمئات! في الواقع كان يكفي أن يستخبر المرء قليلاً ليعرف راتبه، لكن من المؤكد أنه كان لا يكتفي بهذا المدخول الثابت الوحيد! لو افترضنا كرقم أنه كان يكسب فقط خمسمائة يوان في الشهر، نتساءل بصدق كيف يمكن أن تبدو علائم الثراء عليه هكذا! ثمة خدعة في الأمر وهذه الخدعة هي التالية: عندما يكسب المرء فقط ستة يونات في الشهر، تكون بحق ستة يونات لأنه يستحيل أن يحصل على يوان واحد زيادة في جيبه دون أن يقع ضحية لنظرات الناس وأن يبدؤوا بالنميمة عليه. بالمقابل، عندما يكسب خمسمائة يوان من المؤكد أنه لا يمكنه الاكتفاء بهذا الرقم وكلما كان يملك المال أكثر أعجب الناس به أكثر. قد يبدو هذا الأمر لكم جائراً تماماً، لكن إن صدقتم أم لا هكذا تحدث الأمور في الواقع!

غالباً ما يتم تمجيد الحرية في الصحف والخطابات الشعبية، وعندما نمجد شيئاً فذلك لأنه حتماً غير موجود على أرض الواقع. لذلك لم أكن أنا أعرف ما هي. تحدث الناس كثيراً عنها في مناسبات عدة، وشخصياً لم أرها تقبل في يوم. لكن في المساكن علمت على الأقل ما هو كنهها. فثمة ميزة في الحكم الجمهوري وهي أنّه حتى لو لم يمتع المرء نفسه بالحرية، لا شيء غير ملاحظتها تجعله يقظاً.

على سبيل المثال: في ظل حكم إمبراطورية كينغ، كان كل شيء محدداً في أدق تفاصيله. لا يستطيع أيّ شخص أن يرتدي ثوباً أزرق اللون حتى لو كان على الأرجح واسع الثراء. هذا هو حكم الطغيان! على أية حال وسم مجيء الجمهورية وصول الأغنياء إلى الحرية: يكفي أن يملك المرء المال حتى يستطيع ارتداء الملابس والتبرج أو تناول الطعام على هواه، ولا تجد أيّ شخص بعد ذلك ما يقوله مجدداً حيال ذلك. وكانت النتيجة أنّه للوصول إلى هذه الحرية يلزم تكديس الأموال بكل الطرق المتاحة، ونكون أحراراً في القيام بذلك، لأنّه في ظل الحكم الجمهوري لاثمة رقابة كما الحال عليه في الحكم الإمبراطوري. إذا لم تخدم في يوم أحد المساكن لربما لا تتوصل إلى تصديقي، لكنني أنصحك بالذهاب لتعرف ولو قليلاً كيف تجري الأمور هناك.

في الوقت الراهن يعيش موظف صغير على نحو أفضل من موظف مرموق من الدرجة الأولى كان يعيش في الماضي. كذلك بالنسبة للغذاء يمكن للمرء بفضل سهولة الانصالات حالياً أن يتذوق على هواه أكثر الأطباق ندرة، فيكفي أن يملك المال لذلك. وإذا عافت نفسه أشهى أطباق المطبخ الصيني، ماعليه إلا أن يستبدلها بأطباق وأنواع النبيذ الشرقي. والحال هذه حتى إمبراطور آخر سلالة حاكمة نفسه يمكن على الأرجح ألا يكون قد تذوقها في يوم! كذلك الحال بالنسبة للثياب، الزينة، العروض المسرحية، الخدم وكل ما يمكن أن يحتاجه المرء: يمكنك وأنت في غرفتك أن تستفيد من أفضل الأشياء مجتمعة على وجه البسيطة. السعادة التي يتمتع بها البعض الآن هي السعادة الحقيقية. لكن يفترض القول أيضاً أنه ثمة حرية

أكبر في جمع المال من السابق. لأذكر مثالاً أعرفه حق المعرفة، يمكنني أن أقول لكم أنّ علبة البودرة الصغيرة التي كانت عشيقة ما تستخدمها للتبرج في أحد المساكن تساوي خمسمائة يوان وكانوا يحضرونها من مكان يدعى باريس. أين تقع باريس هذه، أنا أجهل ذلك. لكن كل ما كنت أعرفه أنّ البودرة التي تأتي من هناك كانت تكلف غالياً جداً. لم يحصل جاري لي سي الذي باع في الوقت نفسه ابناً جميلاً إلا على أربعمائة يوان، وهذا يقدم فكرة عن ثمن البودرة. لا خلاف على ذلك، لا بدّ أنها كانت ناعمة للغاية ومعطرة! إنما يكفي حديث حول هذا الموضوع: يمكن أن يتهمني الناس بأنني ثرثار مستفيض وخاصة أنني لا أريد أن أوحي للآخرين بأنني لست من أولئك الذين يؤيدون الحرية! سأضيف مع ذلك بضع كلمات متنقلاً بالحديث إلى وجهة نظر أخرى، بذلك يمكنني أن أقول دوماً كل ما أفكربه متجنباً أن أزعج أولئك الذين يصغون إليّ بأحاديث مبتذلة. عندما كنت أتحدث للتو عن الحرية وعن ثراء الناس الذين يعيشون في مساكنهم، يجب ألا نقع في الخطأ ونظن أنّ أولئك السادة كانوا يقضون وقتهم في رمي المال من النوافذ. إنهم ليسوا بهذا الحمق. صحيح أنّ البودرة التي كانت تستخدمها عشيقاتهم أغلى من ثمن ولد، إنما الخليلات هن الخليلات. لديهن حظ ومواهب لا توجد عند سواهن. فإذا كان هؤلاء السادة يشترون لهن البودرة الغالية، فلأنهم يعلمون من أين يحصلون عليها بسعر زهيد. على هذا النحو، إذا كنت أنت على سبيل المثال شخصاً مهماً، لايمكنني إلا أن استلهم المبادئ الرائجة في هذه المساكن لأقدم لك الكثير من الحيل: كالكهرباء والماء الجاري، الفحم، الهاتف، الورق الصحي، السيارات والأحصنة، العرائش[1]، الأثاث وورق الرسائل، الورود ونباتات الزينة. كل ذلك تحصل عليه دون أن تنفق قرشاً واحداً، وفوق ذلك لا شيء يمنعك من طلب عدد من عناصر الشرطة ليحرسونك بالمجان أيضاً.

هذه أشياء عادية إذا لم تتوصل إلى فهمها فلأنك لم تخلق لتكون واحداً من

---

(١) ممشى مظلل تلتف الورود حول أعمدته.

أولئك السادة. لأقول لك الحقيقة كاملة، يصل هؤلاء السادة خالي الوفاض ويرحلون من جديد وقد اغتنوا، مثل حشرات البق التي نراها في نهاية فصل الشتاء تنبثق خاوية البطن، لكن سرعان ما يضحو مترعا بالدماء. هذه مقارنة فظة قليلا، لكنها تعبر تماما عما أقصده. لا عليك إلا أن تلعب بهاذين اللوحين، لوح الحرية لتجمع المال، ولوح المميزات لتقتصده، عندها يمكن أن تحصل على عشيقة تتبرج بأفضل بودرة باريسية. لا أعلم ما إذا كانت الفكرة قد وصلتكم تماما. لكن لا بأس: بقي عليك أن تفهموا!

لنعُد الآن إلى شؤوني الخاصة. بما أننا كنا نخدم مجاناً أمام المساكن نحو عام، كنا نتوقع في موسم الأعياد وبداية العام الجديد أن يقدموا لنا شيئاً ما، على سبيل المثل وجبة طعام لذيذة. على الأقل يعتبر هذا شيئاً لا بأس به. هه! هل تظنون ذلك: هؤلاء السادة يقبلون الإفلاس من أجل عشيقاتهم، أما نحن، عناصر الشرطة، فكما لو أننا لم نكن موجودين أبدا! هكذا عندما يطلبوننا للعمل في مكان آخر ونطلب من السيد أن يقدم لنا كلمة توصية للسلطات «في الثكنة» علينا نحن أن نعبر له عن عرفان بالجميل لا حد له! هذا بالضبط ما حدث عندما وصل خبر نقلي. بعد أن انتهيت من صرّ بقجتي ذهبت لأودع سيد المنزل بكل احترام. آه! لو رأيتم ملامح الاستعلاء التي كانت ترتسم على وجهه! لقد تصنع بأنه لا يعرفني: لو كنت قد سرقت له شيئاً لكانت معاملته لي أفضل من ذلك! طلبت منه بكل أدب وأنا أتلعثم ببضع جمل أن يقول في حقي كلمة «للثكنة» يوضح فيها أنني قمت بواجبي على أفضل وجه. عندها انفرجت جفناه قليلاً، لكن كان جلياً أنه لم يعرني أدنى اهتمام. لم يبقَ أمامي سوى الانسحاب خاصة وأنه لم يقدم لي حتى أجرة العربة التي كنت بحاجة لها لنقل متاعي. توجب علي أن أحمله على كتفي وأنا ألعن هذه الخدمة العاهرة وهذه الطريقة الغريبة في معاملة الناس!

بما أن عدد الناس ذوي الشأن في الإدارات كما في المساكن يتزايد باستمرار، تم تكوين وحدة شرطة مستقلة من عناصرنا، حيث كان عددنا بالإجمال خمسمائة فرد نقوم بشكل خاص بحراسة الأجساد وتدفع الدولة رواتبنا.

ولنبين تماما أننا كنا نستطيع حماية هؤلاء السادة بشكل فعال، استلم كل واحد منا بندقية من صنع غربي مع عدد كبير من الخرطوش. هذه البنادق الغربية الصنع، أرغب الحديث عن البنادق التي قدموها لنا، لم أكن أحبها إطلاقاً: لقد كانت ثقيلة الوزن، عتيقة ومتخلعة، وكنت أتساءل في قرارة نفسي أين يمكننا أن نجد هذا النوع من البنادق الحربية التي لا يمكن أن تنفع لشيء، إلا لكسر الكتف. بالنسبة للخراطيش لم تكن تخرج أبداً من حزامي، لأنهم لا يسمحون لنا أن نلقمها في البندقية. عند مواجهة صعوبات جسيمة كنا ننتظر دوماً أن يهرب هؤلاء السادة لنركب الحربة في نهاية الأمر.

لكن ذلك لا يعني أبداً أنني كنت أستطيع إهمال هذه البندقية الرديئة وألا أهتم بها. فعلى الرغم من كونها قديمة، كان لزاماً علي أن أقوم بصيانتها في كل يوم، يقتضي الأمر أن نصقلها من الخارج كما من الداخل، بما في ذلك الحربة: في الحقيقة لم نكن نتوصل إلى تلميعها أبداً، لكن ذلك لم يكن سبباً لكي نلبث بلاعمل. ما كان يهم أكثر من النتيجة هو النية في فعل ذلك! كذلك، بالإضافة إلى البندقية كما ذكرت، علينا أن نحمل معنا كما من الأشياء: حزام وغمد الحربة وجعبة الخرطوش. ويجب فرك كل ذلك بعناية إذ لا يجوز أن نتنزه مثل زهوباجيه[1] متحصنين فقط بسيف حاد! بالإضافة لذلك ثمة أيضاً عصابات الساق التي كنا نلبسها في كل الأيام!

لحمل كل هذه العدة وتحميل الكتف بلا انقطاع بثقل يتراوح من سبع إلى

---

(١) واحد من أبطال الرواية الشهيرة «السفر إلى الغرب» وهي شخصية ساخرة كانت عاجزة عن حمل السيف بشكل صحيح نظراً لبدانتها المفرطة.

ثماني ليبرات، كنت أكسب يوانا إضافيا على التمام، بذلك يصبح راتبي سبع يونات: إنه بحق شيء نشكر السماء والأرض عليه! لذلك قمت بالحراسة لمدة تزيد عن ثلاث سنوات انتقلت من مسكن إلى آخر، ومن مقر إلى آخر، مهمتي فقط أن أحيّ في كل مرة هؤلاء السادة الذين كانوا يخرجون أو يدخلون. كان ذلك يضجرني إلى أبعد حد، إذ لا يمكننا القول إننا لم نكن نعمل شيئاً، ولا أن نقول أننا كنا نقوم بحق بعمل ما. لذلك كنت أتأسف على الحراسة في قلب الشارع. على الأقل نجد في الشارع ما نشغل أنفسنا به ونعمل ذهننا من أجله بينما أمام مسكن أو مقر للإدارة لا نقوم البتة بأقل جهد فكري يذكر.

في بعض الحالات، يدفعنا الفتور واللا مبالاة إلى أن نقوم بالحراسة كيفما اتفق: كأن نبقى واقفين نستند إلى البندقية أو أن ننام ونحو نحوطها بأذرعنا، ليس لذلك أية أهمية. هذا النوع من الخدمة الذي لا يحمل في طياته ما يثير الحماسة، كان يثير كآبة الناس. عندما يكون المرء خادماً، يمكن أن يأمل دوما بإيجاد منزل أفضل من ذاك الذي يعمل به. على عكس مهنتنا نحن نعلم تماما أن الأفق مسدود ونشعر من يوم لآخر بثبوط همتنا أكثر فأكثر حتى يصل بنا الأمر الى احتقار ذاتنا.

يقال في أغلب الأحيان أن المرء يكسب وزناً زائداً عندما لايعمل شيئاً وهذا ليس سيئاً. حسن! بالنسبة لنا، لم يكن ذلك صحيحاً، فحتى عندما نقرفص لانصبح بدينين. لأننا كنا نفكر طول النهار بهذه اليونات السبع ونعيد حساباتنا المرة تلو الأخرى، والبؤس يوقع أشد أنواع العذاب بنا. فكيف نسمن مع هذه الظروف؟ إذا أخذت حالتي على سبيل المثال لا الحصر، عندما أصبح ولدي في عمر يسمح له بالذهاب إلى المدرسة، شعرت أنني مرغم على إرساله. لكن ذلك يتطلب مالا وهذا شيء طبيعي لأن الأمور دائماً كانت تجري على هذا النحو. لكن أين يمكن أن أجد هذا المال بحق الأبالسة؟ يمكن لموظف مرموق أن يستفيد من كم من المميزات دون أن يدفع قرشاً واحداً، لكن شرطياً بسيطاً لا يجد حتى مكاناً يستطيع فيه أطفاله أن ينالوا العلم مجاناً. في المدرسة الخاصة التقليدية، هناك نفقات الدراسة، الهدايا

للأعياد، الكتب والحبر والريشة، وكل ذلك يلزم دفع ثمنه. في المدرسة التقليدية القديمة، هناك اللباس الرسمي، الأدوات من أجل العمل اليدوي ومختلف أنواع الدفاتر، في النهاية يكلف المجموع مالا أكثر من المدرسة التقليدية القديمة. بالإضافة إلى أنه في المنزل، عندما يشعر الأطفال بالجوع يمكنهم دوما أن يقطعوا لأنفسهم كسرة من الخبز. بينما في المدرسة، يحتاج ولدي إلى المال لشراء الحلوى، حتى لو قبلت إرساله مع قطعةمن الخبز فقط، ليس مؤكداً أنه سيقبل بذلك. يمكن لغلام أن يخجل بسهولة أكثر من شخص بالغ.

لم أكن أعلم بحق ماذا أفعل. كيف يمكن لرجل في عمري وممتلئ بالنشاط أن يقبل رؤية أولاده يتسكعون في المنزل؟ كما كنت أقول لنفسي ليس لأنه لم يعد لدي أمل في هذه الحياة، يجب على أولادي أن يحكم عليهم بمصير أكثر مدعاة للشفقة من مصيري. خلال هذا الوقت، كنت أرى أولئك السادة والآنسات الصغار الذين كانوا يغادرون مسكنهم للذهاب الى المدرسة، ثمة دوما سيارة لاصطحابهم وإعادتهم، أمام الباب كانت جارية عجوز أو خادمةشابة تأتي في كل مرة لتحمل حقيبتهم وتأخذهم بالأحضان، ويداها ممتلئتان بالبرتقال والتفاح والألعاب الجديدة. أمام هذه الحالات من عدم المساواة بين أطفال الفقراء وأطفال الأغنياء يصعب علينا أن نعتقد أن هؤلاء كما أولئك سيكونون في المستقبل القريب مواطنين في البلد نفسه. كنت أشعر بحق في الرغبة بالاستقالة والتخلي عن كل شيء، قائلاً في نفسي أنه مهما فعلت يفضل أن أصبح خادماً: سأكسب على هذا النحو عدة يونات زيادة أستطيع بها إرسال ولدي إلى المدرسة. لكن الأمر لا يتعدى كون أنّ المرء عندما يختار طريقاً، يكون فيما بعد طريقه مدى الحياة لا يمكن له أن يخرج عن مساره. في نهاية كل هذه السنين من الخدمة، يبقى عملي، مهما فعلت، على ما هو عليه، لأنّ طريقي كان مرسوماً: في سلك الشرطة لديّ أصدقاء وكانت الفرصة تسنح لي أن أتحدث وأضحك معهم. هناك أيضاً اكتسبت بعض الخبرة. حتى لو لم يكن العمل ممتعاً لا يمكنني أبداً أن أتخلى عنه بقسوة هكذا.

مرة أخرى يقدر الرجل الزهو أكثر من المال. وعندما يعتاد المرء على كونه موظفاً لا ثمة شيء آخر يفعله، لأن الأمر سيكون بمثابة انحطاط إذا ما أصبح خادماً حتى لو كسب مالا أكثر. هذا سخيف، سخيف بالفعل لكن الإنسان خلق على هذا النحو!

عندما تحدثت عن الأمر مع زملائي، عارض الجميع فكرتي. قال البعض: الحياة التي نعيشها جميلة جداً فلماذا نغير مهنتنا؟ الآخرون كانوا يؤكدون أن الجبل الذي يكون قريباً منا يبدو لنا أكثر علوا من ذاك الذي نقف عليه. لكن عندما نكون فقراء نبقى كذلك، باختصار، من الأفضل الاستسلام للأمر الواقع. ثمة كذلك من كان يؤكد أنه بين المتطوعين الجدد كنا نرى حتى حاملي شهادات التعليم الثانوي، لذلك يمكن أن نعتبر أنفسنا سعداء في أن نكون هنا حيث نحن. حتى الضباط كانوا يقولون لي ذلك: «الحياة تقدر من تقدره، لكن على الأقل أنت موظف وعندما يكون المرء موهوباً مثلك، سينال ترقية عاجلاً أم آجلاً». أمام هذا الإجماع بالرأي، تزعزع قراري بشكل جدي، لأن شعوراً انتابني أنني إذا ما تشبثت برأيي سأبدو وكأنني استخف بالرأي الذي قدمه لي زملائي. في نهاية المطاف سوف تستمر حياتي على الوتيرة ذاتها! أما بالنسبة لإرسال أطفالي إلى المدرسة فلم تعد مسألة أفكر بها.

مع ذلك جاءتني فرصة ذهبية للتخلص من هذا الوضع بعد فترة. طالب شخص يدعى فانغ، كان يشغل مناصب عليا في الدولة، باثني عشر حارساً دفعة واحدة: أربعة لحراسة بابه، أربعة كسعاة والباقي كمرافقة. هؤلاء الأربعة الأخيرون يجب عليهم معرفة ركوب الخيل. والحال هذه، بما أنه في زمن إمبراطورية كينغ، كان كل موظف مرموق يجلس في كرسي يحمله الرجال أو في عربة يسبقها رجال على أحصنتهم ويتبعها مرافقة، أصرت إذن هذه الشخصية الهامة، ألا وهو فانغ، أن تعيد هذه العادة التي كانت تحيي أيام العظمة الإمبراطورية جاعلاً أربعة من الحراس المسلحين يتبعون عربته.

بيد أنه كان من الصعب العثور بسهولة على رجال يعرفون امتطاء الخيل. تم النداء بقرع الطبل على حراس الأجساد، ولم يعثروا إلا على ثلاثة. ثلاثة! لم يكن ذلك جيداً. وأخذ الضباط يحكون رؤوسهم متسائلين عن كيفية التصرف. لذلك اغتنمت على الفور هذه النعمة غير المتوقعة قائلا في نفسي: بما أنه هناك أحصنة، فلا بد أن تلقى مالا لقاء تغذيتها. فإذا كنت أرغب أن يتعلم أولادي، ها هي فرصة يمكن المجازفة بها، بوساطة اليوان الذي يمكن أن أخذه لتغذية الحصان، يمكن لأولادي على الأقل الذهاب إلى المدرسة التقليدية. لم يكن ذلك في ذاته حساباً دقيقاً للغاية، لكن بقيامي بذلك كنت أجازف بحياتي، لأنني لم أكن أعلم البتة كيفية ركوب الخيل. مع ذلك تطوعت لذلك وعندما سألني الضابط الذي توجهت إليه عما إذا كنت أعرف أو لا ركوب الخيل، لم أجب بنعم ولا بكلا. ونظرا لأنه لم يجد شخصاً آخر لم يحاول الضابط نفسه أن يستعلم أكثر عن ذلك.

لا مستحيل بالنسبة للشجعان. في المرة الأولى التي وجدت فيها نفسي أمام حصان كنت قد حسبت حسابا لكل شيء: إما كنت سأقضي نحبي سقوطاً عن ظهر الحصان، وفي هذه الحالة سيأخذون أولادي إلى الميتم وهو بنظري لم يكن أسوأ حالا من بقائهم في المنزل. أو لا أموت، عندها يستطيعون القيام بدراستهم. النتيجة، أنني لم أشعر بالرهبة من الحصان، وإنما هو الذي خاف مني كما يفترض الحال. فضلا عن ذلك، كنت أحظى بساقين رياضيتين وبسرعة بديهة، مما ساعدني بعد أن كنت أمسك الرسن للثلاثة الآخرين الذين يعرفون ركوب الخيل، في تعلمي أشياء لا بأس بها عن فن الفروسية. بعد عثوري على حصان هادئ قمت عند ذاك بأولى محاولاتي. كانت يداي رطبتان تماما، لكن علي القول أنني مع ذلك انتصرت على خوفي. في الأيام الأولى كنت أعاني الأمرين لأن جسدي تحول إلى حطام وخرجت الدماء من مؤخرتي. كنت عند ذاك أشد على أسناني، وعندما شفي الجرح، شعرت بمزيد من الشجاعة، حتى أنني اكتشفت السعادة التي تغمر المرء عند ركوب الخيل. عندما كنت أندفع بحصاني بوثبات كبيرة توازي سرعة السيارة، كنت أستطيع على الأقل الادعاء بأنني روضت حصانا.

لقد روضت مطيتي لكنني كنت قد جازفت عبثا بحياتي، لأنني لم أكن الشخص الذي يقبض المال لقاء شراء الكلأ. بما أن سيادته كان يملك أكثر من عشرة أحصنة، اقتضى الأمر وجود أحد ما للاهتمام بها بشكل خاص. لذلك لم تكن لي صلة بها. كنت سأشارف السقوط مريضاً فريسة الغيظ، لكنني استعدت الأمل بعد فترة بسيطة. في واقع الأمر كانت مهام سيادته هامة جداً وعديدة جداً حتى أنه لم يكن لديه الوقت للعودة إلى المنزل لتناول الطعام. لذلك عندما كنا نذهب معه نبقى طول النهار. هو، كما هو معلوم، كان يدعى إلى الغداء في كل مكان. أما نحن؟ تناقشنا نحن الأربعة في الأمر وقررنا التفاوض معه بشأن ذلك، بطريقة نحصل فيها نحن أيضاً على ما نأكله أنى يتناول هو طعامه. كان سيادته رجلا عطوفا يضع عشق الأحصنة وحب المظاهر في كفةميزان واحدة مع بعض الاهتمام تجاه خدمه. لذلك وافق فوراً على اقتراحنا. وعليه يعتبر هذا ميزة مهمة. يمكننا بكل بساطة توفير نصف المال الذي كنا نصرفه كل شهر لشراء الطعام. كنت مفتوناً بذلك!

كان سيادته كما أسلفت القول يحب المظاهر كثيراً. لذلك عندما تناقشنا معه حول قضية الغداء، استغل ذلك ليتفحصنا بدقة لبعض الوقت، وعندما انتهى هز رأسه وهو يتمتم: «هذا لا ينفع أبداً!» ظننت عند ذاك أنه يريد القول أننا نحن من لم يكن كما يحب ويشتهي. بيد أن الأمر لم يكن كذلك إطلاقاً. طلب على الفور شيئاً يكتب عليه ثم حرر رسالة موجزة أعطاها لنا قائلاً: «اذهب لرؤية قائدك وأعطه هذه الورقة، وليفعل ما أمرته به خلال ثلاثة أيام». أخذت الرسالة وتبين لنا عند قراءتها أنه يطلب في الواقع من القائد إعطاءنا بذلة أخرى: تلك التي كنا نرتديها عادة كانت من القماش القطني وسيادته يرعب أن نرتدي بذلة من الصوف مع شرائط مذهبة في كل مكان، على أطراف الأكمام وعلى طول السروال وعلى القبعة. ويرغب كذلك استبدال أحذيتنا العادية بجزمات مع واقيات للركب، وسلاحنا بغدارة بالإضافة إلى مسدس لكل واحد منا. عند قراءة هذه المطالب كنا أول من وجدها في غير موضعها كلية، ففي الثكنة يحق فقط للضباط من الرتب العليا ارتداء بذلات من الصوف مع شرائط مذهبة. وهو كان يرغب أن نرتدي نحن

الذين لم نكن سوى مجرد عناصر من الشرطة مثلها أيضاً! هذا غير منطقي! بالطبع لم يكن وارداً أن نعود إلى سيادته ونحاول إعادة الرسالة إليه. لكن في الوقت ذاته كان الخوف يعترينا لمجرد فكرة ذهابنا لرؤية القائد. ذاك الأخير لم يكن ليجرؤ على معارضة رغبات سيادته، لكنه كان قادراً تماماً على إنزال غضبه كله علينا نحن الأربعة!

على ماذا تراهنون؟ حسن. قرأ القائد الرسالة دون أن يبدو عليه أدنى علامات الغضب ونفّذ تماماً ما كان يطلبه الآخر منه. عليكم أن تصدقوا عندما أقول لكم أنّ سيادته كان رجلاً نافذاً! على أية حال كنا نحن الأربعة نشعر بالزهو حيال مظهرنا، ببذلاتنا من الصوف المندوف وشرائطنا الذهبية الجديدة تماماً، جزماتنا من الجلد الأسود بواقيات للركب، مهمازنا اللامع، الغدارة على الظهر والمسدس على الجانب مع راية كبيرة برتقالية اللون تنسدل من الغمد! يمكننا القول بحق أننا نحن الأربعة قداستأثرنا بكامل النفوذ الذي يمكن لرجال الشرطة أن يحصلوا عليه في المدينة. عندما كنا نمر في الطريق، كان الحراس الذين يقومون بنوباتهم يحيوننا كما لو أننا من كبار الموظفين!

منذ العهد الذي كنت فيه لصّاقاً للورق، عندما كنت أحضر تماثيل تخرج قليلاً عن المألوف، كنت أصنع دائماً حصاناً رمادي اللون مرقط الشعر. وها أنا الآن لا أرتدي بذلة رائعة فحسب، ولكني أستطيع دوماً اختيار حصان مرقط رمادي اللون من الإسطبل، متقلب المزاج جداً إلى درجة أنه كان يغضب فجأة ما أن يلمح أحداً بقربه. فإذا اخترت هذا الحصان فلأنني بالتحديد كنت أصنع جياداً تشبهه، وحان الوقت لأمتطي واحداً حقيقياً! لقد كان بحق حصاناً رائعاً! لم يكن ركوبه مريحاً تماماً لكنه عندما كان يأخذ بالعدو كان مظهره يبدو جميلاً بحق وهو يحني رأسه مع قليل من الزبد الأبيض في زاوية فمه، عُرفه يتطاير بفعل الهواء مثل سنابل القمح في فصل الربيع. وتنتصب أذناه مثل ثمرتي كرنيب صغيرتين، ما عليّ سوى أن أضع قدمي في الركاب حتى يبدأ العدو! لم أشعر في حياتي بمثل هذا الرضى،

إنما عليّ الإقرار بأنني كنت أشعر عند امتطائي هذا الجواد الكبير الرمادي المرقط بالكثير من الفخر والسعادة!

لأول مرة في حياتنا كان العمل يسعدنا: يلزم القول أنّه مع لباس كهذا وأحصنة كهذه لن نتذمر إلا على مضض. للأسف، لم نرتد لباسنا الجديد لأكثر من ثلاثة أشهر حتى كان سيادته قد أُقيل من منصبه! حتى أنّه تم حلّ وحدة حراس الأجساد أيضاً وعدت شرطياً من الدرجة الثالثة.

-١٣-

لماذا تم حلّ الوحدة التي كنا جزءاً منها؟ أجهل ذلك. كل ما أعرفه أنني نقلت إلى المكتب المركزي وأنني تلقيت ميدالية من البرونز المغلف كانت على ما يبدو تعويضاً عن خدماتي السابقة في المقرات الخاصة. في وظيفتي الجديدة كلفت على التتابع بسجلات الأحوال المدنية ودفاتر ضرائب التجار ثم بدورة الحراسة أمام الباب الرئيسي وأخيراً بحراسة مخزن البذلات. في نهاية عامين أو ثلاث كنت أعلم تقريباً كل ما يمكن عمله داخل مكتب ما. فإذا أخذنا بالحسبان الخبرة التي كنت قد حصلت عليها سابقاً، تصبح جدارتي عالية تقريباً، إذ لم أعد أجهل أي شيء يلزم على شرطي أن يتقنه سواء في الخدمة الخارجية أو في الإدارة. فيما يتعلق بعمل الشرطة كنت محترفاً بحق. لولا أنّ ذلك اقتضى مني الانتظار حتى هذا الوقت وتمضية أكثر من عشر سنوات في الخدمة لأترقى إلى شرطي من الدرجة الأولى براتب شهري مقداره تسعة يونات!

يظن الناس على الأرجح أنّ رجال الشرطة لا يتواجدون إلا في الطريق وأنهم مجرد فتيان يتدخلون فيما لا يعنيهم. في الواقع، ثمة مجموعة منا لا نراها وهي تعمل في المكاتب والمفوضيات. إذا جرى في يوم ما استعراض عام للشرطة فسوف ترون أشخاصاً عجيبين جداً منهم: الأحدب والأدرد والكسيح والأحسر. كلهم مشوهون تقريباً. هذه الكائنات الغريبة لا تشكل نخبة رجال الشرطة، إذ ثمة أيضاً

رجال أكفاء محنكون يعرفون القراءة والكتابة. هؤلاء من بيدهم كل الوثائق الرسمية والملفات، ويعرفون كل الحيل لتسوية قضية ما. فإذا لم يكونوا سيحدث اضطراب بين رجال الشرطة في الطريق. مع ذلك لا تتم مكافأة هؤلاء الرجال أبداً. إنهم يمضون أوقاتهم في معالجة قضايا الآخرين بينما هم شخصياً لا يملكون بصيص أمل في المستقبل ولا أن ينالوا فرصة في الحياة ليلفتوا الأنظار إليهم أو حتى يقدّروا أنفسهم حق قدرها. لقد انتظروا عبثاً طول خدمتهم، وعندما يصبحون مسنين جداً على الخروج من هذا السجن يجدون أنهم دوماً رجال من الدرجة الأولى ولا يزيد راتبهم يواناً واحداً حتى نهاية خدمتهم.

كل مرة ترى في الطريق رجالاً يرتدون ثوباً من القطن الرمادي الكامل وينتعلون دوماً أحذية رجال شرطة عاديين، وهم يجرون أقدامهم كما لو أنهم لايملكون القوة لرفعها، يمكن أن تكون واثقاً تماماً أنهم ينتمون إلى الفئة التي أتيت على ذكرها. يحصل أحياناً أن يذهبوا هم أيضاً لاحتساء الشراب في خانة وهم يقرضون فستق العبيد. إنهم يبتلعون عرقَهم الرديء بأدب تام وهم يطلقون التنهيدات بين جرعة وأخرى. لقد شاب شعرهم منذ زمن لكنهم يحلقون ذقونهم جداً حتى يبدو الأمر أنهم خصيان. رجال صارمون لطفاء ويعرفون تماماً سر مهنتهم، لكن الحقيقة هي أنهم حتى خارج أوقات ساعات الخدمة لا يملكون سوى هذا الحذاء العسكري الفظيع لارتدائه!

من كثرة عملي مع كل هؤلاء الرجال، تعلمت كماً من الأشياء. لكن في الوقت ذاته كان خوف يعتريني أن أنتهي مثلهم، لأنّ كل التقدير الذي يمكن أن نشعره حيالهم كان لا يمنع أنهم كانوا يثيرون الشفقة إلى أبعد حد! عندما كنت أراهم، كان قلبي ينقبض في غالب الأحيان حتى لا أتمكن من التفوه بكلمة لفترة لابأس بها. صحيح أنني كنت أكثر شباباً منهم وبلا ريب أكثر ذكاء، لكن هل لديّ أمل أكثر منهم للتخلص مما هم فيه؟ وعندما أقول أنني أكثر شباباً منهم أكون سلفاً قد بلغت السادسة والثلاثين من عمري.

مع ذلك كان لهذه السنوات التي قضيتها في المفوضية ميزة أن أعيش هانئاً تماماً. مع أنه في كل السنوات في ذلك العهد سواء في الربيع أو في الخريف، كنا واثقين من أنّ الحرب وشيكة الوقوع. لن أحدثكم عمّا كان الناس يعانون منه في ذلك الحين، سأقول فقط أنّ رجال الشرطة شاهدوا صنوفاً من العذاب على اختلاف أنواعها. ما أن نشبت الحرب حتى عاد الجنود إلى إثارة الرعب مثل إله الجحيم نفسه، ولم يعد بيد رجال الشرطة إلا التذلل! كانت الشرطة هي التي تتكفل بجميع المصادرات سواء المتعلقة بالغذاء، السيارات، الأحصنة، الرجال أو المال. ولا يتم المسامحة بأقل مهلة للتسليم. لذلك كان الجنود يطالبون بين ليلة وضحاها بعشرة آلاف ليبرة من الطلمية، وعلى عناصر الشرطة أن يذهبوا في الحال إلى كل تجار المعكرونة ثم إلى الأمكنة حيث يتم تصنيع حلوى الطلمية لتجميع الكمية المطلوبة. وعندما يحصلون عليها، يلزم أيضاً إجبار الكنّاسين في الشارع على حملها إلى معسكر الجنود، ولن أذكر أبداً عددالصفعات التي كانوا ينالونها عند عودتهم!

لو كان الأمر يتوقف عند اعتبارنا خدماً لدى هؤلاء السادة الجنود لهان الأمر. لكن الأمر يتجاوز ذلك إلى اعتقادهم أنّ كل شيء مسموح لهم. في كل مكان ثمة شرطة فيه، كانوا لا يكفون عن إثارة الفوضى مما كان يثير رجال الشرطة إلى أبعد حد لأنهم كانوا لا يعرفون البتة هل عليهم التدخل أم لا. أفهم إمكانية وجود رجال أغبياء على الأرض، لكن غباء الجنود كان شيئاً لم أتوصل قط إلى فهمه. من أجل لحظة من المجد كانوا مستعدين لكل أنواع الحماقات! لا يهمهم أن يفقدوا رشدهم شريطة أن لا يتحملوا تبعة ذلك بأنفسهم. وهذا كان شيئاً لا يلاحظونه، حتى في أي مكان في العالم لا تجدون رجالاً حمقى على شاكلتهم!

لنأخذ على سبيل المثال ابن عمي. لقد قضى عشر سنوات في الجيش حتى أنّه كان ملازماً أول في السنوات الأخيرة. وبالطبع ثمة أشياء كان عليه إدراكها. حسن! إنّه لم يفعل! في السنة التي بدأ النزاع فيها أرجع عشرة من الأسرى إلى معسكره. كان يمشي على رأس الرتل سعيداً جداً، معتبراً نفسه إمبراطوراً. كان

الجنود تحت إمرته يتساءلون لماذا لم يتم البدء بتجريد أسلحة الأسرى، لكنه لم يكن يرى في ذلك أمراً مناسباً وتفاخر بذلك بكل ثقة. في منتصف الطريق انطلق عيار ناري من الخلف وألقى نفسه على الفور جثة هامدة على قارعة الطريق. لقد كان ابن عمي ولا يمكنني بالطبع تمني الموت له، لولا أنه أمام حماقة كهذه كنت غير قادر على حمل الضغينة تجاه من قتله. يدلكم على أية حال هذا المثال إلى أي حد كان الجنود رجالاً لا يطاقون. إذا طُلب منهم ألا يصدموا الجدار بسيارتهم، حسن! تكون على ثقة أنهم سيرمون بأنفسهم عليه مع احتمال أن يقتلوا أنفسهم. من المستحيل أن ينصتوا إليك!

على هذا النحو، كانت الميزة الوحيدة التي استفدت منها خلال هذه السوات هي الهروب من المخاطر ومن أنواع الإذلال التي كنا نصادفها في زمن الحرب. بالطبع، كان ثمن الأرز والفحم يرتفع في زمن الحرب وكان رجال الشرطة يعانون من ذلك مثل الآخرين. لكن كان يتوجب عليّ حتماً أن اعتبر نفسي سعيداً لأنني كنت أستطيع البقاء في المكتب هادئاً ولست ملزماً بالخروج لمواجهة الجنود. مع ذلك كله، كنت أخشى البقاء في المكتب طول حياتي وألا أجد الفرصة اللائقة للانعتاق منه. لكي يترقى المرء عليه أن يجد دعماً أو عوضاً عن ذلك عليه أن يكون قادراً على الذهاب الى الخارج لمباشرة أعمال الاعتقالات والتحقيقات. والحال هذه لم يكن لي من يدعمني ولا حتى أملك الفرصة للعودة إلى الشارع. في هذه الشروط، كيف يمكن لي أن أنال ترقية؟ كلما كنت أفكر بالمستقبل كانت تزداد همومي.

-١٤-

في السنة التي بلغت فيها الأربعين من عمري، ابتسم لي القدر أخيراً فلقد عُينت مفتشاً! كان يمكنني أن أحسب سنوات القدِم وكل الألم الذي عانيت منه، ومقارنة ذلك مع ما يجنيه مفتش، لكن ما الفائدة؟ كل ما كان يهمني هو فقط الشعور بأنني حصلت أخيراً على فرصتي! يمكنُ لولد التقط لعبة قديمة من الطريق أن

يلعب بها طويلاً! ذلك يكفيه كي يكون سعيداً. الأمر نفسه يحصل مع البالغين، لأنّه دون ذلك تصبح الحياة مستحيلة. لكن إذا تفحصنا الأمر عن قرب كانت الأمور أبعد من أن تظهر حسنة هكذا. لقد تمت ترقيتي، لكن الحق يقال، لا ينال المفتش إلا بضع يونات زيادة عن الشرطي وهذه الزيادة تعتبر زهيدة مقارنة بالمسؤوليات الضخمة التي ستقع على كاهلي من الآن فصاعداً!

يتوجب على المفتش في مواجهة رؤسائه ألا يوضح فكرته مطلقاً إلا إذا طبق الأصول الواجبة، وعليه في مواجهة مرؤوسيه، خاصة الزملاء القدماء، أن يبرهن عن حدة ذكائه ومحبته في آن معاً. في المكتب ثمة تقارير عليه إتمامها، وفي الخارج أعمال عليه تسويتها دون ضعف أو قسوة. بالإجمال، هذا أكثر صعوبة من أن يكون المرء والياً على مقاطعة.

في الواقع، يمكن القول أنّ والياً يعتبر إمبراطوراً حيث هو بينما لا يتمتع المفتش بالاعتبار ذاته: ليس عليه معالجة القضايا بجدية فحسب، إنما ثمة أعمال أخرى عليه تصريفها كيفما اتفق، وفي الحالتين يكفي أن ينسى أمراً بسيطاً حتى يقع في المشاكل. وفي هذه الحالة عندما يقع المفتش في ورطة يكون وضعه سيئاً فعلاً. فكما أنّه من الصعب أن ينال المرء ترقية، يكون من السهل تنزيل رتبته. وعندما يكون المرء مفتشاً ويعود شرطياً بسيطاً في مكان ما. لا يكون موضع ترحيب، إذ لا يعامله زملاؤه بود! أنت من كنت مفتشاً... وتنهال عليه التعليقات على قدم وساق. أما بالنسبة للرؤساء، عندما يرون أنّك عنيد، يتقصدون أن يخلقوا لك المتاعب، فإذا كان ثمة شيء لا يمكن للمرء أن يقبله تكون الطامة الكبرى. في الواقع لا يعود في وسعك شيئاً، ومن المستحسن أن يحزم المرء أمتعته عندما يتم تنزيل رتبته وألا يعود لتناول خبزه من هذه المهنة بعد ذلك. لكن ما جرى أنني أصبحت مفتشاً وأنا في الأربعين فإذا لزم الأمر بحق أن أحزم حقائبي، لاأعرف أبداً كيف سأستطيع تدبر أمري.

لو كنت قد فطنت إلى هذا كله في ذلك الوقت لكان شعري قد شاب على الفور. لحسن الحظ، لم أفكر في ذلك البتة. مأخوذاً بفرحة ترقيتي، رفضت أن أرى فيها إلا الجوانب الإيجابية. حتى أنني قلت لنفسي إنني طالما ترقيت إلى رتبة مفتش في الأربعين، ثم إلى رتبة مفوض، لنقل في الخمسين من عمري، فهذا يثبت أنني لم أهدر وقتي هباء في الخدمة. بالنسبة لشخص مثلي لم ينل قسطه الكافي من التعليم وليس لديه الكثير من الدعم، الوصول إلى رتبة مفوض ليس بالأمر العادي على أية حال! عند هذه الفكرة، أخذت أبذر المال دون حساب وكنت سأفعل أي شيء للمحافظة على هذا المركز الذي كنت أحتضنه كما يخفي المرء كنزاً حقيقياً.

غير أن ذلك لم يمنع من أن يغزو الشعر الأبيض رأسي بعد سنتين من عملي كمفتش، ليس لأنني فكرت في الأمور بتفاصيلها كافة، بل لأن شغلي الشاغل في كل الأيام كان الخوف من تسوية قضية ما بشكل سيء مما يعرضني للعقوبة. خلال النهار، كنت أعمل مبتسماً وبمزاج جيد، لكن أثناء الليل كنت أعاني الأرق بشكل متواصل: فجأة تخطر في بالي فكرة ما ثم أبدو كمن تملكه الرعب، فأقلب المشكلة من وجوهها كافة، ولعدم قدرتي على إيجاد الحل لا يعود بإمكاني العودة للنوم.

خارجاً عن العمل في المكتب، كنت قلقاً أيضاً على مصير أولادي. لقد بلغ ولدي العشرين من عمره والفتاة الثامنة عشرة. حصل ولدي فوهيه، على قليل من التعليم في عدة مدارس: المدرسة التقليدية، مدرسة الأبناء الفقراء، والمدرسة العامة، لكن ذلك لم يتعد الأيام في كل مرة. بالنسبة للحروف، ربما كان قادراً بالإجمال على قراءة المجلد الثاني من الدفتر الصيني للمرحلة الإبتدائية. بالمقابل، كان قادراً على سرد مسرحيات تتعارض مع الذوق السليم، بعد أن حفظ كل تلك التي كانت رائجة في المدارس الثلاث. فلو كانت تلك المادة مقررة في المنهاج فسوف يحصل بكل تأكيد على أعلى علامة فيها. بالطبع، بما أنه كان محروماً من والدته منذ نعومة أظفاره وأنني كنت خارج المنزل طول النهار، لم يكن يفعل إلا ما في رأسه. لم أكن لأحقد عليه لا هو ولا أحد غيره. كنت أدين القدر فقط الذي لم

يسمح لي بأن أكون غنياً وأن أقدم له تعليماً جيداً. لا يمكن القول أنني تصرفت بشكل سيء مع أولادي لأنني لم أتزوج مرة ثانية فلا يمكنهم أن يلومونني لأنني فرضت عليهم زوجة أب. أما بالنسبة لكوني لم أنل حظاً طيباً في حياتي وأنني لم أستطع أن أكون سوى رجل شرطة، فليس هذا قطعاً ذنبي: لا يكون المرء أبداً أقوى من إرادة السماء.

كان فوهيه من الناحية الجسدية طويل القامة لذلك كان يأكل قدر أربعة أشخاص، أحيانا بعد أن كان يأكل ثلاث قصعات كبيرة من المعكرونة مع عصيدة السمسم، لم يكن يقول دوما بأنه قد شبع تماما! على هذا النظام لم يكن ما يلزمه والدان مثلي وإنما ثلاثة! ليس لدي المال لإرساله إلى المدرسة الثانوية. على أية حال بالصفات التي كان يتحلى بها، لم يكن ليقبل أبداً. لذلك لزم الأمر إيجاد عمل له. لكن ماذا باستطاعته أن يعمل؟ كنت أقول لنفسي منذ زمن بعيد أن يكون المرء رجل شرطة مثل أن يعمل ابني في جر المركبات. يكفي عمل في الشرطة! لقد قضيت فيه عمري كله وأجد من العبث أن أجعل منه وظيفة متوارثة! عندما بلغ فوهيه الثانية أو الثالثة عشرة من عمره، طلبت منه أن يتعلم مهنة ما، لكنه احتج بقوة حتى لم يعد بإمكاني ثنيه عن ذلك. أمام رفضه قلت في نفسي أنني سأعاود فتح الحديث معه بعد سنتين. إزاء طفل فقد أمه لا يمكننا إلا أن نشعر بحنان من نوع خاص.

عندما أصبح عمره خمسة عشر عاماً وجدت له مكاناً كمتمرن. لم يرفض الذهاب، لكن ما أن كنت أدير ظهري حتى كان يعود إلى المنزل راكضاً. وفي كل مرة كنت اصطحبه كان الشيء ذاته يحدث: يعود خلسة. الأفضل في مثل هذه الشروط الانتظار أن يصبح راشداً أكثر، ربما عند ذلك سيغير رأيه ويوافق على الأمر. للأسف بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره بقي على حاله لا يفعل شيئاً عدا الأكل والشرب. كان تنبلاً حقيقياً. أخيراً عندما أجبرته على الرد على سؤالي: «ماذا تريد أن تكون في نهاية الأمر؟ حدثني»! أخفض رأسه وقال أنه يرغب أن يكون رجل شرطة! لقد كان يجد في ارتداء لباس رسمي والتنزه في الطرقات وسيلة

مريحة للترويح عن نفسه ويجني المال في الوقت ذاته. هذا لا يقارن مع حياة المتمرن المحجوز دوماً داخل أربعة جدران ضمن ورشة. لم أقل شيئاً لكني شعرت بانقباض في قلبي. قمت بتوصية من أجله وتطوع في سلك الشرطة. إن أعجبني هذا الأمر أم لا، هذا شيء آخر لكنه على الأقل حصل على العمل وهذا أفضل بكثير من أن يستمر بالعيش على نفقتي: الولد سر أبيه هذا أوان ذكر ذلك. ليكن على ثقة أيضاً أنه لن يبلغ من الأمر أبعد مما بلغته أنا نفسي. على الأقل لقد ترقيت مفتشاً في الأربعين من عمري، بينما هو في الأربعين... إذا لم يتم طرده قبل ذلك سيكون الأمر لا بأس به! لا يجب أن أخدع نفسي، أنا لم أتزوج مرة ثانية لأنني كنت قادراً على التخلي عن ذلك. بينما هو يقتضي الأمر تزويجه بعد فترة. من أين سينفق على عائلته؟ عندما أراه يسلك هذا الطريق أشعر بالغم الشديد.

أما بالنسبة لابنتي التي شارفت على الثامنة أو التاسعة عشرة، لا يمكنها أن تبقى عندي إلى الأبد؟ الأفضل حتماً أن أتخلص منها بتزويجها بأسرع وقت؟ لكن إلى من؟ إلى رجل شرطة أيضاً؟ لن أقوم على أية حال بتأسيس سلالة من رجال الشرطة! لكن في الواقع لا يمكنني عمل شيء آخر. لم تكن جميلة جداً ولم تتلقَ أدنى درجة من التعليم لأنها فقدت أمها وهي صغيرة جداً. إنها تعرف فقط بضعة حروف، وكل ما يمكنني أن أقدمه لها كجهاز هو ثوبين من القطن المصادر. الصفة الوحيدة التي كانت تتمتع بها في نهاية الأمر أنها لا تتذمر من الألم. ابنة رجل شرطة لا يمكن لها إلا الزواج من رجل شرطة، هذا مكتوب ولا يمكننا فعل شيء حيال ذلك.

خضعت إذن لأمر تزويجها قائلاً في نفسي أنّه ما أن أتخلص منها حتى يكون بإمكاني على الأقل أن أحظى بفترة من السكينة. لست قاسي القلب لكنكم تعلمون تماماً أنني لو أبقيتها عندي إلى ما بعد العشرين، سأجازف ببقائها هناك إلى الأبد. فضلاً عن ذلك أظن أنني كنت دوماً أتصرف بشكل لائق مع الناس، لكنهم لم

يعاملونني بالمثل. لا أريد أن أكرر مراراً الشكاوى نفسها، إلا أنني أتمسك بقول الأشياء كما حدثت ليستطيع كل الناس الحكم على ذلك.

في يوم زفافها شعرت برغبة في الجلوس حيث أنا لأذرف الدموع. لكنني لم أبكِ: منذ زمن بعيد لم أبكِ وإنما تمتلئ عيوني بالدموع ولا تتمكن من الانهمار.

-١٥-

تزوجت ابنتي وبدأ ابني العمل فقلت في نفسي أنه لم يعد ثمة شيء بعد الآن يمنعني من الهرب. فإذا سنحت لي الفرصة سأكون مستعداً للتخلي دون تردد عن وظيفة المفتش، لمجرد اكتشاف ولو قليلاً ما كان يجري في الخارج. لا يمكنني على أية حال سواء أكنت غنياً أم فقيراً البقاء محبوساً طول حياتي في المكتب ذاته! والحقيقة سنحت لي الفرصة. هل تتذكرون سيادته السيد فانغ؟ حسن، لقد تم تعينه في الريف. يفيد المرء في بعض الأحايين أن يحب قراءة الصحف. ما أن رأيت الخبر حتى ذهبت للبحث عنه وطلبت منه اصطحابي معه. كان لا يزال يتذكرني ووافق على الأمر. غير أنه طلب مني تعيين ثلاثة آخرين من الصبية المهرة ليصبح مجموعنا أربعة نصحبه أثناء تأدية مهامه. فتوسلت إليه أن يطلب بنفسه من مكتب الشرطة الرجال الأربعة الذين هو بحاجة إليهم ليتم وضعهم في خدمة منفصلة، لقد قلت في نفسي أنه إذا ساءت الأحوال بعد ذلك سأتجنب على هذا النحو أن يحقد زملائي علي ونستطيع استعادة وظائفنا بذلك لا تكون الجسور كلها مقطوعة. لقد وجد فكرتي رائعة وحصل من المكتب على الرجال الأربعة الذين يريدهم.

كنت بحق أطير فرحاً. بالخبرة والتجارب التي اكتسبتها كنت أكيداً أنّه يمكنني هناك أن أكون رئيساً جيداً لمركز الشرطة، أقول ذلك دون تباه. يحصل كلب في النهاية على ما يرغب فالأولى الإنسان. لقد كان ذلك يمثل بالنسبة لي أوج المجد. كنت أقول في نفسي أنّه بعد أربعين عاماً ليس ذلك بالوقت المبكر.

وصدر أمر بذلك: لقد عُينت رئيساً للحرس وكدت أجنّ من الفرح.

للأسف! لا أدري طالع من كان سيئاً طالعي أم طالع سيادته؟ لم يكن السيد فانغ قد ذهب لاستلام وظيفته حتى أُقيل من مهماته. لقد كان فرحي سابقاً لأوانه بالفعل! لحسن الحظ أننا كنا نحن الأربعة في الخدمة ولم نستقل من الشرطة! هذه المرة أيضاً، أعادنا سيادته تحت تصرف المكتب الذي كنا تابعين له. من جهتي، لم أكن أجده سيئاً فحسب، لكنني كنت أيضاً قلقاً وأنا أتساءل إذا ما سأعين من جديد مفتشاً بعد عودتي للمكتب: لا شيء غير هذا كان جدياً يجعلني هزيلاً.

من حسن الحظ كُلفت بحراسة مكتب الوقاية من الأوبئة: كان مجموعنا ستة وكنت أنا رئيسهم. لم يكن ذلك كمنصب سيئاً، لا ثمة شيء مهم نقوم به ويقوم المكتب بصرف وجبات الطعام. لم أكن واثقاً لكن من المحتمل أنّ سيادته قد تدخل لصالحي. وبما أنني لم أعد بحاجة لصرف النقود من أجل وجباتي، استفدت من ذلك للبدء بتوفير بعض المال من أجل زواج فوهيه: هذا آخر شيء بقي عليّ عمله من أجل أولادي وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل!

في الخامسة والأربعين من عمري عقدت قران ولدي مع فتاة كان والدها وأخاها الأكبر، كلاهما يعملان في الشرطة. في الواقع لم يعد الأمر سيئاً أن تكون العائلة كلها، عائلتي كما عائلتهم، الشباب فيها كما العجائز في الشرطة. عندما كنا نجتمع كلنا يمكن أن نؤلف مخفراً لنا وحدنا!

يتصرف الإنسان أحياناً بغرابة. لذلك لا أعلم أبداً لماذا بعد زواج ولدي ظننت أنّه من الأفضل أن لا أعود إلى حلق شاربي. في ذلك الحين لم أفكر بما كنت أقوم به. لقد أطلت شاربي بكل بساطة لأنّ ذلك يناسب مظهر الجَد أكثر. فضلاً عن ذلك، وجدت أنّ شارباً أسود اللون رقيقاً وحشو غليون من وقت لآخر بتبغ ماندشوري سيكون أمراً ملائماً تماماً. على أية حال لقد تزوج ولدي وابنتي وأموري الخاصة تسير على نحو جيد، فلماذا أحرم نفسي من هذه السعادة؟

لسوء الحظ، هذا الشارب بعينه هو الذي سبب هلاكي. بعد التغيير المفاجئ

لرئيس المكتب المركزي، افتتح الرئيس مهامه باستعراض عناصر الشرطة في المدينة. إنه عسكري قديم خارجاً عن عبارات مثل «استعِد!» و«قف في رتل واحد!» لا يفهم شيئاً من شيء. والحال هذه، كما أسلفت القول، ثمة الكثير من الرجال العجائز في المكاتب كما في مخافر الأحياء يوحي مظهرهم بالبؤس، غير أنهم يتمتعون بالعديد من الخبرات لكثرة ما قاموا بمعالجة القضايا خلال أعوام. كنت أقف في صفوفهم ذاتها لأن مكتب الأوبئة لم يكن تابعاً لمخفر في الحي. لذلك تم استعراض مكتبنا مع رجال المكاتب.

بينما كنا نقف في الصفوف منتظرين أن يتم استعراضنا، أخذت بشكل عفوي بالثرثرة والضحك مع كل هؤلاء العجائز. كان شعور واحد يجمعنا وهو، بما أننا نحن من كان يعالج القضايا الهامة وكنا على علم بكل الملفات، لن يجرؤ أحد على طردنا. يكفينا هماً أننا لم نحصل على ترقية. صحيح أننا تقدمنا في العمر لكن سويتنا في العمل لم تقل عن السابق! لقد قيل عبثاً أنّ العجائز لا ينفعون لشيء أبداً ونحن في الخدمة منذ خمسة أو ستة عشرة عاماً على الأقل، وعندما كنا شباباً هدرنا طاقاتنا كلها في خدمة الشعب: حجة كهذه ألا تعطينا الحق ببعض الاحترام؟ لايطرد المرء كلبه بحجة أنّه عجوز. هذا على أية حال ما كنا نفكر به. لذلك لم نكن نشعر بالقلق مقتنعين أنّ الرئيس الجديد لمكتب الشرطةسيكتفي بمراقبتنا عن بعد.

وصل الرئيس: إنّه رجل قوي البنية طويل القامة، تغطي صدره الأوسمة. كان يقفز وهو يصيح يشبه في ذلك رجلاً ينقض على فريسته. هزّ رأسه وهو ينظر إلينا وقد باعد بين ساقيه ووضع يديه خلف ظهره. ثم بقفزة واحدة وجد نفسه مجدداً أمامنا. أمسك بسكرتير عجوز من حزامه ساحباً إياه نحو الأمام كأنّه في نزال جسم لجسم. ثم هزه عدة مرات بقوة قبل أن يفلته فجأة. عند ذلك انقلب السكرتير العجوز على ظهره، بينما بصق الرئيس عليه مرتين وهو يقول «هذا لم يشد حزامه جيداً ويدعي أنه من عناصر الشرطة! خذوه وأعدموه!» كنا نعلم حق العلم أنّه حتى رجل مثل الذي نراه أمامنا لن يصل به الأمر إلى حد إعدام الناس. مع ذلك كنا

جميعاً شاحبي الوجوه من الغضب وليس من الخوف. كان السكرتير العجوز يجلس على الأرض يرتعد فرقاً. نظر الرئيس من جديد إلينا ثم دلّ بإصبعه على صف طويل وهو يصيح: «اخرجوا من هنا لا أريد رؤيتكم من جديد! ويدعون أنّ أشخاصاً على غراركم هم من الشرطة!» لكن هذه الكلمات بلا ريب لا تكفي لتسكين فورة غضبه، لأنه عاد راكضاً أمامنا وهو يصيح حتى انشقت حنجرته: «فليخلع بدلته كل من له شارب وتفرقوا في الحال!» في الواقع لم أكن أنا الوحيد الذي ترك شاربيه ينموان، كان ثمة آخرين، لكننا كنا كلنا مفتشين أو ضباطاً ولولا ذلك لما كنا نجرؤ على إطلاق هذا الزغب الملعون.

هذه هي الظروف التي وجدت نفسي فيها مطروداً من العمل بعد أكثر من عشرين عاماً من الخدمة. في الواقع، لقد تجاوزت الأربعين عاماً لكن ملامح الشيخوخة لا تبدو علي البتة، ولا أعرف حقا ما الذي دفعني لأن أترك شاربي ينمو! كل ذلك لأقول لكم أنه يمكنكم عندما تكونون شبابا أن تبيعوا أنفسكم من أجل ستة أو سبعة يونات فقط، وتنجب ولدا لا يمكنه تلقي العلم لأنك مجرد شرطي بسيط، وتنجب فتاة تكون مرغمة للسبب ذاته أن تتزوج من رجال بائس وتعيش على الخبز كل حياتها. وبعد ذلك تجدنفسك بلا عمل لمجرد أنك تركت شاربا رفيعا ينمو فوق شفتيك، دون أن تحصل على شيء البتة، دون تعويض أو معاش. يلقون بك خارجا بعد عشرين عاما من الخدمة كما لو أنك قطعة قرميد قديمة تعرقل المرور. لا يمكنك حتى بعد أن تبلغ الخمسين من عمرك أن تضع جانبا قرشاً واحداً وتكون سعيداً إذا ما حصلت على وجباتك الثلاث في اليوم. بعد ذلك لا يسعك سوى أن ترمي بنفسك في النهر أو أن تشنق نفسك. على هذا النحو تنتهي عادة حياة رجال الشرطة.

لم أقترف هفوة واحدة طول عشرين عاما من الخدمة ومع هذا يتوجب علي في يوم أن أحزم أمتعتي! عندما رحلت رافقني زملائي بعيون مترعة بالدموع بينما أنا كنت أبتسم. ثمة الكثير من الجور على وجه الأرض لذلك أحتفظ بدموعي لنفسي!

إن حياة الناس الفقراء، على عكس ما يتصور محترفو الإحسان العام، لانستطيع إنقاذها ببضع قصعات من حساء الرز. فهذا يطيل وجودهم البائس لعدة أيام، وعاجلاً أم آجلاً، عليهم أن يقضوا نحبهم. بالماضي الذي كان لي يشبه هذا الأمر حالتي: إنه يساعدني على إيجاد عمل صغير وأن أتحمل بؤسي لوقت أطول قليلاً. لكني كنت محكوماً بأن أكون رجل شرطة ولا شيء سواه: إنه مثل بقعة أو ثؤلول أحمله على جلدي. لا أحب القول أنني رجل شرطة ولم أكن أحب أن أكونه، لكن الفظيع في الأمر أنني إذا لم أذكر ذلك لن أحصل على ما آكله! في الواقع لم أبق طويلا بلا عمل: بوصاية من السيد فانغ أصبحت مسؤولا عن مستوصف في منجم، ثم رئيس المكتب المحلي للشرطة. كنت محظوظاً في نهاية الأمر. إنها فرصة بالنسبة لي لاستخدام مواهبي وكل ما كنت قد اكتسبته سابقا على هذا النحو سمحت لي التجربة المتجمعة خلال عشرين عاما من الخدمة أن أراقب بدقة عمال المنجم. في كل مرة كانوا يتجمعون فيها ليلعبوا الورق أو ليتقاتلوا، في كل مرة يقومون بإضراب عن العمل أو يخلقون المتاعب أو حتى يشربون قدحاً زيادة، لم يكن علي سوى أن أفتح فمي لأثنيهم عن قصدهم وأسوي الأمر كما يجب. بالنسبة لزملائي تقع مسؤولية تدريبهم على عاتقي. كانوا كلهم في الشرطة، سواء أكنت أنا نفسي من قام بذلك أو أنهم أتوا من مكان آخر. لكن ذلك لم يكن يسهل عملي كثيرا لأنهم لم يكونوا جاهلين لهذا الأمر وغالبا ما كانوا يتربصون لي. لم يكن ذلك ليثير الخوف في نفسي لأنني عملت في قطاعات الشرطة كلها ولا أجهل شيئاً عما يمكن عمله في داخل كما في خارج المكاتب. لقد كانت حصيلة تجاربي كافية في نهاية الأمر حتى لا يتمكنوا من إحراجي فلدي جواب لكل سؤال ولا أقول ذلك مدحاً لنفسي.

لو استطعت تمضية عدة سنوات هناك لكنت واثقاً أنني كنت قد استطعت

على الأقل جمع المال الضروري لشراء نعش لي، لأنني كنت أكسب أكثر بقليل من ضابط في الشرطة وفي نهاية العام يمكنني الحصول على مكافأة. لكن ما جرى هو أنني لم أكد أمضي ستة أشهر وبدأت بإصلاح الأمور في كل مكان تقريباً عندما للأسف! لقد خطفوا مكاني بحجة أنني كنت عجوزاً جداً وأنني أقوم بعملي بجدية كبيرة. كان يفترض بي إذن أن أغض الطرف وأدع زملائي يملؤون جيوبهم بدلا من أن أثير حفيظتهم بمراقبتي لهم بشكل دائم. بالنسبة للعمل الخارجي كان الحال مشابها: كنت شريفاً إلى أبعد حد لأنني كنت أرغب على الأقل في ذلك المكان أن يتم كل شيء بطريقة مثالية. والحال كما نوهت سابقا، عندما لا يكون الشعب شعبا بحق لا ينفع رجال الشرطة لشيء، لأنهم كلما قاموا بواجبهم بشكل أفضل حقد عليهم الشعب أكثر. بالطبع لو تركوني على رأس عملي لعدة سنوات لربما كان كل الناس قد أقروا بأن الشرطة تفيد لشيء ما. من المؤسف أنهم لم ينتظروا على طردي حتى أضع القليل من النظام في كل مكان.

في المجتمع الحالي ثمة شيء قد فهمته الآن: يتم تصريف الأعمال تماما مثلما توزع أحذيتهم العسكرية على رجال الشرطة. إذا كان الحذاء كبيراً جداً هذه غلطتك! وإذا كان صغيراً جداً ويضغط على القدم (اصطفل).

يمكن تسوية كل شيء على نحو جيد ولا يمكننا التوصل إلى إرضاء جميع الناس. ثمة دوما من يرمي بحذائه العسكري في وجهك. إن ماجعلني أخسر وظيفتي هذه المرة هو أنني نسيت الحكمة الثمينة للامبالاة. لذلك توجب علي من جديد أن أحزم حقائبي.

في هذه المرة بقيت بلا عمل لأكثر من ستة أشهر. منذ أن كنت متمرناً كان لدي ما أشغل نفسي به وأجهل تماما حياة الخمول. كنت أشارف على الخمسين من العمر لكن ليس لدي ما أحسد من هم أكثر شباباً مني سواء جسدياً أم معنوياً. فكيف أقبل في مثل هذه الشروط أن أبقى بلا عمل؟ من الصباح حتى المساء، في غياب أي عمل جدي أو بصيص أمل، كنت أحيا مثل الشمس التي لا عمل لها

سوى الانتقال من الشرق إلى الغرب، مع أنها أي الشمس، تفيد في إضاءة الكون بينما كنت أستسلم لأفكار محزنة. بطالة كهذه كانت تثير حنقي وتجعلني استشيط غضباً لذلك بدأت أكره نفسي. لكن لا وسيلة لإيجاد أي عمل مهما كان تافهاً! عندما أفكر بنشاطي وحيويتي السابقين لا أستطيع حتى إيجاد عزاء بسيط فيهما، لأنهما لم يسمحا لي بتوفير القليل من المال لأيام عجزي وها أنا ذا أقارب على الموت جوعا. فوق ذلك لم أكن أقبل العيش على نفقة غيري، لا سيما وأنني لازلت أتمتع بكل ملكاتي وأريد أن أكسب قوتي بعرق جبيني. بقيت على الدوام متنبهاً مثل لص، أسارع عند سماع أي خبر غير أنني كنت أعود خائباً على الدوام ومنخفض الرأس. في هذه الظروف سيكون حتى الموت المفاجئ هو الحل المواتي نظراً لأنه لا يبدو على المجتمع أنه ينتظر موتي حتى يدفنني حيا! فقد كنت أشعر في وضح النهار أن جسدي ينغرز ببطء في الأرض. مع أنني لم أفعل ما يؤنبني ضميري عليه. لكن هذا هو العقاب الذي كتب لي! لذلك كنت أمضي سحابة يومي وأنا أضع الغليون في فمي فقط لمتعة أن أبدو أنني أدخن بينما هو كان فارغاً. حياتي نفسها كانت فضلا عن ذلك مجرد ظاهرة حياة وكانت تثير سخرية العامة بشكل خاص.

لكثرة السؤال بعد أشهر من البحث العقيم، وجدت أخيراً وظيفة محصل ضريبة في منطقة هنان. إنها منطقة عسكرية، فليكن! المهم أنها وسيلة كغيرها للعيش! استدنت بعض المال وحزمت بعض الأمتعة وذهبت على الفور لاستلام العمل بعد أن قمت بحلاقة شاربي بعناية. بعد ستة أشهر لم أوف ديني فحسب وإنما ترقيت إلى رتبة ملازم أول. يجب القول أنني كنت أصرف أقل من النصف مما يصرفه غيري وأنهك قواي في العمل مرتين أكثر. لم تكن المصاعب لتخيفني على الإطلاق وإنما الخوف من خسارة مكاني. عندما يكون المرء عاطلاً عن العمل لايخسر بسهولة ثلاث سنوات من عمره زيادة فحسب، لكنه يجازف أيضاً بالموت إن لم يكن جوعاً فعلى الأقل من السأم والنظرة السوداء للأمور. عندما أقول أن كل

جهودي التي بذلتها ستسمح لي بالمحافظة على وظيفتي يكون ذلك أبعد ما يكون عن التأكيد.

مع هذا، تصورت لمرة ثانية أنني إذا كنت قادراً على الوصول إلى رتبة ملازم يمكنني أيضاً أن أترقى إلى رتبة نقيب. من جديد ملأ الأمل نفسي. لكن في هذه المرة تنبهت إلى أن أحذو حذو جميع الناس من حولي. عندما كانوا يملؤون جيوبهم مالا كنت أفعل مثلهم: انتهت الوساوس التي كانت تنغص علي حياتي، في العصر الذي نعيشه لم تعد رائجة أبداً. كنت أقول لنفسي أيضاً أنني إذا ما أصبحت نقيبا ووضعت عائداتي الرسمية جنبا إلى جنب يمكنني خلال بضع سنوات أن أشتري تابوتا جميلاً! كانت طموحاتي محدودة فعلا: كل ما كنت أريده هو بكل بساطة المقدرة على العمل طالما أستطيع تحريك قدمي، ثم أن أحصل على تابوت يضعونني فيه كيلا تلتهمني الكلاب الضالة على هذا النحو كنت أركز عينا في السماء وأخرى على الأرض. أنا كنت جديراً بالسماء لكن ما أبغيه هو أن أستطيع الرقاد بسلام تحت الأرض. في هذا لم أكن أدعي أبدا القيام بدور المسن، لأنني بالكاد شارفت على الخمسين من عمري. لكن جهودي السابقة كلها كانت بلا طائل لدرجة أن أفقي كان لا يتعدى حدود القبر. وأقدر جيدا أنني إذا ما حددت على هذا النحو طموحاتي سيأخذها الرب السماوي العجوز بالحسبان.

عندها تلقيت خبراً بولادة حفيدي. إذا قلت أنّ الخبر لم يسعدني سيكون ذلك شنيعاً. لكن عليّ مع ذلك الاعتراف أنّ شعوري بالسعادة بسبب هذا الخبر قد تلاشى بعد حين وأنا أقول لنفسي رغماً عني: أيضاً رجل شرطة صغير في المستقبل»! عندما يكون المرء جداً لا يلفظ عادة كلام شؤم بخصوص حفيده، لكن بعد كل الذي جرى معي لربما يعذرني الجميع. يجلب أطفال الأغنياء الأمل معهم وأطفال الفقراء العُسر. عندما يكون بطن المرء خاوياً لا يسعه إلا إنجاب الأحفاد ولسلالة طويلة لا نفكر أبداً بالعبارات العظيمة التي تزين أبواب الأغنياء وهي

تصرح بما يلي: «تنتقل الطهارة في العائلة إلى الأبد ومن جيل إلى جيل نُخلد الأدب».

بما أنّ التبغ عاد يملأ غليوني من جديد كنت أسحب منه وأنا أفكر بالمستقبل. بدا لي حينها أنني قد رزُقت بحفيد، لم تعد وظيفتي تقتصر على الحصول على نعشي. لا أتصور كيف سيستطيع ولدي وهو لا يزال رجل شرطة من المرتبة الثالثة إعالة أسرته. لم يكن لزاماً عليّ الاهتمام بشأنه وشأن زوجته، لكن ماذا بشأن الصغير؟ هذه الفكرة جعلتني أغرق في حيرة كبيرة. فقد قلت لنفسي أنني أتقدم سناً من عام إلى آخر ويزداد عدد الأفواه التي عليّ إطعامها في العائلة، يجب عليّ على الأقل تقديم الخبز لها. حينها تجشأت بجلبة كما لو أنّ شيئاً كان عالقاً في حلقي. هذا كثير جداً لذا قررت عدم التفكير بالأمر بعد ذلك: مسألة كهذه لا نهاية لها ولا ينتهي الحديث عنها. حياة الإنسان محدودة بينما الشقاء شيء موروث من جيل إلى جيل. أرغفة الخبز هي الكنوز الوحيدة التي لا تموت!

لو كانت الريح والأمطار تتوافق دوماً مع توقعات الأخبار الجوية فلن تحدث عاصفة أو إعصار غير متوقعين. كذلك لو كانت المصاعب تحدث بالتتابع الواحدة وراء الأخرى بترتيب متُوقع، لا يعود أحد يتحدث عن الضربات المبرّحة للقدر. كنت لا أزال أفكر بأمر حفيدي عندما توفي ولدي. وحتى أنّه لم يمت في منزله! لذلك توجب عليّ أن أرحل بنفسي لإحضار جثته.

منذ أن تزوج فوهيه عرف أنّ المرء لا يحصل على شيء دونما جهد. كانت لديه إمكانيات محدودة، لكنه كان يعطي أقصى ما عنده في عمله. عندما رحلت لأعمل كمحصل ضرائب كانت لديه رغبة شديدة اللحاق بي، لأنه برحيله إلى مكان آخر، لربما ستتاح له الفرصة لإيجاد وضع أفضل. لكني منعته لأنني خشيت إذاا ساءت الأحوال أن نجد أنفسنا نحن الاثنان بلا عمل وعرضة للانتظار.

لكنه ما أن كدت أغادر المنزل حتى التحق بـ«ويهيوي» هناك استطاع كسب يونين زيادة. لكن النتيجة فعلياً كانت هي ذاتها، لأنه كان يلزم عليه العيش وحيداً في مدينة لا يعرفها، لكن عندما يكون المرء فقيراً وتعتريه الرغبة في تحسين مصيره، لا يرى أمامه سوى المال ولا يفكر البتة في مراجعة حساباته. عند هذه النقطة وقع صريع المرض، ورفض حينها تناول العقاقير ثم، لزم الفراش في نهاية الأمر، لكن الوقت كان قد فات على تناول العقاقير.

عندما عدت بجسده لم أكن أحمل قرشاً واحداً في جيبي. لقد ترك وراءه أرملة شابة وطفلاً لا يزال رضيعاً. ماذا يمكنني أن أفعل حيال ذلك؟ لا يمكنني بعد الآن العمل خارج بكين، وفي العاصمة لن يكون بمقدوري إيجاد حتى وظيفة شرطي من المرتبة الثالثة، لقد بلغت الخمسين من العمر وفي هذا العمر تكون النهاية: لقد وقعت في مأزق لا مخرج منه. عند ذلك حسدت فوهيه لأنه مات شاباً. ما أن يموت المرء حتى ينسى كل هموم الحياة. لو أنّه قد عاش طويلاً مثلي لكان قد عانى مثلي من كل هذه الأمور إن لم يكن أكثر!

كانت أرملته تبكي كما لو أنها تريد أن تزهق روحها، بينما أنا لم أذرف دمعة واحدة. لم أستطع ذلك، لم أكن قادراً إلا على الدوران في الغرفة يهزني ضحك مرير.

إنّه بالفعل قصاص أن أعاني كل هذا العذاب. اليوم أيضاً أنا مرغم على إرهاق نفسي للعثور على القليل من الحساء والخبز. في الشتاء لا أملك حتى سترة جيدة من القطن أضعها على كتفي. مع ذلك لا أريد أن يقدموا لي المال إحساناً بل أن أجني قوتي بنفسي. أنا أفخر بأنني عملت بحميّة ونشاط طول عمري. غالباً كنت لا أجد قوت نفسي النهار كله، ولا قطعة فحم لأشعل النار ولا قبضة من التبغ لأضعها في غليوني. لست أنا من سوف يتباهى بالخدمات التي قدمها إلى الدولة.

عندما يستطيع المرء أن يسير وجبهته مرفوعة أمام الناس دون أن يؤنبه ضميره لا يكون مضطراً لمراجعة حساباته مع أيّ شخص. كنت أنتظر فقط لحظة أموت من الجوع وأنا صاغر لفكرة عدم تمكني من امتلاك نعش، وأنّ حفيدي وأمه سيموتان أيضاً من الجوع بعدي. بالفعل: لم يكن يفترض بي في يوم أن أصبح شرطياً! أحياناً كنت أرى الظلمات أمامي وأشعر أنني ألمس الموت سلفاً! لكن إيه! هذا لا يمنعني من الضحك مثل السابق، من أن استهزئ أمام الكثير من الذكاء والموهبة ضاعا في حياة ما، وأن استخف من عالم جائر للغاية، على أمل أنه، عند آخر قهقهة أطلقها، لربما يتغير العالم قليلاً!

الجيران

كانت السيدة مينغ امرأة داهية. لم تكن فحسب تنجب لزوجها أطفالاً، صبية وبنات، بل كانت تموج شعرها على الرغم من أنها كانت تقارب الأربعين من عمرها. مع هذا، كان ثمة شيء في داخلها لاينني يقضّ مضجعها طول النهار. شعور بنقص خطير ألا وهو عجزها عن القراءة. لتعوض عن هذه النقيصة كان لزاماً عليها أن تعذب روحها وأن تحوط أطفالها وزوجها برعايتها المستمرة. لذلك كان الأولاد يفعلون ما يحلو لهم لأنها لم تكن تجرؤ على معاقبتهم أو تأديبهم. كان لديها شعور بأن مكانتها عند زوجها هي أقل مرتبة من مكانة أطفالها، وبحضور زوجها لم تكن لتجرؤ في يوم على إظهار غضبها منهم. هي لم تكن والدتهم إلا لأنه كان هو والدهم. لذلك كانت مرغمة على أن تجانب الحذر الشديد. قياساً إلى أنّ زوجها كان كل شيء بالنسبة لها كيف يمكن لها أن تهاجم أطفاله؟ وهي تعلم حق العلم أنه إذا ما ثار غضبه يكون قادراً تماماً على معاملتها بازدراء شديد. في نهاية الأمر كان السيد مينغ حراً في الزواج من امرأة أخرى، حيال ذلك ليس في إمكانها فعل أي شيء.

ولأنها كانت تميل للشك بطبيعتها كان كل ما هو مكتوب يثير ضيقها. فالحروف بالنسبة لها كانت تخفي أسراراً لا يمكن معرفة كنهها. من هنا كان منشأ حقدها على كل تلك السيدات والآنسات اللواتي يعرفن القراءة. غير أنها من جهة أخرى، ما أن تفكر قليلاً بزوجها وأطفالها حتى تقول لنفسها أنه مع كل تعليمهن، لم تكن تلك السيدات يماثلنها في الاعتبار، لم تكن تستطيع إلا الاعتراف بتفوق

ذكائها وغلبة مصيرها ورفعة مكانتها . لم تكن تسمح لأحد أبداً أن يتفوه بأشياء سيئة بحق أولادها أو أن يلومها لقلة تهذيبهم . فقول الأشياء السيئة عنهم يعني بطريقة غير مباشرة قول ذلك عنها هي ، وهذا ما لم تكن تتحمله إطلاقاً . إنها تطيع زوجها في كل الأشياء ثم تطيع أولادها ، ما عدا ذلك كانت أعلى شأناً من كل العالم . إزاء الجيران والخدم لم تكن تفكر إلا بإظهار عزة نفسها . وعندما يتعارك أولادها مع سواهم كانت قادرة على أن ترمي بنفسها وسط المشاحنة فقط لمجرد أن يعرفوا مع من هم يتعاملون ، كي لا يجهل أي شخص أنها السيدة مينغ وأنها بإظهار استبدادها لا تقوم إلا بعكس سلطة زوجها كما يعكس القمر أشعة الشمس .

كانت تكره الخدم لأن أولئك الآخرين كانوا يحتقرونها . مع ذلك كانوا ينادونها في كل لحظة بالسيدة مينغ ، غير أنها كانت ترى أحياناً على سيماههم هيئة الاستعلاء كما لو أنهم كانوا يقولون في نفوسهم : «إذا ماخلعت ردائك(١) يوماً لايعد ثمة فرق بيننا وبينك ما عدا أنك قد تكونين أكثر غباء منا» . وكانوا يتعمدون التكلف في ملامحهم في كل مرة كانت تخطط فيها أعمالها بأدق التفاصيل . عند ذلك كانت تغضب منهم . لكنها في أغلب الأحيان لا تجد وسيلة لتخفف من ثورة غضبها إلا بطرد خدمها .

كان السيد مينغ زوجاً مستبداً . لكنها عندما تدع أولادها يفعلون ما طاب لهم أو عندما تتشاجر مع الجيران أو تطرد الخدم ، كان يترك لزوجته بعض الحرية . كان يعتبر أنّه في هذه المجالات كان عليها هي أن تمثل العائلة بإباء . إنّه رجل ينضح بالغرور ولا يفكر إلا بعمله . في داخله كان يحتقر زوجته لكنه لم يكن يسمح لأحد أن يعاملها بازدراء فهي في نهاية الأمر زوجته . كما لا يمكنه فضلاً عن ذلك الزواج من أخرى ، لأنّ ربّ عمله كان رجلاً أجنبياً بالنسبة له لا يضاهي الثروة مكانة إلا الإيمان الراسخ . يكفي أن يطلق زوجته أو أن يتخذ له عشيقة له حتى يفقد في الحال وظيفته . وبما أنه كان مرغماً هو نفسه على الاكتفاء بزوجته كان لا يستطيع على هذه

---

(١) ثوب طويل يلبسه الرجال كما النساء لكنه مخصص فقط للسادة ويمنع الخدم من ارتدائه .

الحال أن يتساهل في أمر احتقار الآخرين لها. لم يكن هو ليشعر بالانزعاج إذا ما قام بضربها أما أن ينظر الآخرون إليها بازدراء فتلك مسألة أخرى. ولأنّه لم يكن يشعر بالحب تجاه زوجته كان يسقط عاطفته كلها على أولاده ويقوم بتدليلهم. فضلاً عن ذلك، كل ما كان له دائماً أعلى شأناً مما يحظى به الغير، لذلك من الطبيعي أنّ أولاده لم يكونوا استثناء من هذه القاعدة.

كان السيد مينغ يسير مرفوع الرأس فهو يعامل زوجته كما يجب، يغدق على أولاده الحنان، يتبوأ مركزاً جيداً ولا نكتشف فيه أية رذيلة. كان يمكن أن يكون قديساً حتى أنّه لا يرى نفسه خلاف ذلك. ولأنّه لم يكن يدين لأحد بالفضل لم يكن مرغماً حتى على أن يكون مهذباً بخاصة. في الصباح، يذهب إلى عمله وفي المساء يلعب مع أولاده. لم يفتح كتاباً قط لأنّ أياً منها لا يمكن أن يحمل له بين طياته أي شيء. فهو يعرف سلفاً كل شيء. عندما كان يرى جاراً يتأهب لإلقاء التحية عليه كان يدير رأسه. بالنسبة له، البلد والمجتمع، كل ذلك لم يكن موجوداً. كان له هدف واحد: جمع أكبر قدر ممكن من المال بطريقة يضمن فيها لنفسه أماناً واستقلالاً كاملين، كما لو أنه هو نفسه جبلٌ صغير منعزلٌ في السهل.

مع ذلك كان يقول لنفسه دون طائل أنه رغم كل عناصر السعادة المتوفرة لديه لم يكن يشعر في أعماقه بالرضى الكامل. على ما يبدو كان ثمة شيء في حياته لايستطيع السيطرة عليه، ويفلت منه ولا يستطيع أي شيء أن يعوض عنه. حال ذلك كما لو أنّ بقعة سوداء كانت على جسده، يمكن تمييزها تماماً مثلما نميز وجبة طعام سيئة المذاق وسط صحن من البلور الفاخر. خارجاً عن هذه البقعة السوداء لاشيء كان يمس ثقته وكبرياءه. إنّه شفاف إلى أبعد حد ولا مأخذ عليه إطلاقاً. غير أنّ المشكلة تكمن في أنّ البقعة لم تكن ترحل بل أنها كانت تكبر داخل قلبه.

كان يعلم أنّ زوجته على علم بها. حتى أنّ هذه البقعة ذاتها كانت تكبر مع الزمن أكثر فأكثر. بمجرد رؤية ابتسامة ونظرة زوجها كانت تستطيع معرفة مدى كبرها. مع ذلك لم تكن تجرؤ على لمسها خوفاً من أن تكون لاهبة مثل البقع التي

نراها على سطح الشمس. عندما تفكر أنّ هذه الحرارة يمكن في نهاية الأمر أن تجلب الفائدة لأحد غيرها كان الخوف يأخذ بمجامعها وتقول لنفسها أنه لا يمكن لها أن تبقى هكذا دون أن تفعل شيئاً.

في أحد الأيام سرق أطفال السيد مينغ عنباً من الجيران. ولأن الجدار المشترك كان منخفضاً جداً غالباً ما كان الأطفال يتسلقونه ليسرقوا الأزهار من الحديقة المجاورة. كان أولئك الجيران يُدعون يانغ. إنهما زوجان شابان لم يقولا شيئاً على الرغم من أنهما كانا يحبان الأزهار جداً. فضلاً عن ذلك، لم يكن الأب أو الأم قد شجعا أولادهما على ارتكاب سرقات كهذه، لكن عندما يواجهان الأمر الواقع، كانا يفضلان ألا يزجرونهم فالورود لم تكن قط إلا وروداً، ولا شيء خطير في قطف بعضاً منها. كان برأيهما مجيء الجيران للشكوى من أجل القليل منها كان بحق عملاً أخرقاً من جانبهما. في الواقع، لم تحرك أسرة يانغ ساكناً. واستنتجت السيدة مينغ أنهما لم يجرؤا على المجيء لأنهما كانا حتماً يهابان زوجها.

ذلك الأخير كان مقتنعاً بهذا الأمر منذ أمد بعيد. ليس لأن ذينك الغرّين قد عبرا بوضوح عن خوفهما، لكن لسبب وجيه هو أنّ السيد مينغ كان يعتبر أنّه لزام على الجميع أن يخشوا جانبه، هو الذي يمشي دوماً مرفوع الرأس في الطريق. بالإضافة لذلك، كان الزوجان يانغ كلاهما يعملان في سلك التدريس، والحال هذه كان الأساتذة صنفاً من الناس يحتقره السيد مينغ، معتبراً إياهم كلهم كمتعلمين بؤساء بلا مستقبل. لكن السبب الحقيقي لبغضه الشديد تجاه يانغ كان جمال زوجته. كان عبثاً يكره الأساتذة عندما يكونون من النسوة وبالأحرى عندما يتمتعن بشكل جذاب، إنه يراهن دوماً بعين مختلفة نوعاً ما. والأمر أنّ ذلك البائس يانغ كان لديه زوجة جميلة جداً ومليحة أكثر مئة مرة من زوجته كان يملأه بحقد دفين. من جهة أخرى، كان يقول لنفسه أنّ فتاة رائعة الحسن مثلها لم تكن لتقترن من أستاذ بسيط لو كان لديها القليل من الإدراك. لذلك لم يستطع منع نفسه عن كرهها أيضاً. لم يفت الأمر كذلك على السيدة مينغ التي لاحظت أنّ نظر زوجها كان

يتوجه مراراً وتكراراً صوب الجدار الصغير. لهذا كانت سرقة الأزهار والعنب تبدو لها فعلاً لا ثمة ما يبرره أكثر من ذلك:

إنها طريقة لمعاقبة المرأة الجميلة. منذ زمن طويل والسيدة مينغ تنتظر هذه اللحظة، فلو تجرأت الأخرى على فتح فاها، تكون هي مستعدة لجعلها تقاسي الأمرين.

السيد مينغ كان نموذج الرجل الصيني المعاصر، فهو لا يفوت مناسبة لإظهار، بوسائله الخاصة، التعليم القويم الذي تلقاه. عندما سرقت الأزهار لم يخطر بباله أن يقول أية كلمة ظاناً بلا ريب أنّ السيد والسيدة مينغ سيأتيان لامحالة بنفسيهما لتقديم الاعتذار مهما كان تعليمهما ضئيلاً. إجبار الناس على القدوم للاعتذار سيكون حتماً بمثابة فرض سلوك مهين جداً بالنسبة لهما. المؤسف في الأمر أنّ عائلة مينغ لم تأت قط لتقدم اعتذاراتها عفوياً. مع ذلك لم يجرؤ السيد يانغ على الغضب منهما إذ يمكن لعائلة مينغ أن ينقصها التأديب الأكثر بساطة، أما هو فعليه على الأقل أن يحفظ كامل كرامته. عندما سرق الأولاد عناقيد العنب استطاع بالكاد أن يتمالك نفسه، وذلك ليس بسبب العنب بقدر ما هو بسبب كل الوقت الذي خصصه شخصياً لها. لقد زرع الكرمة منذ ثلاث سنوات وهذه هي المرة الأولى التي تثمر فيها! بالكاد ثلاثة أو أربعة عناقيد وقد قطفها الأولاد كلها!.

قررت السيدة يانغ أن تقابل السيدة مينغ وتعرض عليها ما حدث غير أنّ زوجها على الرغم من أنه كان في أعماقه سعيداً جداً لذهابها نهاها عن ذلك. رجل بالغ التهذيب مثله وفوق ذلك يمتهن التعليم لا يمكن له أن يستسلم للغضب. لكن زوجته لم تكن تشاطره الرأي، كانت ترى أنّه في هذه المرة يجب الذهاب إليهم إنما دون أن تسقط من حسابها اللطافة الواجبة في هذه الظروف. لن تقوما على أية حال بتبادل السباب والتعارك بالأيدي. فضل السيد يانغ خشية أن تعتبره زوجته بالنتيجة ضعيف الشخصية أن لا يمنعها جدياً عن الذهاب. وهكذا انتهى الأمر بلقاء السيدتين.

بدت السيدة يانغ مهذبة جداً :

- السيدة مينغ إن لم أكن مخطئة، أنا السيدة يانغ .

كانت السيدة مينغ تعلم حق العلم سبب قدوم الأخرى وكانت تكرهها من أعماق نفسها :

- آه أنت! منذ زمن طويل وأنا أعرفك!

كل التعليم الذي حصلت عليه جعل السيدة يانغ تحمر خجلاً وتبقى مذهولة . لكن لزم قطعاً أن تقول شيئاً :

- أنّه أمر بسيط، لكن الأولاد، آه! ليس ذلك بالأمر الخطير قد أخذوا العنب ...

- حقاً؟ حمل صوت السيدة مينغ نبرة موسيقية، الأطفال كلهم يحبون العنب، يجدون ذلك مسلياً، لكني لا أسمح لهم أن يأكلوا منه بل أن يلعبوا به .

- عنبنا ... شحب وجه السيدة يانغ من الغضب، لم ينبت وحده، لزم الأمر ثلاث سنوات حتى أثمر!

- آه! يمكننا أن نتحدث عن عنبكم! لقد سمحت كونه حامض المذاق أن يلعبوا به فقط . وهو لا يساوي مصاصة صغيرة كونه لم يطرح إلا القليل .

- الأولاد هم الأولاد، قالت السيدة يانغ التي لم تنس النظريات التربوية التي درستها، لكن زوجي وأنا نحب النباتات والورود جداً ...

- نحن أيضاً .

- حسن، ماذا تفعلين إذا قام أولاد الغير بسرقتها منك؟

- إنهم لا يجرؤن البتة! .

- وإذا كان أولادك هم الذين يسرقون؟

- من الذي يسرق من عندك؟ آه! الأفضل لك أن تنتقلي وألا تعودي للعيش هنا. أولادنا يحبون جداً أن يمرحوا بالعنب. هذا كل شيء!.

عادت السيدة يانغ إلى بيتها وشفتاها ترتجفان بعد أن عجزت عن إيجاد رد مناسب. عندما رأت زوجها أوشكت على البكاء للا شيء.

استطاع السيد مينغ تهدئتها بعد لأي. إنّه بالطبع يجد السيدة مينغ مخطئة لكن برأيه لا ثمة ما يفعلانه: عندما يتصرف الناس بفظاظة يكون من المهين لهما أن يتشاحنا معهم. لم تكن السيدة يانغ من هذا الرأي، يلزم قطعاً أن يثأر زوجها للإهانة التي لحقت بها. فكر لفترة لا بأس بها وانتهى به الأمر إلى التعامل مع السيد مينغ قائلا في نفسه أنّه لا يمكن أن يكون قليل التهذيب مثل زوجته. مع هذا بدلاً من التعامل معه شخصياً لربما كان من الأفضل أن يكتب له رسالة، رسالة مهذبة جداً، سيطلب فيها فقط دون أن ينوه عن الواقعة التي تقابلت فيها السيدة مينغ مع زوجته، أو يتحدث عن قلة تربية أولاده، من جاره أن يردع أولاده عن أي اقتحام آخر للحديقة. برأيه لا يمكن لرجل مؤدب أن يتصرف خلاف ذلك. وفكر بالعبارات التي تكتب في مثل هذه الظروف مثل: «للمحافظة على علاقات حسن الجوار... سأكون ممتناً لك... أهنئك بحرارة... الخ». لقد تصور حتى أنّ السيد مينغ سيتأثر عند قراءة الرسالة وسيأتي شخصياً ليقدم اعتذاراته. لاقتناعه جداً بهذه الفكرة حرر رسالة طويلة نوعاً ما وأرسلها مع الخادمة.

كانت السيدة مينغ مفتونة للغاية لأنها أجبرت جارتها على الانسحاب. منذ زمن طويل كانت الرغبة تعتريها في أن تفحم امرأة من نوع السيدة يانغ، وها هي ذي الأخيرة قد وفرت لها هذه الفرصة. أخذت تتخيلها وقد عادت إلى منزلها على وشك أن تبوح لزوجها بكل شيء وكيف سيعترف الاثنان معاً بغلطهما. في نهاية الأمر لا يدين المرء الأطفال الذين سرقوا العنب دون أن يعرف مع أية عائلة هو يتعامل! ولا يهاجم المرء أطفال السيد مينغ! هذا سينفع كدرس لعائلة يانغ، ولا يسع السيدة مينغ إلا أن تبتهج للخوف الذي سببته لها.

حينذاك وصلت الخادمة مع الرسالة. داهية مثل السيدة مينغ لا يمكن أن يلتبس الأمر عليها. لا بد أنّها رسالة من السيدة يانغ إلى السيد مينغ، والأخرى لم تكتبها إلا بقصد أن تبعدها. كانت رؤية الحروف تنمي الكره الذي تحمله السيدة مينغ لجارتها. فقررت رفض الرسالة.

لذلك أعادت الخادمة الرسالة. لكن السيدة مينغ بقيت قلقة: من يدري ما إذا كانوا سيرسلونها من جديد عندما يعود زوجها؟ والحال هذه، كان يحب أولاده ظاهرياً والرسالة كانت في النهاية من السيدة يانغ. ليس من المستبعد أن يعنفها من أجل هذه المرأة الجميلة، وحتى أن يضربها ضرباً مبرحاً تحت نوافذ جارتها. هذا شيء لا يمكن لها أن تتحمله! أن يضربها زوجها من أجل سبب آخر أمر يمكن تقبله، لكن من أجل عيون تلك السيدة الجميلة... عليها أن تتوقع أي شيء: عندما سيعود زوجها ستبدأ بحماية ظهرها قائلة أن عائلة يانغ قد أثارت فضيحة من أجل حفنة من عناقيدالعنب الفجة، وستضيف أنهما سيراسلانه ليطالبانه بالاعتذار. عندها سيرفض زوجها حتماً قبول رسالة السيدة يانغ وسيكون نصرها ساحقاً.

بينما كانت تنتظر عودة زوجها أخذت تستجمع الكلمات التي ستبلغه إياها وهي تبذل قصارى جهدها في أن تضمنها الكلمات التي يحب هو نفسه استعمالها. عاد السيد مينغ بعد فترة وجيزة. أيقظت كلمات زوجته الحب الذي يكنه في نفسه لأولاده. في النهاية لو لم تتحدث السيدة يانغ بالسوء عنهم لكان ممكناً أن يغفر لها، لكن بما أنها سمحت لنفسها بذلك يكون ذنبها بحق لا يغتفر. من جهة أخرى كانت رؤيتها كافية لتثير فيه العداء بزواجها من أستاذ بائس كهذا ألم تثبت أنها كانت لاتستحق شيئاً البتة؟ عندما كانت زوجته تخبره أن عائلة يانغ سترسل رسالة تطالب فيها بالاعتذار كان القرف يغزوكيانه: إذن أولئك المتعلمون البائسون ليس في إمكانهم شيء يفعلونه سوى الكتابة؟ وبما أنه كان يعمل تحت إمرة رجل أجنبي، لم يكن يعترف بقيمة أي إمضاء إلا عندما ينقش على نص طبع على الآلة الكاتبة: رسائل مخطوطة باليد ومذيلة بتوقيع أساتذة فقراء لم يكن يتعامل معها. فإذا

أرسلت عائلة يانغ رسالتها كان قد حزم أمره على رفضها. مع ذلك، أيقظت فيه البقعة السوداء في أعماقه الرغبة في معرفة خط السيدة يانغ: إنه يكره الحروف الصينية لكنه كان مهتماً بالشخص الذي كتبها. كانت السيدة مينغ تتوقع ذلك فصرحت أن الرسالة مكتوبة بخط السيد يانغ. لن يقوم زوجها بهدر وقته في قراءة خربشته الدنيئة هو الذي يعتبر أن رسالة أعظم موظف في الإمبراطورية الصينية لاتعادل إمضاء أجنبي.

أرسلت السيدة مينغ أولادها لينتظروا أمام الباب قائلة لهم أن يرفضوا الرسالة القادمة من عائلة يانغ. هي نفسها لم تبق بلا عمل: كانت في كل لحظة تلقي نظرها إلى جهة الجيران. إنها سعيدة جدا بالنجاح الذي أتت على إنجازه لدرجة أنها بالغت في سعادتها إلى حد جعلها تقترح على زوجها أن يشتري منزل عائلة يانغ. السيد مينغ كان يعلم تماماً أنه لا يملك المبلغ الضروري. لكنه وافق بمجرد سماعه الفكرة فهي تروق له بل تملأه حماسة. لا يهم الأمر إن كان أفراد عائلة يانغ مالكين أم مستأجرين للمنزل. فمن اللحظة التي تريد فيها عائلة مينغ شراءه عليهم أن يرضوا ببيعه. هذا من بديهيات الأمور. إذا كان ثمة شيء يحبه السيد مينغ فهو أن يسمع أولاده يقولون: «غدا سنشتري هذا». الشراء بالنسبة له هو من أكبر الانتصارات. لديه الرغبة في شراء كل شيء: المنازل، الأراضي، السيارات الحلي... فكرة شراء أي شيء كانت تعطيه دوماً شعوراً بالسيطرة والرفعة.

السيد يانغ من جانبه لم يكن مؤيداً لفكرة إرساله الرسالة على الرغم من أنه يعتبر رفض عائلة مينغ بمثابة إهانة متعمدة. للحظة فكر في أن يتضارب في الشارع مع السيد مينغ، لكن ذلك لم يتجاوز مرحلة النية، فأخلاقه لا تتقبل أعمال عنف على هذه الشاكلة. في نهاية الأمر كان لزاماً عليه أن يكتفي بالتصريح لزوجته أن الزوجين مينغ كانا كليهما قذرين وهما لا يتعاركان أبدا مع القذرين، مما كان كافياً لتهدئة غضبه. أما السيدة يانغ على الرغم من أنها لم تكن تظهر غضبها بأي شكل من الأشكال إلا أنها لم تجد وسيلة للتخلص منه. بل أنها بدأت تدرك أنه كلما كان

المرء مهذباً ينتهي به الأمر لأن يصبح هو الضحية. تبادلت مع زوجها عدة أحاديث توضح الحقيقة أدت في نهاية الأمر إلى التخفيف جداً من مزاجها السيء. كان الزوجان لا يزالان يتبادلان الحديث مفصحين عما في قلبيهما، عندما دخلت الخادمة تحمل رسالة. أخذها السيد يانغ ورأى أن الرقم الذي تحمله على المغلف كان رقمه لكن الرسالة كانت موجهة إلى السيد مينغ. على الفور رغب الاستيلاء عليها، لكنه سرعان ما وجد أن هذا التصرف لم يكن جديرا برجل شريف. فطلب من الخادمة أن تحملها إلى الجيران.

كانت السيدة مينغ لا تزال في مكانها. عندمارأت الخادمة تقترب خشيت ألا تستطيع الاعتماد على أولادها فارتأت أن تتدخل بنفسها: «يمكنك أن تعيديها. نحن لا نقرأ الرسائل!»

- لكنها للسيد مينغ! احتجت الخادمة.

- أعلم، لكن السيد هنا لن يقوم بهدر وقته في قراءة رسائلكم! قالت السيدة مينغ بلهجة لا تقبل الرد.

- لكني أقول لك أنها لا تخصنا وقد أرسلت إلينا عن طريق الخطأ! أصرت الخادمة وهي تمد يدها بالرسالة.

- أرسلت خطأ؟ قالت وهي تجول بنظرها. فجأة خطرت على بال السيدة مينغ فكرة: قولي لسيدك أنه يستطيع الاحتفاظ بها. ربما أنت تعتقدين أنني لا أفهم قصدك، لا فائدة من سرد قصص كهذه عليّ!

وبان! صفقت الباب.

أعادت الخادمة الرسالة. زادت حيرة السيد يانغ: هو لا يرغب أن يحملها بنفسه ويرفض كذلك أن يفتحها ويقرأها. في الوقت ذاته كان يقول لنفسه إنّ السيد مينغ كان هو نفسه دنيئاً، ألم يتحالف مع زوجته حال عودته إلى المنزل؟ لكن ماذا

يفعل بها؟ أن يحتفظ لنفسه برسائل لا تخصه هذا عمل بعيد عن التهذيب. بعد تفكير عميق فكر أن يضع الرسالة في مغلف جديد ثم يرميها في صندوق البريد في اليوم التالي بعد أن يصحح العنوان. فكر أنّ ذلك سيكلفه إضافة لذلك قرشين للطابع. لكن الفكرة جعلته يبتسم.

في صباح اليوم التالي وهما في عجلة من أمرهما للذهاب إلى المدرسة حيث يُدرسان، نسي السيد والسيدة يانغ الرسالة. تنبه للأمر بعد وصوله إلى المدرسة، لكن لا يمكنه العودة لإحضارها. فقال في نفسه إنّ الرسالة لحسن الحظ كانت عادية ومن المحتمل أنها لا تحمل في طياتها كبير أهمية، ليس ثمةما يضير إذا ما أرسلها بعد يوم تأخير.

عند عودته من المدرسة شعر بالخمول في أن يخرج مجدداً، فوضع الرسالة مع كتبه الدراسية. هكذا سيضعها حتماً في صندوق البريد في صباح اليوم التالي. سويت المسألة على هذا النحو. همّ بتناول الطعام عندما سمع ضجيجاً منبعثاً من منزل الجيران. كان السيد مينغ متفاخراً جداً حتى يدع الناس يسمعون الضوضاء الصادرة عن ضرب زوجته، لكنها هي التي لم تكن تتمتع باللياقة نفسها، لم تكن تتوقف عن الصراخ والبكاء وكان الأولاد ينحون نحوها.

شنّف السيد يانغ آذانه لكنه لم يتوصل إلى معرفة ما يجري تماماً عندما فكر فجأة بالرسالة. ربما هي بالغة الأهمية ولعدم تمكن جاره من استلامها، فاته عمل ما، لهذا كان الضرب الذي ألحقه بزوجته عند عودته إلى المنزل. عند هذه الفكرة، اضطرب السيد يانغ اضطراباً شديداً. كانت الرغبة تعتريه لفتح الرسالة ومعرفة محتوياتها لكن الجرأة خانته. في الوقت ذاته كان يشعر بالانزعاج الشديد لعدم تمكنه من قراءتها حتى أنه لم ينه عشاءه.

بعد الطعام التقت خادمة عائلة يانغ مع خادمة عائلة مينغ. لم يمنع العداء بين السيدتين الخادمتين من رؤية بعضهما. عندها باحت خادمة عائلة مينغ الخبر: لقد ضرب السيد زوجته بسبب رسالة، رسالة مهمة جداً! عندما نقلت خادمة عائلة يانغ

الخير الى سيدها، وجد ذلك الأخير صعوبة شديدة في النوم. الرسالة المعنية هي حتماً تلك التي يحتفظ بها. لكن كيف يمكن لرسالة مهمة كهذه أن تُرسل هكذا دون تسجيلها في البريد، وفوق ذلك بعنوان مغلوط؟ لم يجد السيد يانغ بعد تفكير طويل إلا تفسيراً واحداً ممكناً: كان التجار أناساً متهاونين فيما يتعلق بالكتابة، ومن هنا حدث هذا الخطأ في عنوان الرسالة. عملياً لا يتلقى السيد مينغ رسائل في العادة، لهذا لم ينظر ساعي البريد إلا إلى الرقم ولم يعر انتباهاً للاسم الذي وجهت له الرسالة: لربما هو حتى لا يتذكر أنه هناك عائلة تدعى مينغ في هذه المنطقة، باستسلامه لهذه الأفكار تنبه السيد يانغ لرفعة مكانته، في واقع الأمر لم يكن السيد مينغ إلا رجلاً دنيئاً كل ما يقدر عليه هو جمع المال.

فجأة قال يانغ لنفسه أنّ له كل الحق في أن يمزق الرسالة ليلقي نظرة عليها. قراءة بريد الغير بلا شك جريمة، لكن مع رجل على شاكلة مينغ لا مجال لتأنيب الضمير. أجل، لكن ماذا لو أتى الآخر وطالب بإعادة الرسالة إليه؟ هذا يعرضه للخطر. أخذ يانغ الرسالة عدة مرات وفي النهاية لم يجرؤ على فتحها.

في الوقت ذاته، لم تكن لديه رغبة قوية في إعادتها إلى المرسل إليه. أن تكون بين يديه رسالة هامة كهذه يمكن دوما أن تكون ذات نفع له. حتماً هذا عمل مناف للأمانة. لكن هل هي غلطته أنّ مينغ كان قذراً ويتعمد خلق المشاكل مع جيرانه؟ لا يمكن لقذر أن يبقى بلا قصاص. تذكر يانغ حادثة العنب. بعد تفكير عميق انتهى به الحال إلى تغيير رأيه. في النهاية يستحسن إعادة إرسال الرسالة في اليوم التالي. وسيستفيد من ذلك في إرسال، في الآن عينه، الرسالة التي يطلب فيها من عائلة مينغ أن تحسن تربية أولادها. هكذا سيعرف هؤلاء الأوغاد من أسرة مينغ أي تهذيب وأي لطافة يتمتع بها الرجال المثقفون. ليس لأنه يتوقع أدنى تأنيب للضمير من جهة جاره إنما فقط ليفهمه أن أساتذة بسطاء يمكن لهم أيضاً أن يكونوا نبلاء، وهذا بالنسبة له كان سلفاً بالشيء الكثير.

من جهته أعطى السيد مينغ أوامره إلى زوجته أن تذهب لتطالب بالرسالة.

إنه يعلم سلفاً محتواها، لأنه في غضون ذلك التقى بالذي كان قد كتبها له. لذلك أخذ الاحتياطات اللازمة. لكن لا يجوز أبداً أن تقع هذه الرسالة المزعومة بين يدي هذا الشخص يانغ. كانت الرسالة تنص في واقع الأمر عن عمليات استيراد احتيالية كان السيد مينغ يقوم بها مع واحد من أصدقائه عن طريق رب عمله الأجنبي، ولأنّ الخبر وصل إلى ذلك الأخير، كانت الرسالة عبارة عن تنبيه يطلب فيها الصديق منه أن يجد وسيلة لتجنب غضب معلمه. في الواقع، لم يكن السيد مينغ يخشى كثيراً أن ينشر يانغ محتوى الرسالة: بالنسبة له، الحكومة الصينية ليست موجودة وهو يسخر من القوانين الصينية. أن يعرف مواطنيه أنّه يقوم بهذه التجارة غير المشروعة كان شيئاً غير ذا بال بالنسبة له. لكن ما كان يخشاه هو أن ترسل عائلة يانغ الرسالة الى معلمه، مقدمين بذلك الدليل على جرمه. لأنّه كان مقتنعاً أنّ وغداً مثل يانغ لايمكن له إلا أن يقرأ الرسالة خفية وذلك بنيّة الإضرار به. لذلك لا يمكن أن يطالب بها بنفسه. إذا صدَف والتقى في يوم هذا الشخص لن يكون في وسعه أن يمنع نفسه من أن ينهال عليه ضرباً نظراً للتقزز العميق الذي يثيره في داخله هذا النوع من النماذج. من جهة أخرى، لقد كان يفكر على الدوام أنّ هذا المسمى يانغ يستحق الضرب. في نهاية الأمر، قال في نفسه إنّ الأمر يستحق أن يرسل زوجته فقط لمعاقبتها لتسببها بكل هذه الارتباكات برفضها استلام تلك الرسالة.

لكن السيدة مينغ لم تكن تشاطره الرأي، فهذا الأمر كان مهيناً لها جداً. بدل أن تفقد كرامتها أمام عائلة يانع هي تفضل أن يضربها زوجها. لذلك تركت الأمور تسير على حالها حتى رحل زوجها. عندها أخذت تترصد رحيل العائلة الى المدرسة وهي تنظر سراً باتجاههم. وعلى الفور أرسلت خادمتها لتتبادل الحديث مع خادمة عائلة يانغ.

في الصباح ذاته شعر السيد يانغ بالرضى لوضعه الرسالتين معاً في صندوق البريد. لقد تصور أنّ جاره سوف يشعر بالندم عندما سيقرأ الرسالة المهذبة جداً التي كتبها، وحتى أنّه سيأتي ليبدي إعجابه بشخصيته وأسلوبه.

أثناء هذا الوقت، خضع السيد مينغ إلى استجواب كامل بعد أن استدعاه ربّ عمله. ولأنّه لحسن الحظ كان قد التقى صديقه ويعلم ماهية الأمور، لم يفاجأ بالأسئلة التي ألقاها عليه الأجنبي. غير أنه كان لا يزال يشعر بالضيق بسبب تلك الرسالة الملعونة. أكثر ما كان يثير حنقه أنها وقعت تحديداً بين يدي هذا المتعلم يانغ ذو الشخصية الضعيفة. لا بدّ أن يجد وسيلة يهذب فيها هذا البائس!.

العبارة الأولى التي نطقها عند عودته إلى المنزل هي هل استعادت زوجته الرسالة أم لا. فصرّحت السيدة مينغ دون استعداد وهي التي لا تستلم بسهولة، أنّ عائلة يانغ رفضت إعطاءها الرسالة. بذلك تتملص هي من مسؤوليتها وسيسقط غضب زوجها على هذا الأستاذ الغض الذي يتجرأ على تحديه. آه! سيرون ماذا سيفعل! استدعى أولاده وطلب منهم أن يقفزوا فوق الجدار وأن يدوسوا نباتات يانغ. وبعدها سنرى. لم يكلف الأولاد أباهم عناء إعادة الأمر مرة ثانية: كل النباتات والورود داستها الأقدام عن بكرة أبيها.

أثناء عودتهم من بعثتهم، أحضر ساعي البريد نحو الساعة الرابعة بريد بعد الظهر وفيه الرسالتان. شعر السيد مينغ بعد أن انتهى من قراءتهما بأحاسيس متناقضة في داخله. من جهة، سُرّ لرؤية أن الرسالة ذات العنوان المغلوط لم يقم جاره بفضها. ومن جهة أخرى أثارت رسالة السيد يانغ سخطه وضاعفت من شعور الاشمئزاز الذي كان يحسه دوماً تجاه هذا النموذج البائس: أحقاً ليس هناك إلا هؤلاء المتعلمون اللينو الجانب ليكونوا مهذبين جداً وبغيضين جداً لفرط ما يحاولون أن يكونوا مهذبين!

في الوقت ذاته كان السيد يانغ يهنئ نفسه بينما كان يسلك طريق العودة إلى

منزله. ليس فقط أنه أرجع الرسالة إلى المرسل إليه الفعلي فحسب، بل أن تأنيبه اللبق الذي وجهه إلى جاره لا يمكن أن يدع ذلك الأخير لا مبالياً. لكن ما كاد يجتاز البوابة حتى أخذته الدهشة: كانت الباحة كلها مغطاة ببقايا الأزهار والنباتات، كما لو أنّ صندوقاً للقمامة قد قام بإفراغ محتوياته بعد أن أصيب بالجنون. هذه إشارة. لكن ماذا عساه يفعل؟ قال في نفسه بادئ الأمر أنه يتوجب عليه التفكير بهدوء بالقرار الذي سيتخذه. رجل مهذب جداً لا يتصرف أبداً وهو خاضع لعواطفه. لكن كيف يمكن له في الواقع أن يحتفظ برباطة جأشه؟ إن صفة البربرية التي لا يزال يحتفظ بها في دمائه أخذت تغلي وجعلته غير قادر على التفكير السليم. فخلع حينذاك ثوب المتعلم والتقط من الأرض بضع قراميد متوسطة الحجم وقذف بها من فوق الجدار باتجاه نافذة عائلةمينغ. شعر عند سماعه صوت تكسر الزجاج أنه ارتكب جرما لكن السعادة التي تملكته كانت كبيرة لدرجة أنه استمر بقذف الحجارة فقط لمجرد سماع صوت الزجاج المتكسر. لا شيء آخر يهمه إلا هذا الشعور بالغبطة، هذا الإحساس بالراحة والفخر بسبب ما قام به ظاهريا، لقد ترك الرجل المتحضر في داخله مكانه للرجل الهمجي. إحساسه بالقوة والجرأة أعطاه شعوراً رائعاً مثل ذاك الذي يحسه المرء عندما يسبح عارياً تماما. إنه يتذوق بلا حدود شكلاً جديداً لوجوده لم يكن يعرفه قط أبداً: إنه يشعر بنفسه شاباً حراً وممتلئاً بالحمية والشجاعة.

انكسر زجاج النوافذ كلها تقريبا. عندما فرغ من عمله عاد إلى منزله ليستريح. لقد توقع أن يأتي السيد مينغ ليتعارك معه لكنه لم يكن يشعر بالخوف. إنه فقط يدخن لفافة وراء أخرى مثل جندي أحرز نصراً.

انتظر عبثاً لفترة طويلة أن يقدم أحد من جهة الجيران لكن لم يبدر منهم أية نأمة.

إذا كان السيد مينغ يأبى على نفسه المجيء فذلك لأن أحاسيسه اتجاه عائلة يانغ قد تبدلت. صحيح أن رؤية ألواح الزجاج المكسور لم تكن تسره كثيرا، لكن ذلك لم يكن كافيا ليخرجه عن طوره. لقد بدأ يفكر أيضاً أنه من المستحسن أن يقول لأولاده ألايعودوا للذهاب لسرقة الأزهار، هو شيء في السابق لم يفكر فيه أبداً. أخذ يفكر أيضاً بالسيدة يانغ وبذلك لم يستطع منع نفسه عن كره زوجته. لكنه اكتشف في نهاية الأمر أن الكره والاشمئزاز ليسا بالشعورين المتماثلين تماما. ففي الكره يمتزج دوما قليل من الاحترام.

في اليوم التالي وكان يوم أحد، بينما كان السيد يانغ يعيد ترتيب نباتاته قام السيد مينغ بإصلاح نوافذ منزله. على الأرجح أن السلام والتفاهم المتبادل سيخيمان على الناس.

في باحة عائلة ليو

فــي هــذه الأيـام كـانـت بـاحتنا مرتـعاً لاهتيـاج شـديـد: لـقد وقـع فيـها مـوت مأساوي.

لكني لن أبدأ من هنا. يجب أن نسرد الأشياء من بداياتها. عليّ أولاً أن أقدم نفسي. أنا عرّاف. قمت كذلك ببيع عصير العناب البري وفستق العبيد وأشياء من هذا القبيل. لكنّ ذلك يعود إلى زمن بعيد. ولأنني الآن أعمل بالتنجيم أقوم بذلك في الطريق وفي الأيام التي تسير فيها الأمور جيداً يمكنني أن أجني حتى خمسة ماو. ماتت زوجتي العزيزة منذ زمن بعيد ويعمل ولدي في جر المركبات. نحن نسكن كلانا في واحدة من الغرف في شمال الباحة[1].

بالإضافة إلى الغرفة التي كنا نقطنها، ثمة عشرون واحدة غيرها. كم يصبح عدد العائلات بالكامل، لا أحد يعرف ذلك تماماً. الأشخاص الذين يسكنون في غرفتين لم يكونوا بالكثيرين. فوق ذلك، هناك أولئك الذين يقيمون ليوم لينتقلوا في اليوم التالي، وأنا ليست لدي ذاكرة تسع كل ذلك. عندما كنا نلتقي كنا نتبادل التحية وإذا لم نقل شيئاً لم يكن ذلك يشكل أية أهمية. كل واحد يكدّ من الصباح حتى المساء ليؤمن قوته، وليس لديه كثير وقت يضيعيه في الثرثرة. بالطبع ثمة أناس ثرثارين لكن لا أحد يتحدث ومعدته خاوية.

كنا نحن الاثنان أيضاً وعائلة وانغ من أقدم المستأجرين، فنحن نقيم هنا منذ

---

(١) كلمة بكينية يقصد بها نموذجاً من السكن يجمع عدة عائلات فقيرة في باحة واحدة وسط اختلاط كبير لكنه يساهم كذلك في إقامة علاقات حميمة بين الجيران.

أكثر من عام. منذ زمن ونحن نفكر بالانتقال، لكن مياه المطر لم تكن تتسرب بكثرة إلى غرفتنا. في الزمن الحاضر لا تحدث الأمور على هذا المنوال! يمكن إيجاد مساكن لا تتسرب منها المياه، لكن يلزم إيجاد المال، بالإضافة لذلك يلزم دفع عن كل إقامة أجرة ثلاثة أشهر عوضاً عن شهر واحد. الأفضل نسيان ذلك! في صحف المساء يتحدثون غالباً عن «المساواة» لكن مادام ليست هناك مساواة في المال لا داع للحديث عن ذلك. هذه هي الحقيقة. لنأخذ مثالاً الكنات، كانت فرصة تعرضهن للضرب ستقلّ لو لم تطالب عائلاتهن بالمال، أليس ذلك صحيحاً؟

تسكن عائلة وانغ في غرفتين. كنا أنا ولو وانغ الأكثر ثقافة في الباحة. لكن عليّ أن أقول قبل كل شيء إنّ «الثقافة» هي حماقة ظريفة. أنا الذي كنت منجماً ليست لدي أية مشكلة في قراءة النصوص الأكثر رواجاً، وأقرأ كل يوم صحيفة المساء ذات القرشين. لكن إذا كان يكفي المرء أن يقرأ الصحيفة ليصبح مثقفاً فهذا هو العجب!

يعمل لو وانغ كبستاني عند أجانب، أي أنّه يدافع عن مصالحهم مقابل أجر. إن كان يعرف في البستنة أم لا هو وحده من يعرف ذلك. مهما يكن من أمر إذا لم يكن يعرف شيئاً، فلن يقول ذلك لأحد أبداً. ربما يكفي أن يجز العشب عند أجنبي لنسميه بستانياً. على أية حال، كان شيء واحد أكيداً وهو أنّ لو وانغ كان يحب التباهي.

نتساءل لماذا، إذ لا ثمة ما يعيب في جز الأعشاب. لكن لو وانغ لم يكن يتوصل إلى فهم هذا الأمر. إن شاء أم لا سيبقى الفقير فقيراً. في هذه الشروط ما ينفع المرء أن يتفاخر! نماذج مثله ثمة الكثير منها في الباحة، تقلد الناس المثقفين وهي تتكلف ما في وسعها وتظن على هذا النحو أنها تخدع الآخرين. على كل حال إن كان بستانياً أم مجرد جزّاز للعشب لا يجني لو وانغ الكثير من المال.

يعمل ولده في نحت الحجارة. وله جمجمة تبدو مثل حصاة لم يتم شذبها جيداً. لم أر في حياتي نموذجاً عبوساً مثله. لكن عليّ الاعتراف أنّه كان عاملاً

ماهراً. لقد تزوج من فتاة تصغره بعشر سنوات وتشبه رغيف خبز بائت. يميل لون شعرها للأشقر ولا تبتسم أبداً. ما أن كانت الضربات تنهال عليها حتى كانت تبكي وهذا كان يحدث لها مراراً. وللو وانغ ابنة أيضاً تبلغ الخامسة عشرة من عمرها فاسقة وشريرة. ويعيشون كلهم معاً في غرفتيهما.

بعد عائلتينا، يعتبر شانغ إير من أقدم المستأجرين فهو يقطن هنا منذ أكثر من ستة أشهر. على الرغم من تأخره عن دفع الإيجار لشهرين إلا أنّه كان يتدبر أمره حتى لا يطرده المالك. تتمتع زوجته بلسان طلق جداً، تعرف تماماً ما يلزم قوله وربما لهذا السبب لم يتم بعد طردهما من المنزل. بالطبع لا يتدفق لسانها بالكلمات الجميلة إلا عندما تحين ساعة دفع الإيجار، لكن ما أن يدير المالك ظهره، لو تسمعون الشتائم التي تكيلها! فضلاً عن ذلك، من لا يشتم أبداً مالكاً يطالب بيوان ونصف مقابل حجرة لكلب! ... لكن لم تكن إلا هي من يقوم بذلك على أكمل وجه وتصب جام غضبها. حتى أنا، على الرغم من شيخوختي، كنت أشعر بالتعاطف تجاهها فقط بسبب ذلك. مع هذا كانت تفرغ عبثاً ما في جعبتها، إذ عليها مع ذلك أن تدفع يواناً ونصف مقابل وكر الكلب هذا. فجأة انتهى حبي العابر. ليس لهذا أي معنى أن تقول مثل هذه الشتائم.

كان شانغ إير يعمل في نفس مهنة ولدي فهو يسحب المركبات. هو أيضاً لم يكن ينقصه الهذر. ما أن كان يشرب رشفتين من الكحول حتى يكون قادراً على أن يشمل بكلماته كل من كان في الباحة. إنه ثرثار مستفيض! أكره الإنسان الثرثار، لكنّ هذا لا يعني أنّ شانغ إير كان شخصاً سيئاً: لديه ثلاثة أولاد، الكبير يجمع خبث الفحم والثاني يدور في دوامة الروتين والثالث يركض في كل أنحاء الباحة.

بالنسبة لتذكر أسمائهم، لا أستطيع ذلك بكل جدية. فمن الأولاد ثمة قبيلة كاملة منهم في الباحة! لا يزال بإمكاننا تمييز البنات من الصبية، لأنهم يلعبون كلهم بمؤخرة عارية طالما هم قادرون على ذلك. ذلك عندما نسير في الباحة من المستحسن التزام الحذر، لإننا لا نعلم فوق جسد من نحن نسير إذا ماخطونا

خطوةواحدة في غير محلها. عندما ندوس على صبي كنا ننال رشقة من الشتائم. يشعر الكبار بغم كبير لدرجة أنهم مستعدون للتشاجر عند أول فرصة. كلما كان المرء فقيراً أنجب العديد من الأولاد! ويلزم أيضاً إيجاد الوسيلة لتربيتهم. عندما أرى كل هؤلاء الأولاد العراة أتساءل ماذا سيكونون في المستقبل. هل سيجرون العربات مثل ولدي؟ لا أقصد بذلك أنّ جر العربات عمل مهين، لكني أعتبر أنّه ليس على الإنسان أن يقوم بعمل الحيوانات الدابة. فضلاً عن ذلك، البعض منهم لايبلغ حتى سناً تسمح له بجر العربات. في الربيع الماضي، توفي الكثير منهم بالحمى القرمزية. حتى الآباء الذين في العادة يضربون بقسوةكانوا يبكون بدموع حرّة. يتألم المرء على الرغم منه عندما يموت أولاده. مع ذلك، عندما يتوقفون عن البكاء يكون كل شيء قد انتهى. يقومون بلفهم في حصيرة عادية ويُحملون إلى خارج المدينة. بعد ذلك، يكون من مات قد مات بالفعل. في نهاية الأمر، يكون عدد الأفواه قد نقص واحداً. هذا ما كنت غالباً أقوله: «عندما لا يملك المرء قرشاً في جيبه يصبح قلبه قاسياً كالحجر». لكن هذا محال، يلزم دوماً إيجاد حل.

في الباحة كذلك الكثير من الناس. لكن مع العائلات الثلاث التي ذكرتها يكون ذلك كافياً. لنعود الآن إلى الحادثة المأساوية التي أتيت على ذكرها في البداية. إنها بعينها كنة عائلة وانغ التي تشبه رغيف الخبز التي ماتت. وإذا كنت أعود للحديث عن رأسها فليس لأني أريد أن أهزأ بميت. أنا لا أدعي كذلك أنها كانت تشبه بدقة رغيف الخبز. أنا أضع نفسي مكانها تلك المسكينة ومكان كل الفتيات والنسوة مثلها. غالباً ما كنت أتساءل كيف يمكن لفتاة صحيحة البنية في العادة أن تصبح دميمة الشكل هكذا! منذ فتوتها لم تكن أبداً تأكل أو تشرب كفايتها. فكيف يمكن لها أن تحتفظ ببشرة ناعمة؟ نعم هكذا كان الأمر، لكن لماذا هذا الظلم؟

باختصار، هكذا جرت الأمور. لو وانغ، لنبدأ به، كان دائماً وغداً حقيقياً. ألم أقل إنه كان يحب أن يتباهى؟ في كل الظروف، كان يقلد الرجال المثقفين. لكن

عندما أصبح لديه زوجة ولده، إيه! لم يعرف كيف يتعامل مع الأمر. من الصباح حتى المساء، كان دائم الغضب ويبحث عن أسباب ليخاصمها. من أجل عدة ملاعق صغيرة من الزيت والخل كان يخلق لها مشكلة كبيرة. أنا أعلم أنّ الناس الفقراء يحبون المشاجرة لأنّ كبدهم مريض. لكن لو وانغ كان خبيثاً معها عن سابق إصرار. كان يثور فقط ليكون على شاكلة الناس «المثقفين». إنه الحمو، هذا مفهوم، لكن الحما لا يملك الحقوق كلها! أنا لا أفهم حقاً لماذا كان الفقراء يحاولون جاهدين أن يبدوا مثقفين. ماذا دهاهم؟ في الصباح، كان يستيقظ باكراً ويوقظ على الفور كنته، هكذا للا شيء! فقط من أجل المبدأ! المسكينة! إذا ما تقاعست قليلاً عن النهوض، تستمعون إلى واحدة من تلك الضربات المتلاحقة!

أنا أعلم أنّ عائلة الكنة طالبت بمائة يوان من أجل الزواج. حتى نهاية العام القادم لن يكون الأب والابن قد انتهيا من تسديد هذا الدين. لذلك كان لو وانغ ينزل غضبه على كنته. لو كان ذلك السبب الوحيد لسهل الأمر، مع أنّ المسكينة لم يكن لها يد في الأمر. في الواقع، لم يكن يفعل ذلك من أجل مائة يوان فقط بل لكي يبدو مثقفاً، لكي يفرض على الناس أن يحترموه لكونه حماً جديراً بهذا الاسم. ولأنّ زوجته قد توفيت، كان يدعي أنه يمارس بنفسه كل أشكال التنكيد التي كانت الحماة ستفرضها على كنتها. لذلك كانت كل الوسائل مناسبة له ليلومها. الفتاة الشقية، التي لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، كيف يمكن لها أن تفهم مثل هذه المتطلبات؟

كنت أعلم من أين كان يأتي بكل هذه الأصول التي كان يرغب في فرضها عليها: من منزل الشاي حيث كان يذهب ليستمع إلى «المثقفين». إنّه النموذج نفسه الذي يحمر وجهه من الارتباك عندما يستطيع أن يتحدث ببضع كلمات بسيطة مع المثقفين من الناس ويتوسط في خلاف من أجل صديق. وعندما كان يجز الأعشاب للأجنبي ويوجه له ذلك الأخير بضع كلمات بسيطة، يبقى يهز ذيله لمدة ثلاثة أيام

بلياليها. لديه ذيل حقاً وأنا أؤكد لكم ذلك. لكنه كان يحركه عبثاً طول حياته، لأنّه يسكن دوماً في هذه الباحة الحقيرة ولا يملك سوى تلك الأرغفة ليقضمها.

عندما كان لو وانغ يذهب للعمل كانت ابنته تنوب عنه في تعذيب الكنة. البغي الصغيرة! لا أريد القول أنني أحتقر بنات العائلات الفقيرة التي يتم بيعهن كخادمات، عشيقات أو اللواتي يمارسن الدعارة. إنها أشياء رائجة لا يلزم أن تحدث. لكن لا يمكن لنا أن نحقد على تلك البائسات. كلا، بالمقابل وانغ إيرنيو كنت أكرهها. إنها مزعجة مثل والدها ويتفتق ذهنها أيضاً عن أشياء لتعذب زوجة أخيها. يمكن لها أن تقول أبشع أنواع الكذب فقط لتضرّبها. أعلم لماذا كانت تحمل هذا القدر من البغض، لأنها كانت تتردد على مدرسة مهنية وذلك على حساب الأجانب الذين يعمل لديهم والدها. فكيف لا يمكن لها أن تنظر بازدراء إلى زوجة أخيها؟ إنها تنتعل أحذية جميلة وشعرها مزين بمشط أيضاً. آه! لو رأيتم تلك المتصنعة! إنها تجعلني أفكر في أمر: لا يلزم أن يكون في العالم أناس فقراء وأغنياء. لكن لا أسوأ من أن يحاول الفقراء الارتقاء بمستواهم وهم يتعلقون بأذيال الأغنياء. كان لو وانغ وابنته مثالين نموذجيين عن ذلك. عندما كانت الكنة تصنع لنفسها حذاء جديداً من القطن الأسود، كانت إيرينو تجد دوماً الوسيلة لتلويثه بأن تسير فوقه، وبعد ذلك، كانت تدفع والدها ليوبخها. ليس لديّ الوقت الكافي لأسرد لكم بالتفصيل كل شيء، ما يمكن أن أقوله لكم أنّه لم يتوفر للكنة الصغيرة البائسة يوم واحد من السكينة وأنها غالباً جداً لم تكن تتناول ما يكفي من الطعام لتسد رمقها.

أما كسياو وانغ الذي كان يملك متجراً خارج المدينة، فكان يعود الى المنزل مرتين أو ثلاثاً في الشهر ولا يتوانى أبداً عن ضرب زوجته. في باحتنا، كان الضرب هو الخبز اليومي للكنات. كنا نجد ذلك مألوفاً: ليس فقط هن يحيين على عاتق أزواجهن، بل أيضاً تطالب عائلاتهن بالمال من أجل إتمام الزواج. في الواقع كان يمكن لكسياو وانغ أن يستغني عن ضرب زوجته، فهو في غالب الأحيان لايأتي إلا نادراً، ما الفائدة التي يجنيها من إثارة المشاكل في كل مرة؟ هه! كان لو وانغ وابنته

موجودين على الدوام ليحرضاه ضدها. إنه يعاقب كنته سلفاً بإركاعها وحرمانها من الطعام. لكن بما أنه يعتبر نفسه رجلاً «مثقفاً» لا يمكنه في حال من الأحوال أن يرفع يده في وجهها، إذ هل رأى أحدكم حماً يضرب كنته؟ لهذا السبب كان يثير حفيظة ابنه ليقوم هو بذلك، وهو يقول لنفسه أنّ ضربةواحدة يقوم بها نحات للحجارة تعادل خمساً من رجل آخر. عندما كان الابن يفرغ من ضرب زوجته، لايمكن أن نجد من هو أكثر لطافة معها من العجوز. لكنّ إيرنيو، مع أنها كانت تقرص لها يديها أحياناً، كانت تجد دوماً أنّ الجرعة لم تكن كافية. إنها تفضل أن يقوم أخاها بسحق زوجته إلى بقايا بضربة واحدة من يد الهاون. أقول لكم عندما تحقد امرأة على أخرى يكون الصراع بينهما ضارياً. كانت إيرنيو تتفاخر بأنها تلميذة بينما لم تكن زوج أخيها إلا رغيف خبز حي كلفهم مائة يوان.

على هذا النحو كانت حياة الكنة لا تطاق. كلما كانت تشعر بالتعاسة كانت تصبح أقل تودداً. فجأة لم يعد أحد يحبها في الباحة. لم تكن حتى تعرف كيف تتبادل الحديث مع الناس. اللحظات الوحيدة التي كانت السعادة تظهر فيها على محياها هي عندما كانت تهذي وتبدو وكأن الشيطان يسكن روحها. هذا كان يحدث عندما كان كسياو وانغ يضربها ثم يرحل. عندها تأخذ بالبكاء والهذيان وكأنها تنعم بهذا الأمر. ثم يأتي دوري لأتدخل. كان لو وانغ يقترض مني تقويمي لكي يضربها، لكن بما أنّه كان يخاف من الأشباح كان يطلب مني أن أضربها بنفسي. عندما كنت أدخل لا أقوم بضربها البتة، كنت أكتفي بمؤاساتها حتى تكف عن النحيب. ما كانت هي بحاجة له هو بضع كلمات من التعزية. عند هذه اللحظة يصل الحمو فيقوم بزم شفتها العليا ثم يضع تحت أنفها ورقاً محروقاً لتشمه[1]. كان يعلم حق العلم أنها عادت إلى وعيها، لكنه كان يقوم بذلك قصداً كي يعذبها بشدة. كنا نتشاجر دوماً عند هذه اللحظة. في العادة عندما كانوا يتخاصمون، لاأتدخل البتة. بماذا يفيد ذلك؟ لو تدخلت في الأمر سأكون حتماً إلى جانب الكنة

(١) عادة مخصصة لاستعادة المرء لوعيه.

الصغيرة، وعندها سيسيئون معاملتها أكثر من السابق. لهذا السبب لم أكن أحرك ساكناً. لكن في المرات التي كانت تغيب فيها عن الوعي كنا نتشاجر، لأنّ ذلك يصبح أقوى مني: عندما يرى المرء هذا لا يستطيع أن يظل صامتاً. ما كان غريباً في الأمر حينها، أنّ الناس في الباحة بما فيهم النساء كانوا يقولون أنني أنا المخطئ. كانوا كلهم بلا استثناء يرون أنه لزام أن تُضرب وأنني أتدخل في أشياء لا تعنيني.

بالنسبة لهؤلاء القوم، كان طبيعياً أن يضرب الرجال نساءهم، أن يلقن العم كنته درساً وأن تضطهد الفتاة زوجة أخيها. كيف يمكن لمثل هذه الأفكار أن تكون ممكنة الحدوث ومن هو الذي وضعها في رؤوسهم؟ انظر إلى دعيّ الثقافة هذا إنه يبعث في النفس الرغبة بالضحك والبكاء في آن معاً: كيف يمكن لبقة تتضور من الجوع أن تؤمن بـ «الثقافة؟»

منذ عدة أيام عاد نحات الحجر. لأول مرة كان الأب مبتهجاً ولم يطلب من ولده أن يضرب زوجته. تلك الأخيرة رسمت على وجهها شبه ابتسامة عندما وجدتهما في أحسن حال. تنبهت إيرنيو للأمر ولم تصدق عينيها. لا بدّ من وجود سر خفي في ذلك! ولأنّ الكنة كانت في الباحة تتهيأ لتحضير الطعام، ذهبت لتفتش في غرفتها. لا بدّ أن أخيها قد قدم هدية لزوجته في السر، وإلا كيف تفسر هذا الوجه المبتسم على هذا النحو؟ بحثت طويلاً بلا طائل إذ لم تعثر على شيء. وعندما أقول «طويلاً» هذا يعني بأدق التفاصيل، إذ كيف لكنة أن تملك الكثير من الأشياء في غرفتها؟ إذا جمعنا كل أثاث الناس في الباحة لن نجد حتى طاولتين بحالة جيدة، لهذا لا نسمع عن حدوث سرقات أبداً. وإذا كان أحدنا يملك المال فإنه يضع الأوراق النقدية داخل جواربه.

كانت إيرنيو تشعر بالسخط. كيف يمكن لزوجة أخيها أن تتباهى بابتسامة كهذه؟ من المناسب أن تعاقبها حتى دون دليل دامغ.

كانت الكنة اليافعة تتهيأ بالضبط لأن تلقي الماء الذي كان أكثر مما ينبغي في قدر الرز. فقامت إيرنيو بركلها. انقلب القدر بكل محتواه. «أرز!» لو لم يعد

الزوج لما فكر أحد بتناول «الأرز!» كانت الكنة المسكينة تشعر أن حياتها هي التي كانت ترحل عنها مع انسكاب الرز. ولأنّه لا يزال ثمة ماء داخل القدر. جرف المرق الأرز وجعله ينتشر على الأرض مثل الثلج. على الرغم من أنّ الرز لايزال يغلي، وضعت يديها فوقه لتلقطه خوفاً من أن يحرقه الماء المغلي، فذلك سيان عندها: هي نفسها لا تساوي ثمن الأرز. في الواقع كان ساخناً لدرجة أنه بعد قبضة أو اثنتين أضحى الألم لا يطاق. والتصق المرق بأصابعها. لكنها لم تجرؤ على قول حرف، أخذت تكز على أسنانها وهي تلوح بيديها وتدور حول نفسها من الألم.

- انظر يا أبي! لقد قلبت الأرز كله أرضاً. صاحت إيرنيو.

خرج الرجلان من الغرفة. عندما رأى لو وانغ الأرز المغلي منسكباً على الأرض، استشاط غضباً على الفور. كان يكفيه أن يرمي ولده بكلمة كي يفهم ذلك الأخير «إما زوجتك أو والدك!».

عند ذاك أضحى وجه كسياو وانغ قرمزي اللون. تقدم وأمسك زوجته من شعرها وأخذ يجرها أرضاً. فقدت البائسة وعيها دون أن تطلق صيحة واحدة.

- اضربها، اضربها حتى الموت. قال العجوز الذي كان يضرب الأرض بقدمه ناشراً الغبار.

أخذت إيرنيو من جهتها تقرص زوجة أخيها من فخذها خوف أن تتظاهر تلك الأخيرة بالموت. خرج الناس جميعهم في الباحة ليشهدوا هذا العرض. لم يحاول الرجال التدخل ولم تجرؤ النساء كالعادة على قول شيء، فضلاً عن ذلك، كان الرجال يحبون رؤية غيرهم يضرب زوجته: يكون ذلك بمثابة درس لزوجاتهم.

لم أستطع منع نفسي عن التدخل. سيتعمد لو وانغ ضربي. لكن ما كدت أظهر حتى لحق بي رجال آخرون ونجحنا نوعاً ما في فصل الرجل عن زوجته.

في اليوم التالي عند الصباح الباكر، خرج الأب وولده إلى العمل. إيرنيو لم تذهب الى المدرسة فقط لتستمر في مضايقة زوجة أخيها.

قدمت زوجة شانغ إير لرؤية الكنة إثر بادرة طيبة منها. لكن التعزيات كلها التي كانت تظن أنها قادرة على منحها للشقية لم تفد إلا بإثارة حفيظة إيرنيو. اشتدت حدة الكلام بينهما. حتماً لم تكن إيرنيو قادرة على منافستها: لا يمكن أبداً أن نشتم ببساطة زوجة شانغ إير. «إذا لم تنته فتاة مثلك في ماخور لن يكون اسمي شانغ أبداً».

جملة واحدة كانت تكفي لإفحام إيرنيو «لقد أعطاك غالوا الصغير قرشين وسمحت له أن يقبلك، هل تظنين أنني لم أرك؟ هذا صحيح أم لا؟ هه؟ أمام هذا السيل من الشتائم التي كانت الأخرى تصبه مباشرة في أذنها تراجعت إيرنيو دون أن تستطيع البوح بكلمة واحدة.

بعد هذه المشاحنة انسحبت إيرنيو هاربة إلى الطريق يكسوها خجل عارم.

بقيت الكنة الصغيرة في غرفتها ولعدة ساعات. عندما عادت زوجة شانغ إير لتلقي نظرة عليها، وجدت الشقية ممددة على الكانغ[1] وهي تلبس ثوب عرسها الأحمر. طرحت عليها سؤالاً أو اثنين، لكن الأخرى اكتفت بإدارة رأسها دون أن تجيب. في هذه الأثناء لمحت زوجة شانغ إير ولدها الثاني على وشك أن يتعارك مع طفل آخر، فركضت لتخلصه لأنّ خصمه كان قد طرحه أرضاً.

لم تعد إيرنيو إلى المنزل قبل ساعة الغداء. دخلت على الفور إلى غرفة زوجة أخيها لترى ما إذا كان الطعام قد جهز. طالبة مثل إيرنيو لا تعد الطعام أبداً. لنر! عندما فتحت الباب أطلقت صيحة كادت أن تلفظ أنفاسها على أثرها: كانت زوجة أخيها معلقة في إطار الباب، تملّك الخوف سكان الباحة كلهم. لم يرغب أياً منهم في إنزالها. لا أحد يهتم بما يضايق الآخر خاصة إذا ما تعلق الأمر بحياة إنسان[2].

(١) سرير من الآجر مغطى بحصيرة ويتم تدفئته برماد الفرن المنزلي يمكن لعدة أشخاص أن يجلسوا عليه. هذا النموذج من الأسرّة لا يزال يميز المنازل في شمال الصين.

(٢) تعني الترجمة الحرفية أنّ الإنسان لايسير في البراز بأحذية جديدة.

غطت إيرنيو عينيها وهي تكاد تهلك من الرعب. «لماذا لا تبحثين عن والدك؟ سأل أحدهم». أدارت رأسها وذهبت راكضة كما لو أنّ شيطاناً كان يلاحقها.

عندما عاد لو وانغ، أخذت الدهشة منه كل مأخذ. كان الوقت قد فات على إنقاذ الكنة. على أية حال، لم يكن ذلك بالأمر العظيم. ما كان مزعجاً هو أنّ المالك لن يسامحه أبداً على الحط من مقام المسكن على هذا النحو. لو كان لديه المال أيضاً لأمكنه أن يزوج ولده من امرأة أخرى، لكنّ الدين الذي تمّ اقتراضه من أجل المرأة الأولى لم يكن قد سدد بعد. أمام هذه الهموم استولى عليه الغضب لدرجة أنّه لم يتمكن من تخفيف غلوائه إلا بعد أن نهش الجثة بأنيابه!

قدمت عائلة الكنة وأثارت مشكلة كبيرة، لكنّ لو وانغ لم يكن يخشى شيئاً. لقد سأل إيرنيو وجوابها حاضر لديه. إذا كانت فكرة الانتحار قد طرأت على بال الكنة الصغيرة فلأن زوجة شانغ إير قد حرضتها على ذلك. ليس في يد عائلة وانغ أي شيء. فهم لم يعاملوها بسوء أو على الأقل لم يدفعوها للموت. كما ترون، كان وانغ بارعاً بفضل «الثقافة» ويمكن أن يكذب وعيناه مفتوحتان على وسعهما.

طار صواب زوجة شانغ إير، فهي فجأة تشعر بالعجز أمام ضراوة الاتهامات على الرغم من أنها تملك لساناً لاذعاً. بالنسبة للانتحار، لا يزال بإمكانها أن تبرر، لكن عند عودتها إلى زوجها لا يمكنها أن تهرب من مشاحنة عائلية. بالطبع، لم يكن وارداً اللجوء إلى القضاء: من في الباحة يجرؤ على ذلك؟ إذا ثبت لو وانغ وابنته اتهاماتهما وتابعتهما أسرة المنتحرة ستصبح القضية مزعجة للغاية. لم يكن من السهل إقناع الناس في الباحة وبمواجهة لو وانغ لا تملك أية وسيلة للتخلص من ذلك. عندما يملك المرء لساناً لاذعاً جداً يخلق لنفسه الأعداء وكل هؤلاء الذين كانوا أعداءها سينتهزون الفرصة للانقضاض عليها و«صرعها» كما تقول صحف المساء. عند عودتها إلى زوجها جرت الأمور كما توقعتها. عندما سمع شانغ إير

الناس تتحدث عن المصيبة التي سببتها زوجته لم يكلف نفسه عناء الاستفسار أكثر، وأخذ يضربها حتى شعر بإشباع تام.

لن تقيم عائلة الزوجة دعوى، بل طالبت بالمال وقالت إنها إن لم تحصل عليه ستلجأ إلى أكثر أنواع التهديدات خطورة. هذا بالتحديد ما كان لو وانغ يخشاه: أن ينوء كاهله بدين جديد بينما لم يسدد الأول بعد بالكامل. على أية حال، لم يكن بيده أي حل سوى القبول بذلك وإلا كيف سيتخلص من الجثة؟

عاد كسياو وانغ أيضاً وبقي ظاهرياً فاقد الشعور، لكني لاحظت أنّه في أعماقه كان يتعذب. حتى ذلك الوقت لم يهتم أحد بعد بالكنة، لقد كان أول من دخل إلى الغرفة وبقي فيها فترة طويلة. أنا أظن أنّه لو لم يفعل ذلك ليسعد والده «المثقف» لكان من المحتمل أنّه لن يقوم بضربها في أغلب الأحيان. إنما يلزم على الابن إطاعة والده على الدوام، لذلك كان يضربها ناسياً أنّ ذراعيه كانتا ذراعي نحات للحجارة. دون أن ينبس بكلمة، بقي جالساً في الغرفة لعدة ساعات وقد ألبس زوجته سروالاً جديداً، الوحيد الذي لم يكن مرقعاً. كان على ما يبدو لا يصغي إلى ما يقوله والده. إنّه يدخن لفافة إثر أخرى وينظر بثبات إلى شيء لم يكن أحد سواه يراه.

طالبت العائلة بمئة يوان، خمسون للدفن وخمسون للعائلة نفسها. بقي كسياو وانغ صامتاً على الدوام، غير أنّ والده وافق على تقديم المال. ذهب بادئ الأمر إلى شانغ إير «بما أنّ زوجتك هي التي تسببت في هذه المصيبة لا يمكنك قول شيء. سيقوم كل واحد منا بدفع خمسين يواناً وإلا سأعلق المشنوقة في غرفتك!» كان لو وانغ يتكلم بلهجة استرضاء لكنها كانت حازمة في الآن ذاته.

كانت عينا شانغ إير حمراوين تماماً بعد أن شرب ضعف كمية الكحول التي يأخذها عادة. فرد عليه باللهجة نفسها: «هذا حسن يا عمي وانغ، تريد خمسين يواناً حسن! سأعطيك إياها! أنت ترى ما أملك، يمكن أن تحمل إلى غرفتك ما يحلو لك. وإذا كان هذا لا يناسبك أبيعك ولديّ الكبيرين! إنهما يساويان خمسين

يواناً تماماً. ستقود والدة الصغير الولدين الكبيرين إلى العم وانغ! إنهما مهذبان كفاية ولن يضايقانك مطلقاً، ليس لديك حفيد هذه مصادفة حسنة، أليس كذلك؟

لم يكن رد كهذا ليرضي لو وانغ. كل ما كان شانغ إير يملكه لا يساوي في مجموعه حتى أربعة قروش. أما بالنسبة للولدين الأفضل تركهما لوالدهما! إنما لايمكن أن يقبل أن يتملص شانغ إير من ذلك دون أن يدفع قرشاً واحداً. بدلاً من خمسين يواناً اقترح عليه ثلاثين. بدأ شانغ إير ينشد مغنياً كما لو أنّه كان سعيداً جداً: «لماذا ثلاثون فقط؟ خمسون أفضل يمكنك أن تسجلها وسوف يدفعون لك في اليوم الذي سيسحقني فيه القطار في الطريق».

شعر العجوز وانغ برغبة في مناداة ولده ليسانده. لكن بما أنّ شانغ إير كان أيضاً متين البنية جداً، لم يكن واثقاً أنّ كسياو وانغ سيغلبه. لم تجرؤ أثناء ذلك زوجة شانغ إير على فتح فيها. لكن عندما رأت الفرصة تلوح لها استغلت الوضع وقالت لتستدرك ما فاتاها: «أنتم يا عائلة وانغ، انتظروا قليلاً! لن أكون امرأة جديرة بهذا الاسم إن لم أشنق نفسي بغرفتكم، انتظروا قليلاً!».

رجل مثقف مثل لو وانغ لا يمكن أن يسمح لنفسه أن يتخاصم مع زوجة شانغ إير، فوق ذلك، أدرك تماماً أن هذه المرأة الشريرة كانت قادرة على فعل أي شيء وليس لديه الرغبة في أن يتحمل مسؤولية شنق أخرى. في نهاية المطاف، لم يستطع ابتزاز أي شيء من شانغ إير واستطاع ذلك الأخير أن يرسم هيئة الانتصار على وجهه.

في الواقع كانت فكرة تدور في رأسه، ومسعاه مع شانغ إير لم يكن إلا تصنعاً. توجه إلى الأجنبي، لكن بما أن ذاك الأخير كان غائباً، ركع العجوز أمام سيدة المنزل ليطلب منها مائة يوان. قدمت له المرأة المال لكن خمسين منها كسلف دون فائدة وسوف تقتطع من راتبه.

عاد لو وانغ إلى منزله مرفوع الرأس.

كلفته شهادة الدفن ثماني يوانات . لكن لا نعرف أبداً ما يمكن أن يحدث فيما إذا لم يجلب عرافاً على الفور . هذا مصروف لا يمكن له أن يتجنبه .

في نهاية الأمر لم تقض الكنة نحبها هباء . لقد ألبسوها ثوباً من الساتان الأحمر من النوع الرديء، وانتعلت حذاء وجوارب جديدين تماماً ومجوهرات مزيفة في شعرها . كلف النعش اثني عشر يواناً . وأتى خمسة رهبان بوذيون ليقرؤوا الصلوات على روحها، إنما في اليوم الثالث بعد الموت[1] . وعلى الرغم من كل جهودها لم تنل عائلة المتوفاة إلا أكثر من أربعين يواناً بقليل عوضاً عن الخمسين التي يلزم على لو وانغ دفعها لها .

على هذا النحو يمكن اعتبار أنّ المسألة قد سويت . مع ذلك كان على إيرنيو أن تحصد نتائج أفعالها . لم تعد تجرؤ على دخول الغرفة، مهما فعلت كانت ترى صورة الكنة وهي معلقة في إفريز الباب، مرتدية ثوبها الأحمر وتمد لها لسانها . سيضطر لو وانغ للانتقال على هذا النحو . لكن من يقبل استئجار غرفة مسكونة بالأرواح . يستحسن أكثر أن يواصل السكن فيها . على هذا النحو لن يحاول المالك معرفة المزيد عن الأمر، بينما إذا رحلوا لا بدّ من دفع تعويضات . المشكلة تكمن في أنّ إيرنيو لا تجرؤ على النوم في هذه الغرفة . في النهاية لم تعد ثمة حاجة إلى غرفتين ما دامت الكنة قد فارقت الحياة، لكن إذا أعادوا الغرفة الزائدة من سيجرؤ على السكن فيها؟ يا لها من مشكلة .

عند ذاك طرأت فكرة جهنمية على بال لو وانغ . لقد فاقم انتحار كنته من حقده على النساء، وأخرجه عن طوره أن يدفع أكثر من أربعين يواناً لعائلة المتوفاة ومثلها من أجل الزواج، هكذا يمكنه أن يزوج ولده مرة ثانية . ما دامت إيرنيو ترفض دخول الغرفة، حسن! هذا أفضل . ما عليها إلا أن ترحل . سوف يحصل من ذلك على مئتين أو ثلاثمئة يوان على أقل تقدير، مما يسمح له بالإضافة إلى الكنة الجديدة أن يوفر بعض المال من أجل نعشه .

(١) يدل عدد الرهبان وقراءتهم للسوترا لمرة واحدة على فقر العائلة .

في معرض حديثه معي طرح المسألة. ظننت للوهلة الأولى أنّه يرغب تزويج ابنته من ابني. كلا، أنه يكلفني بالتحري والبحث عن قروي قادر على دفع المئتين أو الثلاثمئة يوان تلك. لم أرد عليه بشيء. في هذه المرحلة، بدأت الاقتراحات تنهال على كسياو وانغ. إنها فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، ربة منزل ممتازة ولا تطالب عائلتها إلا بمئة وعشرين يوان. أضحى لو وانغ إثر ذلك متعجلاً أكثر ليتخلص من ابنته.

حينذاك قدم المالك. لقد جاء على مسمعه قصة المشنوقة. في الحال تخلص لو وانغ منه: غرفة مسكونة؟ لكني أنا نفسي أسكن فيها. لا يد لي في هذه المسألة! لا أفهم كيف سأتمكن من معاملة كنتي بالسوء وأنا غائب طول النهار. لا يمكن عمل شيء ضد جيران السوء. لو لا تلك المرأة زوجة شانغ إير لما شنقت كنتي نفسها. فضلاً عن هذا لم تعد المسألة تهم كثيراً. عليّ الآن الاهتمام بولدي. لهذا، إذا لم يكن لديّ المال يكفي أن أطلب سلفة من معلمي الأجنبي. ألم يقدم لي مائة يوان من أجل مسألة الشنق؟

استعلم المالك من الجيران بعد أن دفعه لو وانغ بعنف. لا شيء أكثر صحة من ذلك. لقد أتى بالمال من معلمه الأجنبي وبذلك أثار إعجاب الجيران أجمعين. لهذا ترك المالك لو وانغ جانباً لكي يتجنب إغاظة شخص يعمل لدى الأجانب. بالمقابل، ذاك اللئيم شانغ إير لم يقل له ما يفيد: ليس فقط عليه أن يدفع إيجار شهرين فحسب، إنما هو يدع زوجته تروي ما يروق لها من القصص. لذلك طردهما. كل المواهب البليغة التي كانت زوجة شانغ إير تتمتع بها بقيت بلا طائل. لهذا لزم الأمر أن يدفعا الإيجار المتأخر ويرحلا في أقصى سرعة!.

في اليوم الذي انتقل فيه شانغ إير كان ثملاً مثل خنزير.

بقي أن نعرف بكم سيبيع لو وانغ ابنته وأي نوع من النساء سيتزوج ولده! بيننا نحن، يا لها من قصة!

«الثقافة» هي حماقة ظريفة وقد قلت لكم ذلك آنفاً!

المفتش الجديد(١)

وصل يولوإير إلى مقره الجديد.

ما أن رأى المكتب الذي سيعمل فيه حتى أبطأ الخطا. لم يكن المكان فسيحاً وهو يعرفه من قبل، ففي المدينة ثمة القليل من الأمكنة التي لم يدخل إليها، سواء أكان المكان مكتباً أم ماخوراً أم محششة للأفيون. حتى أنّه تذكر أنّه من هذا المكان، إذا كان الباب مشقوقاً قليلاً، يمكن للمرء أن يرى جبل الألف بوذا(٢). عندما باشر وظيفته لم يكن مستعداً بالطبع للتفكير في هذا الجبل. فلديه مهمة عليه إتمامها ولم تكن هذه المهمة من المهمات السهلة! مع ذلك، لم يسمح لشيء أن يظهر قلقه. ألم يسافر كثيراً في كل أنحاء البلاد ولعدة سنوات، ألم يكتسب مقدرة كبيرة على ضبط النفس؟ أخذ يسير ببطء أكبر. إنّه رجل جسيم جداً قد تجاوز الأربعين، تخطُّ وجهه الأصفر والأمرد حواجب كثيفة. كان يلبس ثوباً طويلاً من الصرج(٣) الرمادي بأكمام فضفاضة، وينتعل حذاء من الساتان الأسود بشريط مضاعف. إنّه يمشي بتمهل دون أن ينظر إلى الجبل. لكنه كان يفكر أنّه كان سيفعل حسناً لو وصل بالسيارة. في الوقت ذاته كان يقول لنفسه أنّ ذلك لم يكن ضرورياً ما دام مساعديه الجدد هم جميعاً أصدقاء له وكلهم يعرفون بعضهم البعض. لذلك لا حاجة لأن يخدعهم. بالإضافة لذلك، تقتضي المهمة التي أُوكلت له السرية المطلقة. هذا

---

(١) العنوان الأصلي للقصة باللغة الصينية هو الدخول بعذوبة.

(٢) يقع هذا الجبل في جنوب مدينة جينان في مقاطعة شاندونغ.

(٣) نسيج صوفي متين.

لايعني أنّه كان يشعر بالخوف، لأنّ حسن هندامه المتناسب مع رتبته كمفتش كما طريقة مشيته كانا يدلان على شعوره بالاطمئنان. فضلاً عن ذلك، لم يكن مظهر البذلة شيئاً ضرورياً بالنسبة له، عندما تذكر المسدس الذي كان يخفيه في تجويف حزامه أخذ يضحك في سره.

لم تكن أية لافتة تميز المكتب: لأنّ الأسلحة كانت مخبئة بالداخل مثلما فعل يولوإير. في الواقع، كان المكتب مؤلفاً من غرفتين فقط. لقد شاهد عبر الباب المفتوح أربعة رجال يجلسون على المقاعد يدخنون ورؤوسهم محنية ولا أحد منهم ينظر باتجاه جبل الألف بوذا. فوق طاولة مربعة الشكل تستند إلى الجدار ثمة كؤوس للشاي. على الأرض وضعت غلاية من الصفيح جديدة تماماً، وحولها كانت الأرض مغطاة بأعقاب السجائر وواحدة منها لا تزال تنفث الدخان. عندما رآهم يولوإير يقفون، قال في نفسه مجدداً إنّه كان يلزم عليه المجيء بالسيارة. في الحقيقة، هذه الطريقة في استلام وظيفته ينقصها المظاهر. ذلك لم يمنع أصدقاءه القدماء من الوقوف كما ينبغي. لقد تمازحوا معاً ولم تكن هذه الألفة لينقصها الاحترام. ليس لأنه لم يأت بالسيارة سوف يقللون من احترامه. ثم يلزم القول أنّ مفتشاً ومرؤوسيه هم رجال يعملون في الظل، وكلما قلّ انتباه الناس إليهم كان ذلك أفضل. كان هذا مفهوماً تماماً بالنسبة لهم. لذا شعر بالراحة أكثر.

بقي يولوإير واقفاً لفترة أمام الطاولة مبتسماً للجميع، ثم ولج إلى الغرفة الداخلية. في تلك الغرفة، لم يكن هناك إلا طاولة طويلة، كرسيان وتقويم معلق على الجدار. فوق التقويم ثمة أثر لدم بقة. كان المكتب خاويا أكثر مما ينبغي. فكر يولوإير لكنه لم يتوصل إلى ما يجب إضافته... أحضر له المعاون زو كأساً من الشاي تعوم فيه ساق نبتة واحدة[1]. لم يكن لدى الرجلين ما يتحدثان عنه ومسح يولوإير جبهته. آه! لقد وجدها، كان ينقص الغرفة حوض يغسل فيه المرء وجهه، وهو لم يطلب من معاونه أن يشتري واحداً. هذا يستحق التفكير: أموال المكتب بين يديه

(١) يدل هذا على حسن طالع المفتش الجديد.

هو، هل يلزم أن يصرف المال تحت مسمع ومرأى الجميع، أم عليه الاحتفاظ به كله لنفسه؟ كان راتبه الخاص مائة وعشرين يواناً والمال المخصص لمصروفات المكتب ثمانين يواناً. لم يكن حتى مبلغ إضافي كهذا كثيراً على مهنة خطيرة كهذه. لكن في نهاية الأمر يجازف المعاونون بحياتهم أيضاً. فوق ذلك هم أصدقاء قدماء. ألم يأكلوا ويشربوا معاً لعدة سنوات، ألم يتقاسموا السرير نفسه في مواخير الريف؟ لايمكنه أن يضع المال كله في جيبه. خرج المعاون زو. في الواقع، عندما كان لو زو الرئيس هل اغتصب المال كله. احمرّ وجه يولوإير. من الخارج كان المعاون يلقي نظرة. هذا العجوز، على الرغم من سنواته الخمسين لم يعد إلا مجرد معاون له، بينما منذ ثلاث سنوات فقط كانت خمسون بندقية تحت إمرته. كلا، يجب عليه ألا يضع في جيبه المبلغ كله. لكن حسناً، لماذا هو الرئيس إذن؟ وكيف يوزع الثمانين يواناً؟ مرة أخرى، عندما كانوا هم الرؤساء كان ذلك يحدث في الجبل[1]. على الرغم من أنّ يولوإير كان على احتكاك دائم معهم إلا أنّه لم يصعد في يوم الى الجبل رسمياً، هذا هو الفرق. هم، لنقل بصدق كانوا من قطاع الطرق بينما هو كان موظفاً. وعندما يكون المرء موظفاً يلزم عليه التصرف كموظف. بما أنهم قد عادوا إلى الطريق القويم يجب تسوية القضايا الرسمية كما يجب والثمانين يواناً التي تعتبر كمصروفات للمكتب يلزم أن تعود إليه. غير أنّ هذا لا يمنع أنّه يلزم شراء حوض ومنشفتين أيضاً.

خارجاً عن هذه المشتريات ثمة أمر آخر عليه أن يفعله كما بدا له. على سبيل المثال يلزم على المفتش قراءة الصحف وإصدار أوامره لمرؤوسيه. يلزمه إذن صحيفة. إن قرأها أم لا، لا يهم. المهم هو القدرة على إظهارها. بالنسبة لإعطاء الأوامر كانت لديه تجربة في ذلك كونه كان معاوناً ثم مفتشاً في الجمارك. أجل، يقتضي الأمر إعطاءهم توجيهاته ليدلّ على مباشرته لمهامه. ثم أنّ مرؤوسيه كلهم كانوا قد عاشوا في الجبال وعند الحاجة كانوا جنوداً، كيف يمكن له أن يثير إعجابهم

(١) ملجأ تقليدي للخارجين عن القانون.

إذا لم يكافئهم ببعض الكلام المعسول؟ خرج لو زو. لم يتوقف لو ليو عن السعال، حتماً من الضرورة بمكان أن يلقي خطاباً عليهم فقط لمجرد تذكيرهم بالنظام. تنحنح يولوإير ثم توقف. أراد أن يمسح وجهه لكن لا ثمة حوض أو منشفة. لذا جلس مجدداً. أيلقي عليهم خطاباً، أجل لكن ماذا يقول لهم فيه؟ ألم يسبق لهم أن فهموا ماهية الأمر عندما استدعاهم؟ لن يقوم على أية حال بإعادة ما قاله في السابق لـ لو زو ولو ليو، ولو وانغ ولو شو " «يو لو إير بحاجة لكم وأستطيع أن أقول لكم إنّه ما دام يو لو إير يحصل على قصعته من الأرز، لن يموت أحدكم من الجوع. ألسنا نحن أخوة؟ لقد ذكر على مسامعهم هذا الحديث عدة مرات، فما الفائدة من تكراره إذن؟ بالنسبة للمهمة التي كانت تنتظرهم جميعاً، عبارة عن إيقاع قطاع للطرق في الفخ بوساطة قطاع للطرق. لهذا اتفاق ضمني بينهم كان كافياً. لا فائدة من وضع النقاط على الحروف. لا شيء يهم سوى المعدة وكذلك الرأس. إذا كانوا يرغبون في أن تنجح العملية يلزم تماماً أن يضحوا ببعض الأصدقاء من وسطهم. وفي هذه الحالة، يمكن لـ لو ليو والآخرين أن يديروا أسلحتهم باتجاهه. من الضروري أن يبقي عينه يقظة بينما هو يغلق الأخرى، إذ لا مجال للتخلص من الأمر بضربة واحد. فالجميع سيلتقون في يوم أو في آخر. هذه أشياء لا يمكن البوح بها علانية. في هذه الظروف كيف يمكن إلقاء خطاب عليهم؟ يكفي أن يشاهد المرء عيني لوليو ليعرف أنّه حتى بعد موته ستبقيان مفتوحتين على الدوام. تدل المساعدة التي سيقدمها له زملاؤه على مقدار شجاعتهم. لا يمكن أن نمسح بضربة واحدة قواعد الجبل كلها. لقد كلفه القائد يو لو إير أن يلقي القبض على المتمردين. حسن، لكن ماذا لو كان هؤلاء أصدقاءه؟ لم يكن يجهل أنّه يواجه خصماً عتياً. الأمر ليس سهلاً بالنتيجة.

نزع يولوإير ثوبه من الصرج الرمادي وخرج وهو ينظر إلى الجميع مبتسماً.

«يا رئيس!، امتلأت عينا يو ليو بالاحتقار تجاه سيده، هيا، نحن بانتظار أوامرك».

هز يو لو إير رأسه. يلزم عليه أن يظهر لهم علي أي شيء هو قادر. «انتظروا

حتى أضع قائمة بعدها سنكتب تقريراً عن عملياتنا للقائد لي. ألم أشرح لكم الوضع سلفاً البارحة وقبل البارحة أيها الشباب؟ نحن هنا لنساعد القائد لي في إلقاء القبض على المتمردين. لقد بحت لكم إنّ القائد قد استدعاني ليقول لي «بما أنني جديد في المنطقة، فكرت بك يا يولوإير، أنت من يمكنه أن يساعدني». سأكون فظاً إذا ما رفضت ذلك. نحن أصدقاء منذ زمن طويل، القائد لي وأنا. لفرط التفكير بالأمر وصلت إلى حل. ماذا أقول؟ فكرت بكم لأنني إذا كنت أعرف المكان جيداً، فأنتم تعرفونه بأدق تفاصيله. ورأيت أنّه في حال تعاوننا فإنّ الأمر سيسير بكل سهولة!

أيها القائد، قلت له حينذاك، يمكنك الاعتماد عليّ، أنت تشرفني بإعطائي عملاً فكيف يسعني أن أرفضه؟ حسن أيها الشباب، ليكن في معلومكم أنّ القائد لي لا يمكنه عمل شيء دون يولوإير، وأنا لا يمكنني عمل شيء بدونكم. الصورة واضحة تماماً. سأقوم بوضع قائمة وسيهتم واحد منكم بمكان وآخر بمكان ثان. وعندما يجهز كل شيء سأرسل تقريري ثم ننتقل إلى الفعل. على هذا النحو تعالج القضايا الرسمية، أليس كذلك؟ سأل يولوإير وهو يضحك.

لم يفتح لو ليو فاه وكذلك الآخرون. غمز لو شو بعينه، إنما لم يكن أحد منهم يبدو منزعجاً حقاً. كان لمصلحة يولوإير ألا يضيف شيئاً، بذلك لم يبق أمامه سوى أن يحرر قائمته. لقد فكر أنّه إذا ما أظهر مهارته في الريشة فسوف يثير إعجابهم بشيء ما أي لوليو والآخرين. في تلك السنة عندما خطف ليوشو الولد الثالث من عائلة مينغ النبيلة، ألم يكن هو، يولوإير من حرر رسالة الفدية؟ أجل، عليه أن يظهر موهبته في الكتابة. لكن أين هي الريشة والحبر؟ آه! حتماً لا يمكن للمرء أن يحصل على المال من هكذا مساعدين! «لوزو!» فكر يولوإير بإرسال لوزو لشراء ريشة لكنه في نهاية الأمر لم يقل شيئاً. لماذا كان سيطلب من لوزو بالذات أن يذهب للتسوق؟ عندما يتعلق الأمر بالمال وبتكليف أحد ما بشراء الأشياء، لا يكون المرء حذراً بما فيه الكفاية. وعندما يتعلق الأمر بمسألة رسمية لا يمكن للمرء أن

يسمح لنفسه بأدنى أشكال التهاون. نحن لسنا على الجبل. يجب أن توزع الأعمال بعدل بين ذاك الذي سيذهب للتسوق وذاك الذي سيحمل البريد. لكن ذلك ليس بالأمر السهل. لأنّه بإمكان الأول أن يحسم شيئاً لنفسه بينما يركض الآخر من أجل لاشيء. والحال هذه، من يكلف بهذه المهمة الصعبة؟ «آه! كلا، لا أريد شيئاً». لننتظر قليلاً على شراء الريشة، قال في نفسه سنرى لاحقاً.

شعر يولوإير بعدم الارتياح قليلاً. لم يتخيل في يوم أنّ عمل المفتش يكون مرهقاً هكذا. إنهم لا يدفعون بسخاء لهذا المنصب، وبالثمانين يواناً المخصصة لمصروفات المكتب سيزداد مدخوله قليلاً، لكن لا يمكنه أن يخص لنفسه المبلغ كله. لقد أقام معاونوه كلهم في الماضي على الجبل، فإذا بدا لهم بخيلاً جداً، يخشى أن يتلقى رصاصة في جسده وهذا ليس بالأمر الغريب جداً. عندما يكون أتباع موظف من قطاع الطرق فإنه يدير لعبة هي بالفعل خطيرة. نتساءل حقاً ما إذا كان للأمر علاقة دوماً بموظف. لكن بلا قطاع للطرق لا يمكن للأمر أن يتم لأنّ يولوإير كان غير قادر بالفعل على الإمساك وحده بالمتمردين. بذلك لا يكون قد حقق شيئاً! لمس يولوإير مسدسه الذي يحمله في حزامه. «هل تحملون بنادقكم أيها الأخوة؟»

اكتفى الجميع بهز رؤوسهم.

«يا لخيبة الأمل، هل أضحى الجميع خرساناً؟» قال المفتش الجديد في نفسه. علام يدل ذلك؟ هل هذا يدل على إعجابهم به أم على خوفهم منه؟ هذه الحركة لاتبدو له ودية، حقاً ليست ودية. إذا كان لديهم ما يقولونه ما عليهم سوى أن يفعلوا. هذا لوليو على سبيل المثال، إنّه بغيض حقاً! أخذ يولوإير بالضحك مجدداً. إنهم لا يأخذون الأمر بجدية عندما يتعلق الأمر بموظف. مع هذه العصبة، يملك الموظف وأمثاله القليل من الحظ في إنجاح مهمتهم. لربما يسعدهم شتيمة نابية؟ إنه لا يجرؤ لأنّه ليس بقاطع طريق حقيقي. كان يعرف أنّه في وضع خطير متأسفاً ألا يكون هو نفسه قاطع طريق حقيقي لكنه يهنئ نفسه في الآن ذاته على كونه رئيسهم. لا يمكن لأياً كان أن يكون موظفاً. أشعل لفافة وبحث عن فكرة يداهن بها

هذه العصبة من الخبثاء. من المستحسن أن يقدم لهم مأدبة فاخرة دون أن ينفق كل المال المخصص لنفقات المكتب.

- هيا أيها الأصحاب، سنذهب إلى مطعم السعادة.

لبس يولوإير من جديد ثوب الكتان الرمادي. انشق وجه لوزو مثل حبة يقطين ناضجة جداً. لاح شق يشبه ابتسامة في الفم الحجري الذي قام يولوإير بنحته لخمسين عاماً مضت. بينما بدا لو وانغ ولو شو وكأنهما قد عادا إلى الحياة بكل بساطة. تلمظ الجميع بصمت وقد امتلأت أفواههم باللعاب.

عند وصولهم إلى المطعم، طلب كل واحد منهم ما كان يرغب به ما دام الأمر كان بين أصدقاء ولا داع للكلفة. لقد كانت الأطباق الأغلى ثمناً في لائحة الطعام. وفوق ذلك طلب لو ليو حصته مضاعفة. أثناء الطعام، ظن المدعوون أنّ لحظة الحديث قد حانت. من الطبيعي أنّ أول من باشر الحديث هو لوليو كونه الأكبر سناً. فوق خديه الحجريين كانت صحيفتان حمراوان تنبسطان لكنه لم يتمكن من فتح فمه قبل أن يشرب أولاً جرعة أخرى من الخمر ويتناول قطعة أخرى من لحم الخنزير ويسحب نفساً من لفافته: «حضرة المفتش الرئيس، جال النظر في الحضور، الأفيون والدعارة السرية، كل ذلك تحت أيدينا، لكن علينا أن نعامل أولئك المتمردين المزعومين بحذر ونعرف ما نحن مقدمون عليه. فإذا كانوا يفعلون ذلك لكي لا يحترموا العدل الذي هو عدلنا فهذا لا يستحق العناء. خاصة بالنسبة لأشخاص حقيرين كهؤلاء!.

رد يولوإير وقد جعله الكحول أقل وجلاً:

- كلا الأمر ليس على هذا النحو. يجب أن تفهم الأشياء يا أخي ليو. إذا كان القائد لي قد عيننا نحن بالذات، فذلك لكي نقبض على المتمردين. ثمة الكثير منهم فإذا لم نستعجل إلقاء القبض عليهم لا يمكننا بعد ذلك الاعتماد على القائد لي. سوف تتم إقالته وعندها ماذا سيحل بنا؟

تدخل لوزو بالحديث وهو ينشر نفساً يعبق بالخمر والتبغ :

- إذا ألقينا القبض عليهم وقتلنا بعضاً منهم، يجب ألا ننسى أننا إذا كنا مسلحين فهم كذلك أيضاً! ومن يضمن لنا أن نحصل دوماً على الخبز من هذا العمل؟ بقوله هذا لم يكن الخوف هو الذي يدفعه لقول ذلك.

- الجبناء هم أشخاص ضعيفون! وجد لو شو الكلمة المناسبة فوراً.

- إنهم ضعفاء قذرون! زايد لو شو. أنا لست جباناً على الإطلاق. أريد فعلاً أن أساعد القائد لي. لكن العدل هو العدل! ما تقوله لنا يا يولوإير هو الصواب وأنا لا أنسى الخدمات التي قدمتها لنا، لكن إذا كانت علاقاتك الخاصةوالعامة أكثر اتساعاً من علاقاتنا لما صعدت أبداً إلى الجبل.

- هل تظن أنني لا أفهم أبداً؟ ضحك لويوإير هازئاً وهو ينظر إلى العدم.

- لا أحد يجرؤ على قول أشياءكهذه! لاحظ فجأة وانغ اكسياوس الذي يملك فماً أشبه بثمرة الكرنب.

- في هذه الشروط أيها الشباب، أراد يولوإير إخجالهم، إذا أردتم مساعدتي فأنتم أصدقاء وإلا فهذا سيان عندي! ضحك ساخراً من جديد وقد ثبت نظره في السقف.

- أيها المفتش الرئيس، إنّه أيضاً لوليو الذي يباشر الحديث -الدنئ ذو النظرة الغاضبة دوماً- يمكننا الذهاب إلى هناك جدياً، لكن في هذه الحالة لن نكون نحن إلا منفذين. الرئيس هو أنت وكل المسؤولية ستقع عليك. نحن بين أصدقاء ولايلزم أن يكون بيننا غموض أو التباس. إذا قلت لنا أن نقبض عليهم هذا سهل، بالنسبة لنا لا ثمة مشكلة.

تجمد الطعام الذي كان يولوإير قد تناوله في معدته. هذا بالضبط ما كان يخشاه. إذا نجح معاونوه في ضربتهم يمكنه أن يدعي أنّله الفضل الأول في ذلك، لكن إذا قام المتمردون بإطلاق الرصاص عليهم سيكون هو أيضاً هدفهم الأول.

من جهة أخرى كان يقول لنفسه: لا ثمة سبب يدفعه للشعور بالخوف مسبقاً. سيرى عندما يحين الوقت كيف ستسير الأمور. من ناحية، لا ثمة ما يمتع في أن يفكر بأنهم سيطلقون النار عليهم، لكن من جهة أخرى كان احتمال المكافأة يملأه بالنشاط. لقد سافر يولوإير كثيراً ليعرف أنّه في أي عمل كان، من يضرب أولاً يكون دوماً هو الغانم. لذلك عليهم بكل صراحة الذهاب إلى هناك. كان يقول لنفسه أيضاً، إنّه بعد أربعين عاماً ونيف ما لا نفعله لأنفسنا نقوم به على الأقل من أجل أولادنا! أشخاص مثل لو ليو والآخرين لا يهتمون أبداً بالغد. بعد أن قضوا حياتهم كلها يتخبطون في اللا مساواة لن يكون لهم حتى مكان في المقبرة. بينما هو، يولوإير، هو ماكر يعرف إلى حد كبير الخدعة ليدع اعتراضات من واحد مثل لوليو توقفه عما ينويه. عند هذه الفكرة قرر الانتقال إلى العمل. يلزم عليه مساندة القائد لي. ومن يدري بعد عدة غارات ناجحة لربما يُعين في مركز القيادة. عندها يمكنه من بين ميزات أُخر أن يخرج بالسيارة. لن يقضي حياته كلها بالذهاب إلى المكتب على القدمين.

بعد تناول الحساء تهدأ المعَد والأمزجة عامة. لذلك عندما قدموا لهم الثريد ذا المذاق الفريد كانوا جميعاً أكثر هدوءاً. على الرغم من أنّ يولوإير ما يزال حازماً جداً إلا أن كلماته أضحت أقل قسوة:

- في نهاية الأمر أيها الشباب ما الذي يمنعكم من مساندتي؟ يكفي أن تجدوا أحداً مسالماً وتقبضوا عليه. إنها غلطته. يتطلب الأمر منا أن نظهر قليلاً ما نحن قادرون عليه. بيننا، عندما نحمل بنادق حربية لا يكون لاصطياد المومسات السريات أي معنى. سأريكم كيف سنباشر العمل. في البداية سنقبض على بائس لا نخشى من جانبه أي خطر. وعندما تسوى المسألة سنرى. سوف نلتقي هنا. لحم الخنزير الطبيعي ليس سيئاً أليس كذلك؟

- نحن الآن في الخريف، بعد ذلك سنطلب لحم خنزير بالصلصة الداكنة. قال وانغ كسياوسي. كان قليلاً ما يتكلم لكنه يتكلم بفصاحة.

قرر لويولير أن يبقى وانغ كسياوسي معه في المكتب ويرسل الآخرين ليقوموا بتحقيقاتهم. في نهاية الأمر ليس من الضروري أن يحرر من الآن القائمة، سوف ينتظر عودتهم ليقوم بكتابة تقريره. في الحقيقة، يقتضي الأمر شراء رياش وعصي وحجر حبر وأيضاً حوض للاغتسال. سوف يذهب بنفسه لشراء هذه الحاجيات كي لا يثير غيرتهم.

يلزمه كذلك أمين سر، لكنه نسي أن يطلب ذلك من القائد لي. سوف يتكفل مؤقتاً بنفسه بهذا العمل ولن يطالب بأمين سر إلا عندما تنتهي المهمة الأولى. لايجوز أن يعرقل المرء الأمور. بل أنّ يولوإير لديه مخطط. لقد سمع أقوالاً بأنّ ابن عمه الثاني يعرف الكتابة، ما عليه سوى أن يعطيه توصية يمكنه بواسطتها أن يتعين كأمين سر. ممتاز! بالنسبة لليوم الأول لتقلده الوظيفة لا يمكن القول إنّه قام بذلك على نحو سيء.

على طريق العودة أخذ يثرثر مع وانغ كسياوسي حتى نسي تماماً المشتريات التي عليه إنجازها. لم يكن مظهر المكتب يوحي بأنه مكتب، غير أنّ الأمر في الواقع لم يكن سيئاً إلى هذه الدرجة، لأنه عندما يتعلق الأمر بالكتابة، يختلق المرء أفكاراً كثيرة، يظن أنّه يستطيع الكتابة بلا انقطاع، وعندما يحين الوقت تخذله تلك الكلمات الشيطانية.

ينقص المرء دوماً ما هو بحاجة له بالضبط! لذلك من الأفضل ألا يكون لديك ما تكتب عنه، هكذا يسير الأمر على نحو جيد أيضاً. لكن كيف يهتم بالأمر؟ يلزم عليه الذهاب لشراء الصحيفة فقط لمجرد النظر إلى الصور الإعلانية. لا يمكن ليولوإير أن يمضي وقته كله في الحديث مع وانغ كسياوسي. كانا صديقين حميمين حتماً، لكن بما أنّ أحدهما هو الرئيس والثاني هو المرؤوس من المناسب الاحتفاظ ببعض الحدود. لم يبق له ما يفعله. لقد وقف طويلاً عند عتبة الباب وشرب ما يكفي من الشاي، ولن يقوم بتقليب أوراق مفكرته للمرة الثالثة. لهذا قام يولوإير بحساباته الخاصة التي كانت مبشرة للغاية: مقدار راتبه مئة وعشرون يواناً، ثمانون

مصروفات المكتب، يمكنه أن يحصل على الأقل على مئة وخمسين يواناً، حتى لو لم يضع كامل هذا المبلغ في جيبه. شيئاً فشيئاً يمكنه أن يشتري منزلاً صغيراً لنفسه. يقولون إنّ ذلك الوغد شانغ إيرغو قد قبض مئة ألف يوان مقابل بعثة واحدة مع زانغ زونغشانغ[1]. أعمال كهذه لم يعد ثمة منها لسوء الحظ. في نهاية الأمر المتمردون كانوا هم أنفسهم. لكن ليس العالم كله مثل شانغ إيرغو يصون بعناية رأسماله. غالباً ما يفقد المال المرء عقله. تذكر يولوإير العشرين أو الثلاثين ألف يوان التي حصل عليها من الجمارك. أين ذهبت كلها؟ ليس مدهشاً أن يكون ثمة متمردون، إنهم معتادون على الطعام والشراب والمرح بلا حدود، لم يعد بإمكانهم إطلاقاً أن يتحملوا تناول أرغفة الخبز من جديد في كل الأيام. في الواقع كانوا كلهم بما فيه يولوإير نفسه، حتى يكون المرء صادقاً، ينتظرون شيئاً واحداً: عودة القائد الأعلى زانغ زونغشانغ وهذا طبيعي! تذكر دينغ سانلي الذي وضع جانباً لنفسه فقط صندوقين من الأوراق النقدية المخصصة للعسكريين[2]. كان يكفي أن يعود زانغ وتُفتح الصناديق حتى يحصل على ثروة في الحال. هل يوقف المتمردين؟ لم يعد ذلك ممكناً لأنهم كانوا أصدقاء قدماء له. لكن في الوقت ذاته، لقد دفعوا له ليقوم بذلك، لذلك يقتضي الأمر إيقافهم. ما دام لا ثمة شيء يعلن عن العودة القريبة للجنرال زانغ، على كل واحد أن يقوم بدوره لحسابه الخاص وسوف يُوقف بعضاً منهم ويقوم بإعدامهم! لم يصعد يولوإير إلى الجبل أبداً وهذا يشكل على أية حال فرقاً هاماً.

تجاوزت الساعة الرابعة ولم يعد لوليو والآخرون. هل ذهب بالفعل الرجال الثلاثة للتحري أو أنهم بكل بساطة يتسلون؟ قال يولوإير في نفسه أنه يلزم عليه لاحقاً أن يحدد ساعات العمل في المكتب، وأنه لزاماً عليهم أن يكونوا في المكتب

---

(١) سيد حرب مشهور خدم في شاندونغ في العشرينيات، يقال عنه إنه كان يجهل ثلاثة أمور: عدد زوجاته ومقدار ثروته وأعداد جنوده.

(٢) في ذلك العصر كان كل سيد للحرب يطبع عملته الخاصة ولا تستعمل الأموال إلا في المنطقة التي يحكم فيها.

عند الساعة الرابعة والنصف ليقدموا تقريرهم. فإذا لم يعودوا إطلاقاً سيكون وضع المكتب مزرياً! هذا مزعج حقاً. بدونهم لا يمكنه عمل شيء وعندما يكونون معه لايقوم إلا بإزعاجهم. لا يمكنه انتظارهم إلى ما بعد الخامسة. بفتح المكتب أبوابه عند الساعة الثامنة صباحاً ويغلق عند الخامسة بعد الظهر. على المعاونين أن يكونوا جاهزين في الأوقات كلها، حتى في منتصف الليل، عندما يتعلق الأمر بإلقاء القبض على أحد ما. لا يمكن لرئيسهم على أية حال أن يمضي سحابة نهاره في انتظارهم. عليه تنبيههم إلى هذه النقطة، غير أن الموضوع حساس في عرضه. عندما تذكر أنه رئيسهم، لن يقوم يولوإير بإزعاج نفسه بشكوك كهذه. استدعى في الحال وانغ كسياوسي. كان ذلك الأخير يتذمر، لكننا لا نعلم تمام العلم إلامَ يرمي من وراء ذلك.

«الخامسة!» نظر يولوإير إلى جبل الأربعين بوذا. كانت القمة متوجة بأشعة الشمس، لكن عشب الخريف تحت ضوء الشمس الذهبي كان لا يزال يبدو أخضر اللون. «احرس المكتب جيداً يا لو وانغ، وإلى اللقاء عند الساعة الثامنة صباحاً!».

حافظ وانغ كسياوسي على فمه الكرنبي الشكل مغلقاً بإحكام.

في اليوم التالي تقصد يولوإير الذهاب متأخراً نصف ساعة. إنها مسألة امتياز لأنّه لو كان الوحيد الذي سيصل باكراً فسيسخرون منه.

كان مساعدوه كلهم قد وصلوا بالفعل. إنهم يجلسون كالمعتاد فوق المقاعد يدخنون ورؤوسهم منخفضة. عندما وقع نظره على هذه العصبة من الرمامة، شعر يولوإير برغبة في إمساك واحد منهم فقط ليوسعه ضرباً. بعد أن ولج الغرفة وقفوا مثل اليوم السابق إنما ببطء أكثر حتى يظن المرء أنهم كلهم يشكون من مرض ما في أرجلهم. كان يلزم على يولوإير أن يوبخهم لكنه أخذ بالضحك لأنّ ذلك كان يزعجه. بما أنه رئيسهم يتوجب عليه أن يكون كريماً ومتسامحاً. بالنسبة لرجل خبيث مثله كان موقف اللا مبالاة والاسترخاء يفرض نفسه.

- إذن يا لو ليو، هل أمامنا عمل كثير نقوم به؟ قال ذلك بشكل طبيعي جداً ولطيفاً جداً وحافل الطلاوة! هنأ يولوإير نفسه على هذه الكلمات.

- نعم لدينا ما نفعله! رد لو ليو بفمه الذي يشبه دوماً باب السجن وبنظره الثاقب، لكنني لم أنجزه.

- كيف ذلك؟. سأل يولوإير ضاحكاً.

- هذا لا طائل منه! سيأتون بأنفسهم خلال برهة.

- آه! أراد يولوإير مواصلة الضحك لكنه لم يتوصل إلى ذلك. وأنتما؟ قال موجها الحديث إلى لوزو ولوشو. هز الاثنان رأسيهما معا دليل النفي.

- هل سنخرج اليوم أيضاً؟ سأل لو ليو.

- آه! انتظروا لحظة! دخل يولوإير إلى الغرفة الخلفية «سوف أفكر» أدار رأسه وألقى نظره عليهم. كانوا كلهم جالسين عيونهم تحدق بطرف لفافتهم لا ينبسون بحرف. يا لهذه العصبة من الرمامة!

عندما أصبح وحيداً جلس يولوإير بدوره، لكن قلبه كان ينبض بقوة. هل صحيح أنهم سيأتون بمحض إرادتهم؟ لا يمكنه أن يستجوب لو ليو عن التفاصيل دون أن يتراجع عن موقفه ويفقد ماء وجهه أمام معاونيه. لكن ماذا يعني هذا أن يأتوا بمفردهم؟ بما أنه كان مستحيلاً مناقشة ذلك مع لو ليو لم يبق أمامه سوى الانتظار. هل يتوجب عليه إرسال لوليو والآخرين. عليه أن يقرر ذلك. هه، لوشو، سوف تذهب إلى وجهتك وتفتح عينيك جيداً، هل فهمت؟ كان يتوقع أن ينفجر الجميع بالضحك معجبين بجرأته ودعابته. لكن لم يضحك أحد قط. «انتظر يا لوليو قليلاً قبل رحيلك. ألن يأتوا لرؤيتي؟ سوف نكون نحن الاثنان برفقتهم. سنكون بين أصدقاء قدماء. «توقفت أوامره عند هذا الحد لأنه من المستحسن ألا يذهب لووانغ ولوشو أبداً، عندما يكون المرء بين أشخاص كثر تزداد شجاعته. لكن ماذا لو رغبوا في الرحيل، سيكون من غير اللائق منعهم عن ذلك. في مهنة مثل مهنتهم على المرء أن يقوم بدوره بكل ذكاء. من الأفضل الانتظار حتى يطرحوا السؤال وعندها سوف يتحدثون في الأمر. لم ينبس لوزو ولوانغ ببنت شفة. هذا

أفضل بكثير. كم واحداً سوف يأتي؟ ما أن كادت الكلمات تصل إلى فمه حتى اختنقت في حنجرته. على أية حال، لدى يولوإير ثلاثة معاونين في المكتب وكلهم مسلحون. إذا أتت زمرة بأكملها ما عليه سوى أن يغلق عينيه ومن ثم، تفه، سنرى ذلك!

بينما كان ينتظر لم تكن لديه صحيفة بعد. بالنسبة لموظف هذا يتجاوز الحد! لا يمكنه أن يتحمل انقلاب الأدوار، أن يكون هو المفتش الذي ينتظر المجرمين. فكر أن يتصل بمركز القيادة ليرسلوا له تعزيزات، هكذا يستطيعون بتتابع وصولهم أن يقبضوا عليهم واحدا واحدا وإعدامهم كلهم بالرصاص. ومن ثم، كلا، قال في نفسه إنه لا يلزم عليه أن يتحمس بل عليه التصرف حسب الظروف. أصبحت الساعة التاسعة والنصف.

- أنت يا لوليو، متى سيأتون؟

- لن يتأخروا في الوصول أيها الرئيس! هذا الدنيء لوليو يتعمد أن ينظر إليه بتهكم.

- الصحيفة! قل للبائع أن يرسل لي واحدة. يلزم على يولوإير أن يقرأ قطعاً الصحيفة.

في جريدة الصباح بحث يولوإير عن الأخبار المحلية، إنه يضحك بقوة حتى لم يعد يستطيع القراءة إلا بصوت عال. فجأة وقع نظره على اسم عاهرة لها شخصيتها، اسم غريب لنادلة، اسم غريب لم يكن يعرفه أبداً. عندما وقع عليه وهن صوته فجأة.

- أيها الرئيس! لقد وصلوا. احترم لوليو الأصول لمرة.

لم يتردد يولوإير. ترك النادلة ذات الاسم المستحيل ولم يرفع حتى صوته:

- ادخلوا! قال وهو يجس مسدسه.

دخلوا جميعهم بالتتابع. على رأسهم كان يانغ الكبير يتبعه مباشرة الحواجب

الجميلة الذي كان هو أيضاً شديد البأس. بين الاثنين كان القرد يبدو صغيراً جداً. ثم ماليو وذو الفم الكبير وشانغ فيه بوجهه الشاحب.

- يولوإير! سلم الجميع عليه.

وقف المفتش غير قادر على التظاهر بعدم معرفته بالعصابة، وقد رسم ابتسامة فوق شفتيه. كانوا يتحدثون كلهم معا، وقد أحدث ذلك ضوضاء شديدة لدرجة أنهم على الرغم من صياحهم الشديد لم يعد أحد يعرف ماذا كان غيره يرغب أن يقول.

- تحدث يا يانغ الكبير باسم الجميع! لنستمع إلى يانغ الكبير! عندما توصلوا شيئاً فشيئاً إلى صيغة للتفاهم، أخذوا ينصحون بعضهم بعضاً، لنسمع ما سوف يقوله يانغ الكبير!

انحنى يانغ الكبير إلى الأمام مقطباً الحاجبين وقد أسند يديه إلى الطاولة وفمه يكاد يلامس أنف المفتش.

- أتينا نحن لنقدم لك التهنئة يا يولوإير.

- اصمت. قال شانغ فيه ذو الوجه الشاحب وهو يضرب القرد بقبضته في الظهر.

- تهانينا، لكن الذي يهنيء يقوم بالدعوة أيضاً. طبيعي أنه يتوجب علينا نحن دعوتك لكننا في الوقت الراهن لم يعد حتى بإمكاننا ذلك! قال يانغ وهو يشكل دائرة بإبهامه وسبابته. بالنتيجة عليك أنت أن تدعونا.

- هذا صحيح أيها الأخوة! أراد المفتش الرد لكن يانغ الكبير لم يدع له الوقت لذلك.

- لا فائدة ترجى يا يولوإير من إرسال ورق مقوى لتدعونا إلى المطعم. ما نريده هو التالي. ومن جديد شكل دائرة بإبهامه وسبابته. ستقدم لنا المال من أجل السفر، هذا كل شيء!.

- المال من أجل السفر؟ سأل يولوإير.

- أجل! هز يانغ الكبير رأسه وهو يرسم على وجهه كذباً هيئة حالمة. أنت تعرف يا يولوإير أن لك اليد الطولى في المنطقة. نحن الآخرون، الزملاء، لم يعد بإمكاننا القيام بعملنا. لكننا أصدقاء وقد لذنا بالفرار منذ وصولك. لا يمكننا أن ندع الفتنة تفرق بيننا. أنت، أنت تقوم بعملك كمفتش، ونحن، نحن نعود إلى الجبل. مصاريف النقل هي من شأنك. هكذا نفترق بعلاقة طيبة. التفت يانغ الكبير على هذا النحو صوب الآخرين واستشارهم قائلا: هل أنتم موافقون؟.

- نعم، موافقون جداً! قال على الفور القرد. الآن ينبغي على يولوإير أن يرد علينا.

لقد توقع المفتش الجديد كل شيء عدا ذلك. حل بسيط كهذا يفوق الخيال لكنه معقد جداً في الآن نفسه. في الوقت الحاضر لم يكونوا سوى ستة يطالبون بمصاريف السفر. لكن ماذا لو أتى العشرات وحتى المئات، وكلهم يطالبون بالشيء عينه؟ مرة أخرى، كان أمر القائد لي إلقاء القبض عليهم. إذا اكتفى بإرسالهم بكل لطف الواحد إثر الآخر مع المال من أجل السفر، كيف سيكون موقفه؟ ومن أين سيحصل على المال؟ أن يطلبه من رئيسه لم يكن ذلك وارداً. ولن يقوم على أية حال بتخصيص راتبه كله مع مصروفات المكتب لهذه الغاية؟ في الوقت ذاته، قال في نفسه أن هؤلاء الأشخاص كانوا في نهاية الأمر يتصرفون بشكل لائق. إنهم يحاولون الحفاظ على ماء وجهه «لقد لذنا بالفرار بسبب وصولك» الجملة بسيطة ومباشرة وتكاد تكون ودية. لكن كي تكون القضية سهلة على هذا النحو يلزم أيضاً أن يقبل أحد بدفع المال. دعا الجميع إلى شرب الماء والابتسامة فوق شفتيه. لكن إذا ما رفض عرضهم سيجازف بإثارة غيظهم. إنه يخشى أن تتحول كلماتهم الودية حتى الآن إلى كلمات مرعبة. إنه واثق من كلمتهم، لكنهم لن يرحلوا دون أن يحصلوا على مالهم. تلك اليوانات الثمانين كمصروفات للمكتب لا بد أن تنفق في

ذلك . يجب أيضاً أن يبدو عليه أنه يعطي المال عن طيب خاطر لأن أقل تحفظ من طرفه سيثير غضبهم .

- كم يلزمكم أيها الأصدقاء؟ قال بهيئة مترفعة .

- عشر يوانات لكل شخص . رد يانغ الكبير باسم الجميع .

- إنه فقط مصروف الرحلة ، عندما نصل إلى الجبل سنتدبر أمرنا . أضاف القرد .

- سنرحل اليوم بعد الظهر ، نعاهدك بصداقتنا ! وعد ذو الفم الكبير أيضاً .

لكن لا يمكن ليولوإير أن يقدم هذا المبلغ دون تردد . عشر يوانات لكل شخص يعادل ستين يواناً ، أي ثلاثة أرباع مصاريف المكتب .

- يولوإير ! قال شانغ فيه ذو الوجه الشاحب بنفاذ صبر . ما عليك الآن إلا أن تمنحنا المال لنقول وداعاً . هكذا لا يزعج أحدنا الآخر وستسوى المسألة . أنت تقدم المال ونحن نهرب . لا داع لقول المزيد : نحن نفهم بعضنا البعض . بين الرجال الشجعان لا نسعى إلى المنفعة بشكل ملتو . لستُ معتاداً يا أخي يو على الاستعطاء لكنني في هذه المرة أنا أتوسل إليك .

- بما أن الأمر كذلك ، نحن نتوسل إليك ، أصدقائي وأنا . سوف نسدد المال لاحقاً . بين الأخوة تكون الصداقة أبدية . استعطى يانغ الكبير وكذلك فعل الآخرون كلهم ، كلٌ يعبر بطريقته الخاصة ، لكن معنى طلبهم كان واحداً .

لم يكن أمام يولوإير إلا التنفيذ . سحب محفظته التي كانت مخبأة في حزامه العريض وعدّست أوراق نقدية من فئة العشر يوانات .

- تفضلوا أيها الأخوة ، قال دون أن يتمكن من الابتسام .

صاح يانغ الكبير والآخرون بصوت واحد :

- شكراً لك يا أخي ! .

طوى القرد الأوراق النقدية ودسها في جيبه. «الوداع أيها الأخوة».

خرجوا كلهم وهم يومئون برؤوسهم ليولوإير ولزملائه. متى سنلتقي في الجبل؟ أخذ لوليو ومعاونو المفتش بالضحك ورافقوهم حتى الباب.

شعر يولوإير بالاضطراب الشديد. لو علم بذلك مسبقاً لكان قد طلب عوناً ليضع الرجال الستة وراء القضبان. ربما يكون من المستحسن أن تسوى المسألة ودياً. لا بد أن يلتقوا في يوم. كلفه هذا ستون يوانا. إنه يخشى أن تتكرر القصة عند ذلك حتى راتبه لن يكفي أبداً. بالنسبة لمفتش رئيس يا له من عار! أن يدع «متمردين» يختلسون ماله على هذا النحو! كان طعم حبة الدواء مراً للغاية ولم يكن بمقدوره حتى الشكوى. هل كان لوليو مخلصاً أم أنه قام بخداعه؟ يجب أن يطرح عليه بضعة أسئلة. في نهاية الأمر، هل الطريقة في تنفيذ أمر أن نجعل المتمردين يقدمون إلى المكتب عوضاً عن سجنهم؟ لايمكنه كذلك مع لوليو أن يبدو فظاً للغاية لأن الرجل كان قادراً هو أيضاً على صعود الجبل. هل يتخلى عن خدماتهم؟ هذا مستحيل أيضاً: ليس الوقت مناسباً لطرد أحدهم. إذا كان فقط رجال مبتدئون تحت إمرته، في لحظة استلامه مهامه الجديدة، لما كان بإمكانه على الأرجح أن يتدبر أموره. ستون يوانا لينجو بجلده. هذا يستحق العناء بعد كل حساب. على أية حال، لم يكن بيد يولوإير حل آخر. ومن العبث الرجوع إلى الماضي. إنه يخشى فقط أن تأتي مرة أخرى زمرة أخرى في اليوم التالي لتطالب بالأمر ذاته. ولاستحالة فتح هذا الموضوع مع معاونيه قال في نفسه أنه من الأفضل أن يضحك من الأمر، فقط لمجرد أن يظهر لهم أنه لم يكن شحيحاً مع أصدقائه. عندما طلبوا منه ستين يواناً قدم لهم ستين، وعندما يكون المبلغ مئة سيعطي مئة. لكن على هذا المنوال كان يجازف بألا يجد بعد ذلك ما يأكله. والحال هذه، هل رأى أحدكم مفتشاً يعيش في البؤس؟ هذا لا يقوم بأود الإنسان.

تناول يولوإير صحيفته من جديد. لم يجد فيها شيئاً مهما. أن تفلت بكل غباء الستون يوانا من بين أصابعه كان يشعره بوهن عزيمته. لم يستطع حتى المحافظة

على حياته دون أن يشعر بالخجل من نفسه، كما لو أن هذه الحياة العاهرة لم تكن تخصه أبداً وعليه أن يشتريها. على أية حال، كيف يمكن له ألا يعجب بنماذج على شاكلة القرد؟ هم على الأقل يجرؤون بصدق على طلب المال من المفتش. ولم يشعروا بالخوف من أن يلقي القبض عليهم في الحال. كان أمراً غريباً على أية حال ألا يشعروا بأدنى شكل من الخوف. هو بالمقابل كان قد هدر كرامته. لم يوقفهم فحسب بل لم يجرؤ حتى على إظهار أدنى أشكال المقاومة. لقد خانته شجاعته بكل بساطة. قال في نفسه إنه في المرة القادمة لن يكون لين العريكة على هذا النحو، لماذا أصبح مفتشاً ما دامت شجاعته ستخونه؟ يقتضي دور المفتش توقيف الناس نقطة هذا كل شيء. حتماً كان لهذه النادلة اسم غريب! عند ذاك عاد لوشو. توقع المفتش أن يأتي ليقدم تقريره. لم يكن واجباً عليه أن يستجوب معاونه. تساءل في نفسه ما إذا كان معاونه سيأتي لرؤيته أم لا بما أنه كان يثرثر مع لوزو. مع هؤلاء لا يمكن الاستدلال على شيء.

دخل لوشو في النهاية قائلاً:

- يو... أيها الرئيس، إليك تقريري! في شمال المدينة تختبئ عصبة من الزم... آه، عفوا... من المز... المزعجين. هل علينا الذهاب لرؤيتهم؟

- أين يقع هذا؟ لم يعد يولوإير يخشى شيئاً. لقد سرقوا منه ستين يوانا، بعد هذا، هو مستعد أن يجازف بالكل ليربح الكل. شيخ مثله يمكنه الذهاب إلى أي مكان.

- عند ضفة البحيرة. لوشو يعرف المكان.

- سنأخذ الأسلحة ونذهب إلى هناك! هذه المرة قرر يولوإير عدم الذهاب خالي الوفاض. إنه مصر على إيقافهم داخل وكرهم، وهم يعتمدون عليه ليطالبوا بالمال. يمكنهم دوماً أن يجازفوا بذلك!.

- فقط نحن الاثنان. كانت نبرة بوشو مثيرة للسخط حقا.

- إلام ترمي من وراء ذلك؟ إذا قلت لي أين يقع ذلك يمكنني الذهاب وحدي.

كان يولوإير مستعداً ليجازف بحياته فقط لمجرد أن يعرفوا الثمن الحقيقي لمفتش رئيس. كان هذا رائعاً! لا يمكنه فضلا عن ذلك أن يستمر هكذا بدفع مصاريف السفر دون أن يطرد ولو مجرماً واحداً من وكره. إزاء القائد لي سيكون دوره مهما. ومن ثم هو يقبض مائة وعشرين يوانا كراتب!.

لم يعترض لوشو أبداً، بلع كأس الشاي كأنه كان يستعد للمغادرة. خرج يولوإير دون أن يهتم لأمره. لكنه عندما رأى الآخر يتبعه شعر بمزاج حسن وعلى الفور عادت إليه شجاعته. الحق يقال، من الأفضل أن يكونا اثنين من أن يكون وحيدا، ففي حال أي طارئ يمكنه على الأقل أن يفكر ملياً.

عند طرف البحيرة، كان ثمة زقاق صغير لا يمكن لأحد أن يتكهن أنه يحوي حانة فيه. كان يولوإير الذي يعرف الحي معرفة كاملة يجهل مع ذلك وجوده. لكن يكفي النظر إليه إذ له هيئة مأوى لقطاع الطرق! كان عليه أن يصطحب معه عدداً أكبر من الرجال. قال المفتش في داخل يولوإير: إنه لمحزن حقا أن تحظى بالعديد من سنوات الخبرة ومع ذلك تحمست للأمر مثل ولد! كان من المستحسن لك أن تأتي مع عدد أكثر من الناس بدلا من إثارة غضب معاونيك وأنت تتظاهر إبداء الاستياء منهم. على أية حال، فات الأوان جداً على التراجع، يقتضي الأمر الذهاب إلى هناك. إنها أيضاً فرصة أمام معاونيه ليظهر أنه لم يكن جبانا حتى لو لم يصعد البتة إلى الجبل. إذا استطاع أن يقبض على واحد أو اثنين سيكون لكلماته وزنٌ أكبر بعد ذلك. عليه أن يجرب حظه. قد ينتهي الأمر نهاية سيئة لكن ذلك ليس مؤكداً أبداً.

- لوشو هل تسد الباب أنت أم أقوم أنا بذلك؟

- إنهم هناك! قال لوشو هو يشير إلى الباب، لا فائدة من سده لأحد يفكر بالهرب.

كان ذلك فخاً آخر! كما هو معروف سيحدثونه من جديد عن التضامن، بئس الأمر! ألقى يولوإير نظرة إلى الداخل. أشخاص عديدون كانوا يجلسون في الممر: الفراشة، الأنف الكبير، سونغ الجبار، الانتصار الصغير. إنه يعرفهم جميعهم ما عدا اثنين. خيبة أمل كاملة! مرة أخرى وجد نفسه في بلد المعرفة.

- ادخل يا يولوإير! لم نجرؤ على الذهاب إلى هناك لتهنئتك، هيا تعال! انظر قليلاً إلى عصبتنا! تعالوا إلى هنا لأقدمكم إلى يولوإير، الكلب والسبيكة. نحن أصدقاء قدماء، أصدقاء حقيقيون!.

بما أن كل واحد كان يسهب بكلامه أصبحت المناقشة بعد فترةوجيزة حامية جداً.

- فلتجلس يا يولوإير! قال بأدب جم الانتصار الصغير الذي أعدم والده في منطقة هنان.

شعر يولوإير بالحقد على نفسه لعدم عثوره على كلمة يقولها لهم، لكن لوشو تخلص من الأمر بلباقة:

- أيها الأخوة، لقد قدم الرئيس المفتش شخصياً إذا كان لديكم ما تقولونه فلتفعلوا.

هز المفتش رأسه مبتسماً.

- حسن، حسن. فلتتحدث بصدق! بدأ الكلام الأنف الكبير: اصطحب ياأخي سونغ صديقنا ليلقي نظرة.

- من هنا يا يولوإير! صنع الجبار إشارة بإبهامه من خلف كتفه ودخل إلى الغرفة الصغيرة.

- تبعه يولوإير. لقد فهم تماماً أنه لا ثمة خطر يتهدده جراء ذلك. هو الذي كان مستعداً قبل لحظة ليجازف بحياته، وجد ذلك مثيراً للسخط. كانت الغرفة

الصغيرة غارقة بالظلمة، وتتصاعد رائحة رطوبة قوية من الأرض. أمام الحائط، كان ثمة سرير مغطى بالقش. سحب سونغ السرير وقرفص في إحدى الزوايا ليرفع اثنتين أو ثلاث قرميدات عفنة ثم أخرج الأسلحة ورماها فوق السرير.

- هذا هو كل ما لدينا! كان سونغ يضحك وهو يفرك يديه بصدر ثوبه: الوضع خطير للغاية، إذا حملنا الأسلحة معنا فلن يسمحوا لنا حتى بالصعود إلى القطار. لذلك نحن في وضع حرج. الآن بعد أن قدم لوشو وعلمنا أنك تقوم بالحراسة، يمكننا أن نتخلص من الأمر. سوف نسلمك الأسلحة، وتعطينا المال من أجل القطار، ثم تطلب من لوشو أن يرافقنا إلى المحطة. إن أردت ذلك أم لا، لاخيار أمامك. هذا هو ما نريده نحن الأخوة أن نطلبه منك!

- شعر يولوإير برغبة في التقيؤ. وبما أنّ الهواء الرطب كان يصعد حتى رأسه قام بتغطية أنفه.

- تسلموني الأسلحة، ما المغزى من ذلك؟ تراجع حتى باب الغرفة وأضاف: لا مجال لأن أحتفظ بالأسلحة من أجلكم.

- لا يمكننا أن نحملها معنا بسبب الوضع. قال سونغ الجبار بصدق واضح.

- حسن، سنأخذها. لكن لزام علي أن أصرّح بالأمر أمام السلطات ما دمت لم أستطع المباشرة بالتوقيف.

سيكون الاستيلاء على بعض الأسلحة بادرة لا بأس بها! ضعوا أنفسكم قليلاً مكاني! كانت الكلمات التي ينطق بها يولوإير تجعله ثائراً. إنه حتماً لين العريكة للغاية!

- كما ترغب يا يولوإير.

كان المفتش ليرغب جداً أن تنتهي مناقشتهما عند هذا الحد.

- سنفعل ما ترغب به! لكنك تعلم يا يولوإير، في مهنتنا لو كان بإمكاننا القيام بغير هذا لما تركنا أسلحتنا أبداً على هذا النحو. لذلك افعل ما يبدو لك

مناسباً. لا نطلب منك إلا شيئاً واحداً، الرحيل بأقصى سرعة. دون مساعدتك لايمكننا ذلك. لهذا قل لليوشو أن يرافقنا حتى القطار.

على هذا النحو، أضحى الآن قطاع الطرق يعطون أوامرهم إلى المفتش الرئيس وهذا كان مؤلماً جداً. لكن بما أن الأمر يتعلق برفاقه الخاصين وجد يولوإير نفسه مجبراً على السكون وقد استنفذ وسائله كلها وفقد طاقته.

الوسائل، كانت لديه لكنه لا يستطيع استعمالها. الامتياز الذي يمكنه أن يناله من الوضع لن يخدمه في شيء لأنّ طبيعته الحقيقية لا تخفى على أحد. شحذ فكره متسائلاً ماذا عليه أن يفعل بالأسلحة التي استولى عليها. هل سيجرؤ على التصريح بها أمام رؤسائه؟ هل يستطيع أيضاً عدم الاحتفاظ بها مادام الآخرون قد أعطوها له؟ تقديم المال لقطاع طرق، الاحتفاظ بأسلحتهم يا لها من مهمة رسمية غريبة! لم يكن أمام يولوإير سوى حل واحد: رفض شروطهم وصرفهم بخشونة. لكن، هل يملك الجرأة على ذلك؟ أيلقي القبض عليهم؟ كان ذلك لا يعقل أبداً. عند شاطئ البحيرة يمكن دوماً إلقاء جثة. لا يرغب يولوإير إطلاقاً أن تكون المياه قبره.

– يولوإير! قال سونغ الذي كان دوماً صادقا، نحن لسنا أولاد كلب، نحن نعلم أن مهمتك صعبة. لكن علينا التصرف خلاف ذلك. أنت تحتفظ بالأسلحة وتعطينا القليل من المال. أتشبث بهذا لأننا نفهم بعضنا البعض.

– كم يلزمكم؟ قال يولوإير بابتسامة توجع القلب بالفعل.

– ستة ضرب ستة تساوي ستة وثلاثين. ولا قرش زيادة. نحن لسنا أولاد زنا. فقط ستة وثلاثون يواناً!

– لكني لن أهتم بالأسلحة!

– كما تريد! على أية حال لا يمكننا حملها معنا. إذا رحلنا بلا أسلحة وتم إلقاء القبض علينا لا نخاطر إلا بستة أشهر، إنما إذا وجدت معنا فأننا نجازف

برؤوسنا. هذه هي الحقيقة الخالصة! عندما يخاف المرء أمام صديقه لا فائدة ترجى من التباهي. لقد حانت الساعة ويلزم الحذر. إذن أنت موافق أيها الأخ يو، ستةوثلاثون يواناً وإلى اللقاء! مدّ سونغ يده سلفاً.

انتقل المال إلى اليد الأخرى. قال المفتش لمعاونه وهو لا يدري ما يعمل: لوشو، ماذا نعمل بالأسلحة؟

- لنأخذها معنا. سنرى لاحقاً. رد لوشو واثقاً جداً من نفسه.

- لوشو! صاح قطاع الطرق عند ذاك، خذنا إلى القطار.

- أيها الأخ يو، أضافوا بتهذيب شديد، شكراً جزيلاً لك!

كان الأخ يو يرغب بكل طيب خاطر الاستغناء عن شكر كهذا. لاحظ بعد أن جمعت الأسلحة أنّه لا يمكنه حملها على هذا النحو، فلم يبق أمامه إلا أن يقسمها بينه وبين لوشو بدسها حول الحزام.

كان هذا يكسوهما بهيئة غريبة، لكن كان من المستحيل على أحدهما كما الآخر أن يطلق النار على قطاع الطرق. أولئك كانوا فضلاً عن ذلك يثقون ثقة عمياء بأخيهم يو. لقد سلموه أسلحتهم ولا أحد منهم كان يتصور أنّه يمكن له أن يخونهم. حتى فكرة توقيفهم كانت قد خرجت من رأسه. لقد كانوا مطمئنين إلى حد أثاروا فيه الإعجاب. لكن ذلك كان قد كلفه ستة عشر يواناً أكثر من مصروفات مكتبه. بإحراجه على هذا النحو تساءل يولوإير ما إذا كان راتبه كله سينفق قريباً على هذا النحو.

تناول المفتش غذاءه دون شهية. وحتى كأسي الكحول اللتين تناولهما ليعوض بهما أشعراه بالغثيان. ما الفائدة بعد الآن من محاولته تبرير ما فعل؟ إنه رجل عاجز ما دام لم يستحق ثقة القائد لي! كان يولوإير مع ذلك رجلاً يتمسك بسمعته. قال في نفسه إنّه إذا تكرر هذا الأمر مرة ثانية فسوف يقدم استقالته. حتى فكرة الاستقالة كانت تبدو له هي أيضاً غير محتملة. في الأيام الراهنة كيف يمكن

للمرء أن يجد عملاً بمائة وعشرين يواناً؟ أيطلب عملاً آخر من القائد لي؟ هذا غير وارد على الإطلاق! إنّه لم ينجح فحسب في القبض على اللصوص بل ليزيد الطين بلة استسلم لفكرة هيمنتهم عليه. لقد فكر بكل الدعابات التي لن يتوانى قطاع الطرق عن إطلاقها بخصوصه عندما سيصلون إلى الجبل. كم سيكون مثاراً لسخريتهم! كلما كان يفكر بالأمر كان شعوره بالإحباط يزداد.

ربما من الأفضل بالنسبة له أن يهتم بادئ الأمر بالأفيون. كل هذه التجارة يمكن أن ينظر إليها على أنها بمثابة تمرد. إنما هي ليست على هذا القدر من الأهمية. البدء بإلقاء القبض على بعض التجار لم تكن سيئة. وضع يولوإير خطة. في الوقت الراهن لن يعود للحديث عن المتمردين مع احتمال مواجهة المشكلة لاحقاً. يمكن للمفتش في مجال الأفيون أن يعتمد على معاونيه. في نهاية الأسبوع، كانت بالفعل عدة مهام على عاتقهم لكنها لا تمت بصلة إلى مهمة القائد لي التي أوصى بها المفتش. والحال هذه، لا يمكن ليولوإير أن يعاود إطلاق رجاله لملاحقة المتمردين دون أن يصاب بالخسارة مجدداً.

في يوم كان يلزم أن يكون الأثنين، انطلق معاونو المفتش كلهم لتعقب آثار المخدرات (دائماً المخدرات!» عندما دخل شخص ضخم فظ الهيئة تتأرجح ذراعاه وهو يسير.

- يولوإير! قال الزائر وهو يضحك وقد لفحت الشمس وجهه.

- أنت كيانفو! يا لجرأتك!

- لكن بما أنك هنا يا أخي يو لا ثمة ما أخشاه. جلس وقال: أعطني لفافة! لدي رغبة في التدخين.

- ما الذي أتى بك؟ جسّ يولوإير حزامه: واحد آخر يريد مصروفات النقل.

- ما الذي أتى بي؟ أتيت أولاً لتهنئتك ثم لشكرك. لقد صعدوا كلهم إلى الجبل ولا أحد مستعد لنسيان صنيعك ما أقوله لك صحيح جداً!

- آه! حسن. ألم يسخروا مني. قال في نفسه يولوإير.

- يا أخي! أستأنف كيانفو الحديث وهو يسحب من جيبه رزمة من الأوراق النقدية، لأقول لك كل شيء لا يمكن لنا أن ندعك تخسر مالك. الزملاء كلهم على الجبل ولا ينسون البتة صنيعك معهم.

- هذا لأن... تظاهر يولوإير الاحتجاج بتهذيب.

- اصمت يا أخي يولوإير وخذ ما أقدمه لك. قل لي أين هي أسلحة الأخ سونغ؟.

- هل تعتبرني حارساً للأسلحة؟ لم يجرؤ المفتش على قول ذلك بصوت عال. إنها لدى لوشو.

- إذا كان ذلك صحيحا يا أخي يو فسوف أحدثه عنها.

- أنت قادم من الجبل؟ ظن يولوإير أنه مضطر لإثارة محادثة ودية.

- أجل أتيت من هناك لأقدم لك النصيحة بأن تترك هذا العمل. قال كيانفو بهيئة صادقة.

- أتطلب مني الاستقالة؟

- بالتحديد! أن تعتبر نفسك واحداً منا هذا لا يشكل أي فرق. رسميا أنت ونحن لا يمكننا التعايش معا. لكن بصفة شخصية، بما أنك كنت لطيفاً معنا نرد لك الجميل. من الأفضل أن تترك العمل. هذا كل ما لدي لأقوله لك. على الجبل لدي تحت إمرتي أكثر من ثلاثمئة رجل. لكن بما أننا أصدقاء أصريت على المجيء لرؤيتك بنفسي. عندما أقول لك أن تدع هذا الأمر جانباً يكون لك كل المصلحة في القيام بذلك. بين الرجال الأذكياء لا داع للإحراج. سأرحل يا أخي يو. قل لليوشو إنني سأنتظره في الحانة الصغيرة قرب البحيرة.

- قـل لـي شيـئـاً آخـر. وقـف يولوإير. مـاذا سـيظن الأصـدقاء إذا مـا تركت عملي؟

- لا أحد يسخر منك. يمكن أن تكون مطمئناً. هيا إلى اللقاء.

بعد يومين أو ثلاث شغل منصب المفتش الرئيس موظف جديد.

أما يولوإير فغالباً ما كنا نراه يتنزه بكرشه في الشارع، وأحياناً يحدث أن يلقي نظرة صوب جبل الألف بوذا.

صديق الطفولة[1]

عندما كنت يافعاً كنت أذهب على الدوام، عند الخروج من المدرسة، إلى منزل صغير للشاي لأستمع إلى Pingshu[2] برفقة «به رانلو». بدلاً من أن نصرف المال كله من أجل الطعام، كنا نحتفظ دوماً بالقليل منه من أجل الراوي. لم يكن صاحب منزل الشاي، السيد سون، يلزمنا بالدفع، لكننا لم نكن نقبل البتة أن نحضر العرض مجاناً. لم تكن هيئتنا تدل على أننا مشاهدون عاديون إذ كانت لديّ جديلة صغيرة معقودة بخط أحمر اللون وراء الرقبة وكان لرانلو خصلتان على شكل ضفيرتين على الجانب. عندما كان السيد سون يجمع المال في سلة من الخيزران. كان يقول بصوت خفيض ما أن يمر أمامنا: «آه، الخصلة الصغيرة!». ثم يأخذ المال ضاحكاً ويقدم لنا على الفور قبضة مليئة من قرون الصوجا أو من فستق العبيد المملح «خذ يا صاحب الخصلة الصغيرة. هذه لك!». لم يكن يحب جداً أن يناديني بـ«الجديلة الصغيرة» وطبيعي أنني لم أكن لهذا سعيداً جداً. لكن الحق يقال، كان رانلو أظرف مني. كانت سحنته نيرة جداً لدرجة أنه كان يشبه إلى حد الالتباس الأطفال الصغار الذي كنا نراهم على صور العام الجديد. كانت خداه أقل امتلاء لكنه كان رقيقاً ولطيفاً مثلهم، بعينيه المغوليتين وأنفه الصغير الدائري تماماً. عندما كان يركض، كانت ضفيرتاه تضربان خديه بالتناوب مثل عصي الطبل ذي الطاحونة[3]. وكان جلد جمجمته ليناً ولدناً جداً حتى ليشعر الجميع بالرغبة في أن

---

(١) العنوان الأصلي للقصة هو «خصلة صغيرة على الجانب».

(٢) قصص يرويها رواة مهنيون يرافقها أدوات من كل الأشكال «مراوح، مناديل...».

(٣) عبارة عن لعبة على شكل طبل يُركب فوق كم ويزود بعصاتين يضربان بالتناوب وجهي الطبل.

يربت عليه ثلاث مرات عندما كان يخرج من عند الحلاق. آه أجل! «حلقت رأسك. سنعطيك ثلاث صفعات صغيرة فوق الجمجمة!»[1] كان يدعهم يفعلون ذلك حتى لو قاموا بذلك بقوة أكبر من المعتاد.

كان طفلاً قليل الشرود لكنه أحياناً كان لايتقن دروسه. عندما كان ذلك يصيبه كان يستطيع تماماً أن يتملص من العقاب لأن زوجة المدير كانت قد أوصت زوجها بأن لا يضربه. إنّه طفلها الأثير وكان هو من توصيه بشراء كبة من القطن الأبيض أو قليلاً من الخل... لكنه هو من كان يبحث عن الضرب. في كل مرة لم يكن قد درس فيها دروسه، يصبح مزاجه أكثر سوءاً من مزاج مدير المدرسة. يصبح لون وجهه أحمر ويتغضن أنفه ويأخذ بالمشاكسة: «لن أسمّع شيئاً، لن أسمّع شيئاً!». ودون أن ينتظر حتى يخرج المدير عن طوره يقوم بتحديه علانية «لن أستظهر شيئاً! أنت تصرف». عندها يصبح المدير مضطراً لإنقاذ ماء وجهه ولا يعود بإمكانه شيئاً سوى تناول المسطرة. لم يكن رانلو حتى يفرك يديه، سرعان ما يغمز بعينه وهو يهز جديلتيه، ويقوم دون إمهال بمد يديه للضرب. عند انتهاء التأديب. كانت الدموع تطوف في عينيه لفترة لابأس بها، لكنه كان يعرف كيف يحبسها. يشبه ذلك الزبد الذي يغلي على سطح المياه دون أن ينساب. بعد فترة، عندما يصفو مزاجه السيئ كان يأخذ باستظهار دروسه دون ضجيج، منخفض الرأس، وهو يضغط راحة يديه فوق ركبتيه ويحرك دون توقف خصلته الصغيرة مثل سمكة في الصيف الحار.

الغريب في الأمر أن يكون طفلاً رقيقاً مثله بهذه الطباع القاسية.

عندما بلغ سن الدخول إلى المدرسة الثانوية أضحى أكثر وسامة. لم يكن بديناً جداً لكن قسمات وجهه كانت قد تفتحت. بينما غدت وجوهنا كلنا ممتلئة بحب الشباب ظل وجهه دائم النقاء كالمعتاد. في يوم افتتاح الدروس في الثانوية،

(١) القسم الأول من مثل شعبي تتمة جزئه الثاني هو ما يلي: هكذا لن تجازف بأن تصاب بالجرب ولا بالقمل.

رماه أحدهم وكان جسيماً بهذه الكلمات بعد أن دفعه بقوة: «عفواً يا آنستي». دون أن ينبس بكلمة، أخذ رانلو يوسعه ضرباً على وجهه حتى تورم مثل قطعة خبز ضخمة محشوة. لم يكن يصارع حقاً، إنه ينقض بلا تبصر مثل مجنون لدرجة أن أولئك الذين كانوا يرغبون في التدخل نالوا عدة ضربات عن طريق الخطأ. في اليوم التالي كان غائباً. لقد بدل مدرسته.

مرت عشر سنوات لم نلتق فيها أبداً. لقد سمعت أنه كان قد رحل للعمل في مكان ما في إحدى المقاطعات بعد أن حصل على شهادته الجامعية.

في العام الماضي، أثناء المعرض الأخير قبل نهاية العام كان الطقس بارداً جداً. تغطى جبل الألف بوذا بغيوم كثيفة باردة وسوداء، وكانت ريح قارسة تشق بوحشية الأنف وأطراف الأذنين. لم يكن لدي ما أقوم به وبما أنني لم أكن أقطن بعيداً جداً، فكرت أن أذهب للقيام بجولة في معرض شانشويغو إذ يحدث أن تباع فيه الأشياء بثمن بخس وخاصة الكتب. قلت في نفسي إنّه مع هواء قارس كهذا لن يكون ثمة جمهرة، لكن المكان في الواقع كان مكتظاً. مهما يكن الطقس، يلزم على المرء أن يحتفل بعيد رأس السنة. تسكعت لبرهة ولم أجد ما يثير انتباهي. أكوام ضخمة من الطحالب، آلهة الثروة من الورق، شرائح من لحم الخنزير المجلدة والقاسية مثل الحديد. باختصار لاشيء مهم بحق. فكرت أن أتوقف هناك عندما استرعى انتباهي عرض لبضعة كتب رتبت منفردة على بعد عدة أمتار من التجار الآخرين، في زاوية لايلجأ إليها في العادة المتنزهون. لو لم أكن قد شارفت على الوصول إلى هناك ولو لم أكن أبحث عن الكتب تحديداً لما راودتني الفكرة في متابعة السير. وصلت إذن إلى هذه البسطة وقلّبت الكتب القليلة البائسة التي كانت موجودة هناك، وكانت كلها موجزات قديمة باللغة الإنكليزية. من يرغب حقاً بشرائها في هذا الوقت من السنة؟ بينما كنت أتفحصها لاحظت أقدام البائع وقد انتعل حذاء قديماً من القطن الناعم والمغطى بالساتان، فوق جوارب من القطن العادي، وبينما كان كل الناس يضربون الأرض بأرجلهم من البرد، كانت هاتان القدمان الساكنتان تبدوان ملتصقتين بالأرض. أغلقت الكتب وابتعدت.

دون ريب عاش الجميع تجربة مماثلة: تكفي حياة دودة صغيرة يهاجمها جيش من النمل أو كلب أجرب يُهاجم بالضرب ليثير حزنك لفترة طويلة. لأنّ صورة تلك الدودة التي تناضل بيأس أو ذلك الكلب الأجرب البائس تقبض قلبك وتؤلمك مثل مرض مزمن. كان الحال معي مشابهاً مع هذه الأحذية من الحرير وقد اهترأت حتى الرباط. بعد أن ابتعدت لعدة خطوات لم أستطع منع نفسي عن الالتفات برأسي. كان البائع يرتب كتبه وقد انحنى فوق بضاعته. في الواقع لم أكن قد أثرت الفوضى وسوف أكون غير قادر من جهة أخرى على فعل ذلك نظراً لقلة الكتب المتوفرة. استدركت عندها أنّ هذا الرجل كان ولابد يقوم بهذه المهنة منذ فترة وجيزة. عادة لايعنى الباعة ببضاعتهم على هذا النحو. مرتدياً ثوباً من القطن الرمادي، نحيل القد جداً، ويعتمر قبعة قديمة للغاية ومهترئة حتى لايرغب أي شخص في ارتدائها، كان يبدو حقاً وكأنه يرتدي شقاء وعزلة كل العالم الذي يحيط بنا، عندها شعرت برغبة لاتقاوم تجذبني نحوه.

لهذا قررت أن أعود على عقبي وأنا أشعر ببعض الانزعاج لأنني كنت أعلم أنني لن أجرؤ بلا شك على التفرس في وجهه. كان شعور جارف بالفخر ينبعث من شخصه لدرجة أنه لايمكننا أن نمنع أنفسنا عن الشعور ببعض الاحترام نحوه. مثلما يكون الحال عليه في مواجهة معبد مهدم. لن أعرف أن أقول لكم كيف عدت على عقبي ووجدت نفسي بعد لحظات أمامه من جديد.

كانت عيناه ذات الجفون المغولية إلى حد كبير تقول لي شيئاً. عدا ذلك، فقد فشلت في التعرف عليه فوراً. لايمكن لأنشط ذاكرة قوية أن تقهر الزمن. والحال هذه، مضت أكثر من عشر سنوات لم نلتق فيها. نظر إلي ثم أدار نظره بسرعة صوب جبل الألف بوذا. عند هذه الحركة المعبرة تعرّفتُ عليه. لايمكن أن يكون إلا هو، فجازفت بشجاعة: أنت رانلو أليس كذلك؟

تفرس فيّ من جديد ثم عاد يحملق في الجبل. لكن فجأة استدار نحوي. كان وجهه الهزيل بلا حياة، فقط وجنتاه بدرت عنهما حركة خفيفة. كان حب

الذات يمنعه عن الرد، لكني كنت ألاحظ تأثره من أن يناديه أحد باسمه الأول «رانلو». دون أن ينبس بكلمة كما حاله دوماً شدّ على يدي، لقد كانت يده متجمدة. ثم ابتسم برصانة ووجهه لايزال ينظر بلا انقطاع نحو الجبل.

– تعال، أنا أسكن قريباً من هنا. قلت له وأنا أشد يده وأجمع الكتب القليلة التي كانت أمامه.

عندها ناداني باسمي ثم استأنف بعد لحظة قائلاً:

– كلا لن أذهب!

عندما رفعت رأسي رأيت عينيه مغرورقتين بالدموع. تركت يده لأحمل الكتب تحت ذراعي.

– لايمكنك ألا تأتي. قلت متظاهراً بالضحك.

إنه لا يريم حراكاً كحاله دوماً.

– ما رأيك أن ألاقيك بعد برهة؟

– كلا، هذا لا طائل منه. أضفت وأنا أحتفظ بكل دعابتي: بعد برهة؟ أنا واثق أنني لن أراك مرة ثانية.

للوهلة الأولى كان سيشور غضباً لكنه تمالك نفسه. لقد اهترأت سراويلنا الداخلية فوق المقاعد نفسها، في المدرسة، لذلك كان شاقاً عليه مهما كان عزيز النفس أن لايجد لي العذر في هكذا إصرار.

لذلك لحق بي ولاحظت أثناء سيرنا معاً أنّ كتفيه كانتا قد تقوستا تماماً. بعد خمس دقائق بلغنا المنزل. في الطريق كنت أخشى بحق ألا يرافقني ولم أشعر بالطمأنينة بشكل قاطع إلا عندما جلس في غرفة الضيوف. حينها شعرت أنني أملك كنزاً في حوزتي. ماذا يمكنني أن أسأله وكيف أتصرف حيال ذلك؟ على ما يظهر لم يكن يشعر بالراحة كثيراً ولم أكن أرغب بخاصة أن أدعه يهرب بإثارة خوفه.

تذكرت بغتة أنه لايزال لديّ زجاجة من النبيذ الأبيض. عندما وضعت يدي عليها وجدت كذلك قليلاً من مربى العناب بين الأصدقاء كان هذا كافياً. على أية حال كان هذا أفضل من البقاء جلوساً دون أن نقول شيئاً.

أخذ كأساً بيد مرتجفة نوعاً ما وملأ نصفها. كانت الدموع تغشى عينيه مثل طفل صغير يأكل في الشتاء عصيدة الرز الحارة جداً بعد عودته من المدرسة. حاولت أن أسبر نواياه:

- منذ متى وأنت هنا؟

- أنا؟ منذ بضعة أيام.

كان يبدو أنّه يتبادل الحديث مع نفسه فقط، وقد ثبت عينيه على قطعة صغيرة من الفلين عند حافة كأسه.

- ألم تكن تعلم أنني هنا؟

- كلا.

نظر إلي بهيئة إنسان مكتئب يتمنى ألا نسأله المزيد. أصريت مع احتمال أن أكون لجوجاً. في نهاية المطاف نحن أصدقاء طفولة أليس كذلك؟

- أين تقطن؟

ضحك.

- أين تريد مني أن أقطن؟ ألم تنظر إليّ جيداً. كان يهزأ أكثر منه يضحك.

- حسن، بما أن الأمر كذلك أنت هنا في بيتك. لم يعد هناك داع للرحيل. سنذهب معاً لنستمع إلى الرواة وهم ينظمون الشعر. ثمة ثلاث أو أربع صالات في بوتوكان[1]. هناك يرون أوديسة لو كان Lao Can.

ما رأيك؟ ولألاطفه أكثر أضفت قائلاً:

(١) منبع ماء حراري شهير ومكان للتنزه في جينان.

- هل تذكر عندما كنا صغاراً وكنا نذهب لسماع القصص البوليسية الشهيرة؟

لم تكن محاولاتي ناجحة كما توقعت. إذ لم يرد بشيء. لكنني لم أستسلم. قدمت له المزيد من الشراب وأنا أقول في نفسي أنّ الخمرة تستطيع في النهاية أن تطلق الألسن. لحسن الحظ لم يرفض عرضي زد على ذلك أخذت وجنتاه تتلونان شيئاً فشيئاً. خطرت لي فكرة أخرى:

- حسن، ماذا ترغب أن تأكل؟ معكرونة، رافيولي محشو بالخضار أم طلمية؟ قل لي وسوف أقوم بإعداد الطعام فوراً.

- كلا، لاشيء. يجب أن أرحل لأبيع كتبي.

- ألا ترغب في تناول شيء؟ لا يمكنني أن أدعك ترحل هكذا!

بعد فترة طويلة هزّ رأسه قائلاً:

- أنت لم تفقد حماسك السابق!

- أنا؟ آه! هل تعلم، لقد تغيرت تماماً عما كنته في الوقت الذي كنا نضفر فيه شعرنا بجدائل صغيرة. يمر الوقت بسرعة كبيرة حتى أننا لا ندرك ذلك. القول أنني أبلغ من العمر ثلاثين عاماً ويزيد هذا شيء لا يصدق.

- إنه عمر مناسب للموت. في نهاية الأمر لاتعيش الكلاب إلا عشر سنوات.

- شخصياً لن أكون متشائماً هكذا. كنت أعلم وأنا أقول ذلك أنني اخترت الطريق المناسبة. تنهد قائلاً:

- في الواقع الحياة ليست إلا لعبة.

لو استمر حديثنا على هذا المنوال لكنا خرجنا عن موضوعنا أكثر. والحال هذه، كنت أرغب في معرفة كيف آل به الحال إلى هذا الحد. غيرت خطتي وبدأت أسرد ما كنت قد فعلته خلال السنوات الأخيرة. كنت أتحدث بلا اقتناع وأنا أمزج

في حديثي، كيفما اتفق، كلمة القدر والتشاؤم لأستطيع بشكل أفضل استعراض الكل. بعد عدة مواربات نجحت أخيراً في أن ألقي عبارتي:

- وهكذا انتهيت. دورك الآن.

في الواقع كان قد فهم تماماً إلام أريد الوصول. ومنذ البداية لم يعر حديثي أي اهتمام. وإلا كنت سأراوغ أيضاً لفترة لابأس بها قبل أن ألجأ إلى جملتي الأخيرة. لكن نظراته أجبرتني على الإيجاز. لهذا عندما انتهيت لم يستطع التهرب وسألني:

- ماذا تريد أن أقص عليك؟

أزعجني سؤاله. كان لديّ شعور بأنني محام يرغم مجرماً على الكلام. رسمت الاكتئاب على وجهي. في نهاية الأمر كنا أصدقاء قدماء، وبين الأصدقاء، يمكن البوح بكل شيء. ربما هذا من جهة أخرى يناسب مزاجه.

- كيف وصل بك الحال إلى الحضيض؟

أخذ وقتاً طويلاً قبل أن يجيب. ليس لأنّه يشق عليه الحديث إنما لأنّه كان غارقاً في تأملاته. هكذا خُلق الوجود، بعد سنوات من الفراق، من الشائع أن لايجد صديقان قديمان ما يتحدثان عنه.

- من أين أبدأ؟ كان يبدو أنه يسأل مراحل حياته بأدق تفاصيلها.

- هل تذكر عندما كنا صغاراً، كنتُ غالباً ما أتلقى الضربات؟

- أجل كانت لك طباع غريبة!

- المسألة ليست مجرد مسألة طباع، قال ويهز رأسه قليلاً، في ذلك الوقت كنا صبية وكنت كذلك لا أحدثك عن الأمر إطلاقاً. الحق يقال، أنا نفسي لم أكن بعد قد فهمت ماذا كان يحدث معي. تحققت لاحقاً بأنّ عيني كانتا تخلقان لي المشاكل.

- لكنّ عينيك كانتا سليمتين، أليس كذلك؟

- عادة يكون الأمر هكذا. لكن أحياناً أعاني من مشاكل.

- أي نوع من المشاكل؟

بدأت أتساءل في نفسي ما إذا لم يكن منزعجاً قليلاً.

- لم تكن اضطرابات فيزيائية عادية. أنا أعاني من ألم عضال. يحدث هذا معي فجأة... أرى أشياء... لايمكنني أن أشرح لك ماهية الأمر!.

حاولت أن أجعله يكون دقيقاً:

- هل هي هلوسات؟

- كلا. كما تعلم، لم أعان قط من رؤى مرعبة لتلك الرؤوس الخضراء تماماً التي تبصق ألسنة من لهب. أنا ألمح أشكالاً. كلا، ليست كذلك، بل هي تعابير. سأقدم لك مثالاً وسوف تفهم ما أقصده. هل تتذكر أستاذ المدرسة؟ رجل قدير أليس ذلك صحيحاً؟ مع ذلك، ما أن كان ألمي ينطلق حتى كنت أحس بالكره اتجاهه. ثم يقع الصدام، بعد لحظة عندما ينتهي الأمر يعود كل شيء إلى ما كان عليه وأُضرب أنا بلاسبب. من أجل تعبير بسيط كنت قد لمحته، تعبير كريه.

لم أدعه يتم حديثه بل سألته:

- أنا أيضاً، هل رأيتني في تعبير مشابه؟

رسم شبه ابتسامة:

- دون ريب، أنا لاأتذكر جيداً. على أية حال، لقد تشاجرنا ولمرة على الأقل وكان ذلك بسبب هذا الأمر. لحسن الحظ أننا لم نكن معاً في المدرسة الثانوية وإلا... أنت تعرف، أخذ ألمي يغدو خطيراً أكثر فأكثر. عندما كنت صغيراً لم أكن أعيه جيداً، كنت أحتد في الحال ومن ثم ينتهي الأمر. بعد ذلك، لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي. ما أن كنت أأنف من شخص حتى كنت أتعارك معه أو لاأعود

إلى معاشرته، ولا حتى إلى توجيه الكلام له. على حسب ما أتذكر كانت طفولتي فقط هي المرحلة السعيدة في حياتي. في ذلك الوقت لم يكن ألمي شديداً بعد. لكن ما أن بلغت العشرين حتى ارتسمت تلك الشخصيات المقيتة كلها في ذاكرتي. لم تعد تلك الأخيرة إلا نفاية لصور ممقوتة.

بما أنه قد صمت سألته:

- أتكره كل العالم؟

- عندما يبدأ المرض أجل دون استثناء. أبي وأمي وأخوتي، العالم أجمع. إذا أردت أن تتظاهر عليك أن تقوم بذلك في كل الأوقات، وتصبح الحياة غير محتملة. وإذا لم تفعل ذلك، لايبق أمامك إلا أن تضرب الناس ما أن تصادفهم. ولا تعود تنتهي أبداً. لهذا أصبحت شيئاً فشيئاً وحيداً بلا عائلة أو صديق. ما الفائدة من خلق صداقات جديدة؟ كيف يمكنني أن أصادق الناس بينما أنا أعلم تماماً أنّه في يوم سوف أمقتهم! قاطعته قائلاً:

- ربما تكون هذه الأشكال الكريهة كما تسميها مجرد نقاط ضعف. لدينا كلنا نقاط ضعف ومع ذلك لسنا مكروهين بسببها.

- هي ليست ضعفاً. يمكن لضعف البشر أن يثير كرهك، يمكن أيضاً أن يثير شفقتك. على سبيل المثال مدمني الكحول. ليس هذا ما أقصده. في الواقع حتى دون أن تملك عيني يمكنك أن تفهم ما أرمي إليه. حاول قليلاً إن لم تكن تصدقني. بالطبع لن يكون الأمر رهيباً كما يحدث معي، لكنك ستكوّن فكرة على الأقل. عندما تفحص الناس لا فائدة من النظر بانتباه إلى كامل رأسهم. ركز نظرك على العينين، الأنف أو الفم. هذا يكفي. سوف ترى أشكالاً مقيتة. لاحظ بشكل خاص العينين والفم. أحياناً يوجه لك أحدهم أحاديث مثالية تمتلئ بالحكمة والفضيلة، وفي اللحظة التي ينطق فيها ترى صوراً تخدش الحياء مستترة في عينيه وبرازاً ينبثق من فمه بينما هو يبتسم بأسنان جميلة! كلما كان الناس مرموقي المكانة كانوا أكثر بشاعة. أولئك الذين حصلوا على قدر أقل من التعليم هم أفضل قليلاً.

آه! هم كذلك كريهون، لكن على الأقل ترى ذلك في عيونهم بوضوح، بينما يعرف الآخرين كيف يخفون عارهم. هل ترى، لو لم تكن لي هاتان العينان لن تكون الحياة إلا خداعاً. سأقدم لك مثالاً آخر: ذهبت في أحد الأيام إلى المسرح، وقدم نموذج في الثلاثين من عمره أنيق جداً وجذاب المظهر ليجلس بقربي. ما أن وقعت عيناي عليه حتى عرفت أنه كريه وأخذت أشعر بالغضب. بالطبع لم يكن ذلك يعنيني أبداً، لكن لماذا يتمتع الناس الكريهون بمظاهر أنيقة؟ ضلال كهذا يخزي البشرية. عند هذه اللحظة عينها، حدث تفتيش على البطاقات ولم يكن ذلك السيد يحمل واحدة. قال وهو ينظر بازدراء إلى المراقب: «أدعى وانغ ليست لدي بطاقة وحتى لو كان اليابانيون من يقومون بالتفتيش، لن أشتري واحدة أبداً وإلا لن أدعى وانغ بعد ذلك.» لم أستطع بحق أن أتمالك نفسي. لم تكن القضية بالنسبة لي أن أعاقبه إنما فقط أن أمزق وجهه. انتهى بي الأمر إلى صفعه صفعة مدوية. هل تعلم ماذا كانت ردة فعله؟ لقد أخذ يزعق ثم اختفى. رأس حقيقي ينفع للصفع، أليس كذلك؟ كما ترى ليست تلك نقاط ضعف إنما هو البحث بتبصر عن الضربات، ومن المؤسف أنه لاثمة مزيد من الناس يقومون بتقويم أفراد كهؤلاء. لقد تصرف في نهاية الأمر كما تحتم عليه طبيعته: كلب ينبح بلا سبب في أعقاب متشرد. لحسن الحظ أنّ مرضي في ذلك اليوم قد ظهر وإلا كنت سأعدّه كلباً حقيقياً أصيلاً.

- كما أفهم منك يسعدك أن تكون مريضاً؟ قلت متعمداً.

وبما أنه تظاهر بأنّه لم يسمع ما قلته، أعدت على مسامعه السؤال ذاته فأخذ يبتسم ثم قال:

- لا أستطيع القول أنني أتذوق بحق هذا الأمر، لكن عندما لا أكون مريضاً يكون الوضع غير محتمل أكثر لأنني أعلم أنّ الناس مقيتون لكني لا أدرك ذلك. يشبه الأمر كما أنني أحلم ولا أستطيع أن أستيقظ. على الأقل عندما يبدأ المرض لاأشعر بالضيق مهما حدث. كما ترى إذا كانت لدي رغبة في الضرب، أضرب ويكون ذلك من الأمور التي أحققها. الغريب في الأمر أنني عندما كنت أنتهي

لايجرؤ الناس على توجيه الملاحظات في وجودي. بل يكتفون بالتهامس وراء ظهري: «إنه مجنون!». لم أصادف قط شخصاً بغيضاً يكون عنيداً وشجاعاً: كلهم ضعاف الشخصية وبغيضون! في أحد الأيام أشرت بإصبعي على عسكري وعاملته كما نعامل رجلاً دنيئاً، لم يعجبه الأمر وأخرج مسدسه. كدت أطير من الفرح فرحت أثير غضبه: «هيا قم بذلك!». هم! أغمد مسدسه ثم رحل. لقد انتظر حتى ابتعد مسافة كافية ثم جرؤ على الالتفات. إنّه دنيء وفوق ذلك جبان!.

صمت من جديد.

- في البداية فزعت من المرض لأنّه ما أن يبدأ حتى كنت أبحث عن الشجار. بعدها أجد نفسي بلا عمل. مع الزمن أخذت أخشى ألا أقع في المرض لأنه يتحتم عليّ حينها أن أجد ما يشغلني. لاشيء يضني الإنسان أكثر من البطالة. لكن عندما نجد عملاً ثمة أناس دائماً معك وبينهم يمكن أن تجد نماذج كريهة. في النهاية وجدت نفسي أمام معضلة حقيقية: هل أستمر بمعارضتهم بشدة أو أقوم بالتظاهر بالعكس؟ ترددت في الاختيار. عندما يستولي علي المرض لا أتمكن من منع نفسي عن مخاصمة الناس. مع ذلك، يحدث ألا أقع صريع المرض لشهر أو اثنين. هل يمكنني ألا أفعل شيئاً وانتظر بكل بساطة معاودة المرض؟ كلا بالطبع! ومن ثم، ما أن كنت أبدأ عملاً جديداً حتى يبدأ المرض من جديد. إنها حلقة مفرغة. في إحدى المرات بقيت بصحة جيدة لأكثر من ستة أشهر. قلت لنفسي: حسن، لنعد من جديد إلى رتابة الحياة اليومية. لا فضائح لا عنف، لندع الأحداث تتبع مجراها. عدت إلى منزلي لأبرهن لأهلي عن واجب احترامي لهم. غالباً ما كنت أحلق ذقني وأقدم برهاناً واضحاً عن نية صادقة في المصالحة. وبما أنني لم أعد أرى وجوه الكلاب عند الناس، تظاهرت أنّ الكلاب لها وجوه إنسانية وأصبحت أليفاً مع الكلاب كما القطط. في أوقات الفراغ كنت أداعب القطط وآخذ الكلاب للنزهة. تصالحت مع العالم. يعيش الآخرون في عالم ممتلئ بالحرارة والمرح لماذا يلزم عليّ أن أهدم كل شيء وأنا أحتج. في هذه الفترة قمت بعدة مشاريع. في البداية فكرت

أن أؤسس منزلاً. ربما تساهم مسؤولياتي الجديدة كرّب عائلة في شفائي من المرض. كما أنني لم أكن عدائياً مع النساء. عندما أكون مريضاً كنت أحقد على الرجال بخاصة. دون شك لأنني كنت أصادف القليل منهن، لكنني كنت مقتنعاً اقتناعاً تاماً أنّ النسوة كن أفضل من الرجال بقليل. هي مجرد أفكار! يقضي الناس وقتهم وهم يصنعون أفكاراً لأنفسهم في الحياة. كنت أظن أنّه يكفيني أن أجد المرأة المثالية لأتمكن من العيش على هذا النحو لعشرات من السنين الحسنة والسيئة. لكنّ أفكاري لم تتوقف عند هذا الحد. في السابق كنت أعلن أنّ العالم كله كان رديئاً جداً أليس كذلك؟ بعد ذلك تغيرت. أصبحت أعتبر أن حكمي على هذا النحو بأنّ الناس جميعهم كانوا كريهين هو نظرية، لكنني في الواقع لم أستطع البتة أن أتأكد منها بأم عيني. ربما يكون العالم هكذا فعلياً، لكن بما أنني لم أكن مريضاً بشكل دائم لايمكنني أن أدرك ذلك. ربما ثمة في هذا العالم أيضاً أحد ما طيب السريرة فعلاً ومثالي وأنّه إذا ما تراءى أمام عيني لن أجده كريهاً أبداً. لم يكن باستطاعتي حينذاك التيقن من مرضي. فقط عندما كانت الشخصيات تبدل مظهرها أمام ناظري كنت أتيقن من أنّ ألمي قد عاد للظهور. في هذه الشروط، كيف نعلم ما إذا كنت سأجد أحياناً أحداً ما طبيعياً وأنا في فترة المرض؟ من يدري. ربما يحدث هذا في الواقع. هذا ما كنت أقوله لنفسي وتعزز أملي أكثر فأكثر. لهذا قررت ألا أكون متصلب الرأي هكذا وأن أتزوج وأبني بيتاً وأنجب أطفالاً رائعين. يعيش الآخرون حياة رائعة فلماذا أكون أنا الشخص الوحيد الذي يأكل العنب الفج وأدع الناضج منه يتعفن في حديقتي؟ كان ذلك مشروعاً رائعاً.

تنهد قليلاً ولم أجرؤ على أن أضيق الخناق عليه بأسئلتي. ملأت له كأسه.

- هل تتذكر ابنة عمي؟ سألني بغتة. كنا نلعب غالب الأحيان معاً عندما كنا صغاراً.

- تلك التي اسمها زودير؟

كنت أتذكرها تماماً. كانت تلبس حلقاً من اليشب[1] الأخضر على شكل نبتة الأرطماسية[2].

- أجل. إنها تصغرني بعامين ولم تكن قد تزوجت بعد. كانت تنتظرني إذا جاز القول. كما ترى لم أكن أخطط لمشاريع وهمية. كانت تنتظرني. رويت لها كل شيء وقبلت العيش معي. عندها تمت الخطوبة.

مرة أخرى لم يقل شيئاً لفترة طويلة وبلع مرة واحدة عدة جرعات من النبيذ.

- ذهبت في أحد الأيام لرؤيتها عندما عاودني المرض. طفلة في السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تجتاز الطريق وهي تحمل في يدها قصعة من الصلصال عندما لاحت سيارة. فكرَتْ في بادئ الأمر عندما سمعت منبه السيارة أن تسرّع الخطا، لكن بعد خطوة واحدة عدلت عن رأيها وعادت على عقبيها. عندما وصلت السيارة إليها قرفصتْ أرضاً. لحسن الحظ كبح السائق السيارة بعنف. في تلك اللحظة عينها رأيت وجهه. كم كان شنيعاً! لقد أوقف سيارته في اللحظة المناسبة بالفعل لكن في أعماقه كان يرغب بشدة في أن يدهس الفتاة، أن يدهسها ثم يعود من جديد ليمر فوقها حتى يسحقها تماماً. كما ترى كان من العبث أن أخطط لمشاريع. لم يعد بإمكاني الذهاب لرؤية ابنة عمي. كان عالمي بشعاً وليس من المنطق أن أجرها إلى عالم مشابه. مرة أخرى تواريت عن الأنظار وأرسلت لها جملة صغيرة: «لا داع لانتظاري». بعد أن كان لدي بصيص أمل فقدت طمأنينتي. أدركت فجأة أنني ربما أكون أنا أيضاً مكروهاً وحتى أكثر من الآخرين. طرد هذا الشك كل عنادي. في السابق عندما كنت أواجه شخصاً كريهاً كنت أضربه أو على الأقل كنت أحدق فيه بثبات لدرجة أنّه كان يرتجف من الخوف لفترة لابأس بها. ليس لأنني كنت فخوراً أتصرف على هذا النحو، بل لأنني كنت واثقاً جداً من نفسي وكنت واثقاً من أنني

---

(١) حجر كريم.

(٢) نبتة عطرية.

أرقى مرتبة من الآخرين. ثم حدث ما حدث. ما كدت أتخيل مخطط زواجي وإصلاح ذات البين مع العالم حتى انهارت دعائمه. لم أكن في نهاية الأمر أفضل من الآخرين. لم يكن لديّ سوى هاتين العينين المريضتين زيادة عنهم هذا كل شيء. لم يعد لدي إطلاقاً الشجاعة في ضرب كائنٍ من كان. اكتفيت بتحاشي الناس المكروهين مبتعداً عنهم عندما أصادفهم. أملت بشدة أن يشير إليّ الآخرون ببنانهم وهم يعاملونني كما يعاملون شخصاً مقيتاً، غير أنّه لم يرغب أحد بهذا أبداً.

عاد للصمت كرة أخرى.

- ما تخبئه لك الحياة يتجاوز كل المخططات التي تستطيع القيام بها. خذ على سبيل المثال. لقد خرجت للتو من السجن. أجل! هكذا! أخذت أتردد على اللصوص وأنا أقول لنفسي بما أنني كنت مكروهاً أنا الآخر، يمكنني جداً أن أتعلّق بأي شخص، كان رئيسنا بالطبع واحداً من أكثر الشخصيات مقتاً على الإطلاق. عندما كان يخطف الناس لم يكن يقبض الفدية فحسب بل أنّه يخفي الرهائن باحتجازهم داخل السرير. لم أقم بضربه لكنني وشيت به وتم إعدامه في هذه الأيام القريبة. في المحكمة قمت بكشف جرائمه كلها. وهو لم يقل شيئاً يمكن أن يضر بي. على العكس قام بتبرئتي. لذلك لم أبق في السجن إلا لعدة أيام ثم دفعت كفالة. في نهاية الأمر حتى الرجال الأكثر مقتاً يمكنهم أيضاً أن يملكوا قلباً طيباً. هذا المبتز الذي كان عند كلمته لم يكشف لهذا السبب عن شركائه!

في البدية لم أصدق ما حدث. المسيح كذلك صلى من أجل أعدائه ومن أجل اللصوص. كان بحق شخصاً هاماً! ربما كانت عيناه مثل عيني لكنه كان على الدوام حازماً في الأمور التي تتعلق بالمبادئ لكنه كان يعرف في نفس الوقت كيف يكون متسامحاً جداً. لايستطيع الناس العاديون أن يكونوا متشددين. إنهم دمثوا الأخلاق على الدوام كذلك يكون العالم ممتلئاً بالنشاط. أما أنا فلا أعرف أن أكون سهل المراس بل عنيداً. لهذا السبب أجد نفسي في مأزق. ليست الحياة بحق إلا لعبة مسلية.

أنهى كأسه وانتصب واقفاً. وقفت بدوري.

- سأجهز الطعام على الفور.

- كلا، لن آكل أبداً. قال بحزم.

قلت قلقاً:

- لا ترحل يا رانلو! أنت في منزلك.

- سأعود في مرة أخرى. هذا وعد!

تقدم وحمل كتبه:

- هل يلزم عليك الرحيل حقاً؟ ألن تأكل حتى؟ قلت على الفور.

- أجل. يلزم عليّ الرحيل. في العالم الذي يخصني لا ثمة صداقة. حاولت عبثاً معرفة نفسي. أحب أن أقدم الوعظ للآخرين. لا أستطيع مثلك أن أجد الراحة في عائلة كما يجب أن يكون الحال عليه. أشعر أنني أفضل حالاً وأنا أهيم ذات اليمين وذات الشمال.

كنت أعلم أنّ محاولة إبقائه من جديد لا طائل منها. بقيت لفترة لا أنبس بحرف ثم أخرجت بعض النقود من جيبي.

- لا أريد مالاً! قال ضاحكاً. لن أموت من الجوع. وحتى لو حصل ذلك لن يكون الأمر أسوأ.

- إذا أعطيتك لباساً فهل تقبله؟

لم أعرف بحق ما علي فعله. تردد لثانية:

- حسن. نحن أصدقاء طفولة في نهاية الأمر. أنت تظن أنني أحمل الكثير من التعقيدات. في الواقع لم أعد أكثر تطلباً من السابق، على الأقل إزاء الآخرين لأنني إزاء نفسي لايمكنني أن أكون متطلباً. كما ترى حتى ذلك اللص، واحد من أكثر القذرين الذين أعرفهم كان يملك مبادئاً بالرغم من دناءته. حسن. أعطني شيئاً

ترتديه، هذا السرد[1] على سبيل المثال يرفل بحرارتك، لهذا لن يكون مجرد هدية بسيطة. إنني أخلق لنفسي أوهاماً بحق.

خلعت صدريتي وأعطيتها له. لبسها فوق ثوبه القطني دون أن يزررها.

كانت السماء تندف بالثلج الذي يدور حول نفسه وقد تغطت كلها بالغيوم السوداء. رافقته. لم ينبس أياً منا بكلمة. عالم من الكآبة. كان يبدو أنه لا ثمة شيء إلا صوت أقدامنا. عندما وصلنا إلى عتبة الباب لم يقم حتى بالالتفات، محني الظهر، ثم غرق بين ندف الثلج قبل أن يتوارى عن الأنظار.

---

(١) نسيج محبوك.

هاوي الأوبرا(١)

كثير من الناس كانوا يقولون أنّ كيساوشن كان «لوطياً». كنت أعرفه حق المعرفة. أعرفه حتى قبل أن يصبح فناناً محترفاً في الأوبرا. إنه شاب ضعيف البنية نحيلها، ذكي وعنيد. لم تكن عيناه جميلتان بشكل خاص إلا أنّ وجهه كان نيراً جداً. لقد عملنا معاً في المنشأة نفسها لأكثر من ستة أشهر. لاأحد في المنزل كان يعامله بقلة الاحترام، على العكس، كان الجميع يعدّونه كأخيهم الصغير ويعاملونه على هذا الأساس. وبما أنه كان خجولاً جداً كنا جميعاً لطفاء معه بشكل خاص. كلا، هذا غير وارد، غير وارد على الإطلاق أن يكون «لواطياً». لقول الحق، كان فطناً بالفعل. نظمت الشركة التي نعمل بها في أحد الأيام احتفالاً صغيراً تذكارياً، عدة تسال كان يمكن توقعها. وبما أنّ المشاهد كلها كان الموظفون هم الذين يؤدونها لم تكن النوعية تهم كثيراً، بل المهم هو خلق جو من الحماسة. قال كيساوشن وهو يحمر خجلاً إنه يرغب جداً في تمثيل دور أوبرالي! هو لم يتعلم ذلك البتة لكنه حضر عروضاً، وإذا كان الناس موافقون يمكنه المحاولة. أن يكون الإنسان قادراً على أداء دور أوبرالي لمجرد كونه مشاهداً لا أحد يؤمن بذلك. لكن بما أن الأمر كان يقتصر على إثارة النشاط لايحاول المرء بالطبع أن يكون جدياً، ومن ثم إذا كان هذا يسعده... إن غنى بشكل جيد أم لا، في نهاية الأمر، لاأهمية للموضوع! لقد قام بأداء مقطع من «طالع سعيد للعنقاء الحمراء»(٢). كان صوته خافتاً لذلك حتى

---

(١) العنوان الأصلي للقصة هو «الأرنب»: كلمة شعبية تحقيرية تستعمل للدلالة على شخص لواطي.

(٢) أوبرا شهيرة تحكي قصة حب وانتقام ابنة الملك هانغزو التي حاول زوجها إغراقها.

الأشخاص الجالسين في الصف الأول لم يسمعوا شيئاً البتة. مع ذلك كان تبدل سحنته فوق المسرح، مظهره ووضعيات جسمه، كل ذلك كان رائعاً. يشبه الأمر ممثلاً عجوزاً لم يعد لديه صوت ولا يمكنه بعد ذلك إلا الاعتماد على أدائه المسرحي اللامع. كان الأمر برمته دقيقاً ومتقناً للغاية. والمدهش أنه لم يتعلم ذلك سابقاً! مهما يكن من أمر، هذا المقطع من طالع سعيد اعتبر من أكثر المشاهد المقدمة نجاحاً في ذلك اليوم ولم يحظَ إلا كسياوشن بالتصفيق والهتاف. بعد أن أزال المساحيق عن وجهه وهو لايزال خجلاً، كان يلزم عليه أن يضيف وهو يخفض رأسه: أعلم كذلك «طبل الأزهار»[1] ولم أتعلمها هي الأخرى أبداً.

بعد ذلك بفترة غادرتُ المنشأة لكني واظبت على رؤية كسياوشن في أغلب الأحيان. لقد دفعه نجاح هذا العرض إلى أن يشعر بالرغبة في تعلم غناء الأوبرا جدياً لدى أستاذ. إنّه المعلم يو. كان المعلم يو، وهو واحد من أصدقائي، فناناً هاوياً عجوزاً لايزال صوته شاباً على الرغم من أنّه قد تجاوز الخمسين. عندما يكون بحالة جيدة يكون قادراً على أداء مقطع من «أحكام الموظفين الثلاثة»[2] بعد أن يقوم بحلق ذقنه قبل أي شيء. كان على الدوام مؤدباً للغاية ولا نتعرف في شخصه على أي من العادات السيئة التي نصادفها مراراً عند الفنانين الهواة. عندما كنت أرى المعلم العجوز يمد فمه المتوج بلحية ليغني بصوت ناعم وصاف، ثم يكرر بخجل وراءه كسياوشن بصوته الخافت، كنت أجد ذلك غريباً جداً لدرجة أنه كان يحدث أن أتخذ أنا أيضاً مكاناً بينهم وأتعلم عدة مقاطع. كان صوتي أفضل بكثير من صوت كسياوشن، لكن تنغيمي كان غير مستساغ. عندما كنت أغني على هذا النحو كنت أهزأ من نفسي وحتى المعلم العجوز كان يسخر مني أكثر: «كفى! أصغ إلى تلميذي وهو يغني!» كان كسياوشن يبتسم ثم ينتقل إلى نغمة أخرى ووجهه صوب الجدار.

---

(١) أوبرا شعبية محلية يتم إحياؤها في مقاطعات مختلفة.

(٢) أوبرا تسرد قصة عاهرة أُتهمت خطأً بأنها سممت بائعاً عجوزاً وحُكمت بالموت وفي النهاية يحكم عليها عشيقها بعد أن يصرّح بالحقيقة ويتزوجها.

الصوت رقيق على الدوام إنما هو رائع : «انتظر قليلاً ، خلال ستة أشهر سوف يظهر صوته! هذا يستحق الغناء بحق! . «كان المعلم العجوز يقول لي راضياً» .

كان المعلم يو يعامل كسياوشن كتلميذ حقيقي له . من جهتي ، كنت أعتبره صديقاً وخارجاً عن دروس الغناء ، كنا نذهب معاً في غالب الأحايين إلى المطعم أو نتسكع في الحدائق . كنا نحن الاثنين بالغين بما فيه الكفاية كيلا نتصرف بشكل معيب في أية مناسبة ، وكان كسياوشن رزيناً للغاية بالفطرة ولم يكن يبادر أبداً بأحاديث غير لائقة . مع ذلك لم يتوانَ المعلم يو عن الترديد في كل مناسبة : «ليست الأوبرا إلا تسلية لايجوز لها أن تعكر صفو الأعمال الجادة» .

-٢-

لأن كسياوشن كان ذكياً ، كان يتلهف لمعرفة الكثير من الأوبرا وبأسرع وقت ممكن ، حتى أنه كان يرغب بشدة أن يتعلم فصلاً كاملاً خلال أسبوع . أما المعلم يو ، فلم يكن من جهته مستعجلاً . كان يعلم أنّ كسياوشن فطيناً لكنه لايرغب أن يكلفه أكثر مما يطيق . لذلك هو يفضل ألا يعلّم كسياوشن إلا بضعة ألحان . لكن يلزم على هذا الأخير أن يلفظ كل حرف بتميز وبإتقان . كذلك كان يتهجى الكلمات بدقة ويلفظها بوضوح تام ، وهو شيء نادر بين الفنانين الهواة .

مثل كل الشبان كان كسياوشن يحب التغيير والتنويع . كان يحدث له أن يغني الألحان الجديدة التي يتعلمها المرء من اسطوانات الحاكي وكان يرغب أن يسمعها إلى معلمه العجوز . لم يكن ذلك الأخير ينبس بحرف ، لكنه كان يفكر بالأمر . وبما أنّ المشهد كان يلزم أن يتكرر عدة مرات انتهى الأمر في يوم إلى أن قال لي على انفراد : «مع تلميذ مثله أظن أنني لن استمر طويلاً . وبما أنني لاأطالبه بشيء كما هو معروف ، إن أعطيته دروساً أم لا ليس لذلك أية أهمية ، لكن مايثير قلقي أنه يحيد عن جادة الصواب . الأوبرا في نهاية الأمر هي شيء ثانوي ، لكن سلوكه . . . آه!

سلوكه. . . لست مطمئناً. أنا أحب هذا الصغير حقاً. إنه ذكي جداً والناس الأذكياء يستسلمون لغيرهم بسهولة. «لم أرد بشيء مقتنعاً أنه كان يقول هذا الحبه لكسياوشن ولأنه يكره في الآن ذاته الطرق الحديثة في الغناء. في الواقع فكرت أنّ الأمر لايتعدى كونه دعابة. ما الفائدة من الرغبة بأي ثمن في البت بين ماهو قديم وماهو جديد، بين ماهو صحيح وغير صحيح! كنت أعلم أنّه من المستحسن لتجنب غضب المعلم العجوز أن لاأرد بشيء أبداً.

بعد ذلك بفترة قصيرة، شعرت أنّ قلق المعلم العجوز له مايسوغه. التقيت كسياوشن بصحبة فنانين هواة من نوع مختلف تماماً. كان المعلم يو رجلاً شجاعاً ذا مبادئ. إنّه يعرف غناء بعض الألحان، لكن خارجاً عن ذلك لاشيء آخر يميزه عن الناس العاديين. الآخرون على العكس من ذلك، كانوا فنانين هواة شكليين ولاشيء آخر. لم يكونوا محترفين لكنهم مع ذلك كانوا يحلقون أعلى جمجمتهم، يرتدون ملابس مضحكة، يضعون المساحيق ويتكلمون ويتصرفون تماماً مثل الممثلين الفاشلين. إنهم غير قادرين بتاتاً على غناء مسرحية كاملة، لكن ذلك لم يكن يمنعهم من أن يكونوا من أسوأ خلق الله. عندما رويت للمعلم يو مارأيته، لزم الصمت لفترة طويلة.

بعد ذلك بيومين عدت لرؤيته. كذلك كان كسياوشن هناك. عند رؤية تعبير وجهيهما، الواحد كما الآخر، عرفت أنّ شيئاً ما قد حدث. ماكدت أجلس حتى أشار المعلم يو إلى أحذية كسياوشن وهو يطلب شهادتي: «انظر إلى هذا، هل تعتبر أنّ هذه الأحذية هي أحذية رجل؟ رمادي لؤلؤي مع نعل رقيق مثل وجه الحذاء؟ لو كان يلزم عليه أن يصعد إلى المسرح ليمثل دور امرأة ويرتدي خفاً ملوناً من أجل المرح، يمكن تجاوز ذلك! لكن أن ينتعل أحذية كهذه للنزهة في كل الأنحاء؟ ماذا يعني هذا؟

كان يصعب عليّ التدخل بالأمر. بعد أن فكرت ملياً لبرهة انتهى بي الحال إلى القول وأنا أضحك: «في مخازن سوشو وشنغهاي نرى دوماً أحذية متأنقة للرجال

وذات ألوان فاقعة. إنها ليست مثل تلك التي نراها عندنا، دوماً سوداء اللون بكاملها ومربكة في السير وثقيلة الوزن». ظننت أنّ هذه القصة يمكن أن تنتهي بلطف إذا ماأراد المعلم العجوز أن يهدأ قليلاً وإذا وافق كسياوشن على عدم انتعال هذه الأحذية بعد ذلك.

لكن المعلم العجوز أصر وهو يتابع فكرته: «هذا الأمر ليس بسيطاً كما يبدو! لقد أهدوه هذه الأحذية. أنت تعلم أنني أتردد على هذا الوسط منذ أكثر من عشرين عاماً وأعرف كل هذه الحيل. اليوم يهدونه أحذية، غداً مناديل، وفيما إذا وافق على قبولها تنتهي هذه الألسنة المقذعة في شتمها كحالها على الدوام، في أن تجعل منه بفضل ثرثراتها، إنساناً بلا قيمة بعد أن كان شريفاً. بما أنك تحب الأوبرا فعلاً يلزم أن تكفيك الدروس التي ألقنك إياها. لماذا تتعلق بهذه العصبة من الخسيسين وتكون ضحية دناءتهم؟

شحب وجه كسياوشن. عرفت تماماً أنه كان غاضباً، لكنني لم أتصور أنه كان قادراً على أن يكون عنيفاً هكذا. خلُص به الحال بعد أن بقي مدهوشاً لبعض الوقت إلى أن يفلت بضع كلمات بشعة للغاية: «قد عفى الزمن عن وسائلك أنت. لهذا سألتزم بعصري لأتعلم أشياء جديدة!. عند ذلك احمر وجهه فجأة، وليتجنب أن يعاوده الخجل مرة أخرى خفض رأسه، حمل قبعته وخرج دون أن ينحني وهو يمر أمام المعلم يو.

عندما رأيته يبتعد لم يستطع المعلم يو أن يمنع نفسه عن التحسر وقد ارتجفت شفتاه.

- يحتد الشباب بسهولة، من العبث أن... قلت له مواسياً.

- ايه! سوف يقضون عليه. سيقولون له أنّ وسائلي قد تجاوزها الزمن، سوف يعرّفونه على معلمين جدد، سوف يدفعونه «للاحتراف». سيستنفذون قواه وفي النهاية سيرمون به. ياللخسارة، ياللخسارة! ووقع المعلم يو صريع المرض لأيام عديدة.

-٣-

استطاع كسياوشن الاستغناء عن معلمه يو وأضحى لديه العديد من الأصدقاء. بدأ يغني وكأنه في معبد صغير في جناح الروائح الربيعية(١)، وهو منزل للشاي تقدم فيه عروض كل يوم بعد الظهر، لكن لايمكنه أن يؤدي دوره فيه إلا يوم الأحد. وبما أنني كنت أعرف، بوساطة المعلم يو، العديد من الفنانين الهواة الآخرين، غالباً ماكنت أذهب إلى هناك بعدظهر يوم الأحد، عندما يسنح لي الوقت، لأشرب الشاب وأستمع إلى بعض المقاطع الأوبرالية. ثمة دوماً وجوه أليفة حولي ويمكنني التنقل من طاولة إلى أخرى لأراقب جيداً حركات كسياوشن.

عند هذه الفترة بدأ البعض يقولون أنه كان «لواطياً». لم أستطع تصديق الأمر. حتى لو كان وجهه مضيئاً ويغني بصوت خافت، كنت أعرفه أيضاً ذكياً ومتحفظاً، خاصة أنّ لديه مهنة. يمكنه حتماً أن يتغير، إنما ليس إلى حد يصل به إلى هذا «الأمر». كنت مقتنعاً بهذا تمام الاقتناع. كذلك عندما كنت أراقب تصرفاته، كنت أتفحص بانتباه أيضاً أولئك الذين كانوا ينسبون إليه هذا الأمر.

إنه يرتدي ملابس شاذة أكثر فأكثر ويبدو تماماً أنه يضع المساحيق. لكن ثمة شيء من الاستقامة تتسم بالتحفظ تنبعث دوماً من شخصه. ماأن كنت أرى الناس الذين يروجون هذه الشائعات والذين يتملقونه كنت أفهم ما يحدث: إذا كان يرتدي لباساً مضحكاً على هذا النحو ويضع المساحيق، فذلك لأنه - كما حدث عندما انتعل حذاءه اللؤلؤي- كان يتصرف ضد إرادته. ما تنبأ به المعلم يو يتكشف تماماً: لقد وقع في مصيدتهم ولن يتأخروا في تشويه سمعته.

ثمة واحد كان يلفت بشكل خاص انتباهي، إنّه رجل طويل القامة أسود البشرة. كان أعلى جمجمته محلوقاً وعيناه محاطتان بالزرقة، إنه يرتدي على الدوام

(١) منزل شهير للشاي في حي ليو ليشانغ يتردد عليه الرسامون وهواة جمع العاديات.

ملابس من الحرير طويلة للغاية وضيقة مع ياقة عالية جداً. كانوا يقولون إنه يعرف تمثيل أدوار hulian[1] لكنني لم أسمعه في يوم يغني مقطعاً واحداً. كما هي العادة، يدندن دوماً الفنانون الهواة بضع مقتطفات من أوبرا ما، أما هو فلا، مع ذلك، كان يعرف تفعيل الإيقاعات الموزونة للآلات الإيقاعية. وهو يحرك برشاقة أعضاء الفرقة لتحديد الإيقاع بشكل أفضل. واضح أنّ تقنيته قد تجاوزت مرحلة التنغيم والنطق المبين للكلمات. لقد وصل إلى مرحلة تمكنه من تصحيح توليفات المرافقة غيبياً. كان يعرف بلا أدنى شك قرع الطبلة[2].

كان هذا النموذج يلازم كسياوشن كظله ويحرسه مثلما يحرس قوّاد أشخاصه. وكانت عروض كسياوشن التي كنت أتابعها من الكواليس، ينظمها دوماً نوارو. إنه يفرض كلمته على الجميع ويقرر بشكل خاص في أية لحظة يلزم على كسياوشن أن يغني وأي أوبرا عليه تمثيلها. في الأيام التي يعرف فيها أنّ صوت كسياوشن سيكون ضعيفاً يطلب منه أن يغني مسرحيات مريحة أكثر. على العكس من ذلك، إذا حدث وروى كسياوشن مسرحية «زواج في مأوى اللصوص» يقوم بترقيته على الفور. عندما ينقصه شركاء لأداء الأدوار كلها، كان يعلم أيضاً كيف يجد الممثلين في اللحظات الأخيرة. وفي اللحظة التي سيبدأ فيها كسياوشن التمثيل، يمسك يده ويدله على المقاطع التي يلزم أن يركز عليها لينال بسهولة هتافات الجمهور، وتلك التي يمكنه أن يوفر جهده فيها بتوفير الجهد. وإذا خفُت صوت كسياوشن في أجمل مقطع في العرض يلزم عليه في هذه اللحظة الحرجة أن يُفهم كسياوشن أنّه يلزم عليه أن يسرع أو أن يقفز بضع جمل. أخيراً يمرر لكسياوشن التسجيل الصوتي[3] عندما يكون ذلك ضرورياً. الحماسة والعناية التي بواسطتها

(١) شخصية مذكرة بوجه ملون يوحي مظهره الملون بالقوة أو بعنف المشاعر والأحداث.

(٢) طبل صغير يفيد في توجيه الأوركسترا المرافقة خلال المشاهد.

(٣) تسجيل صوتي من طابع فرنسي اشتهر سلفاً في الصين منذ الثلاثينات.

يغدق عليه نوارو بالتوصيات والتوجيهات لاتقل أهمية عن تلك التي يوجهها مدرب إلى فريق كرة قدم تماماً قبل المباراة.

عندما كان كسياوشن ينتهي من الغناء، لم يكن نوارو يسمح أبداً لنفسه بأي شكل من النقد، إنّه المديح إلى ما لانهاية. لذلك كان يستعد بحدة لمهاجمة ممثلي danjiao[1] الأكثر شهرة في تلك الفترة: واحدة تملك صوتاً haitou[2] لكنها تسوق السفه حتى تغني أدوار qingyi[3] بلا حشمة. أخرى على الرغم من ذقنها المحدب وظهرها الضخم تعاند أيضاً على أداء دور huadan[4]. تدل هذه الأحكام، بالطبع على أنّه كان خبيراً وماهراً بهذه الأمور. كان لديه هدف آخر، أن يعرّف كسياوشن أنّه يمكنه من الآن فصاعداً أن ينافس هؤلاء المشاهير وحتى أنّه في كثير من الأمور قد تجاوزهم. الخلاصة هي أنه لايجرؤ على إغضابه، مع أنه كان واضحاً أن كسياوشن كان أحياناً يرتبك عبثاً ويحاول ألا يدع الآخر يمسك يده عندما كان يظهر على المسرح. في الواقع، كان واضحاً أن كسياوشن قد راوده بعض الأمل في أن يصبح نجماً مشهوراً. وليحقق هذه الآمال عليه أن يعتمد على نوارو. لذلك إذا مامنعه ذاك الأخير من التحدث مع أحد ما أو نصحه بأن يضع المساحيق، لم يكن يجرؤ على رد طلبه.

كان محتماً أن يُعامل كسياوشن «كلواطي» مادام نوارو ذاك يلازمه على الدوام.

حتماً إنه لم يكن يجهل هذا الأمر أبداً. لكنه يعلم كذلك أنّه إذا ماأضحى في

---

(١) ممثل نسائي.

(٢) نوع من تمثيل أدوار hulian.

(٣) دور نسائي من نوع جاد.

(٤) دور كوميدي كدور الخادمة أو المرأة المغناج.

يوم ممثلاً محترفاً سيكون الأمر رائعاً. إنه أريب ويتعلم كل شيء من أول مرة. حتماً كان صوته مقبولاً نوعاً ما لكن تبدل سحنته ووقفته على المسرح كانا ممتازين. إنّه يمتلك المؤهلات المطلوبة. يكفيه أن يريد وماعليه بعد ذلك إلا أن يمد يده ليجني أجور ضخمة. فلماذا لايسلك هذا الطريق؟ هل هناك ماهو سهل ومبشر أكثر من هذا.

إذا كان يرغب في سلك هذا الطريق، سيكون نوارو عوناً كبيراً له. إنّه بالفعل خبير في مناقشات الأوبرا كلها ويعلم كذلك الأمر كيف ينظم جلسات للاجتماعات الخاصة بين الأصدقاء، كيف يجد ممثلين بارعين، وكيف يجازيهم وكيف يستأجر اللوازم... المحترفون والهواة، حقيقيون أو زائفون، الكل عليه أن ينفذ أوامره. يمكنه أن يجعل من يريد مشهوراً أو يحط من منزله، لأنه كان ماهراً جداً في الأعمال كما كان في الأوبرا. لهذا يتوجب على كسياوشن أن يترقى بوساطته وأن يقبل الصداقة التي يفرضها الآخر عليه. بالطبع كان يمكنه دوماً أن يعارض في أمر أن يمسك يده، لكن سرعان ماسيرى أن المنفذ إلى عالم الهواة قد أُغلق على الفور أمامه. لاداعٍ للحديث عن طموحاته. حتى لو رغب التمثيل لمجرد الرغبة لن يكون بإمكانه إغضاب نوارو: كلمة واحدة من ذاك الأخير ولايجد كسياوشن مكاناً له يستطيع فيه أن يُشبع هوسه بالأوبرا: بالنسبة لهذه اللحظة، لن أقول المزيد.

-٤-

في عالم المسرح لايجرؤ أحد على قول أية كلمة عندما يكون نوارو مع كسياوشن. يلتزم الجميع الوقوف باحترام على مسافة منهما. أولئك الذين يرافقونه بالطبل لايجازفون أبداً بإضافة نغمة واحدة، حتى عازفوا الكمان لا يسمحون لأنفسهم بأن يقوموا بدور خبيث معه بأن يشدوا خفية وتراً بإفراط. حتى الممثلين الذين يعملون معه لايجرؤون كذلك الأمر على الارتجال خوفاً من إرباكه، ويتجنبون العمل بكل طاقاتهم كيلا يحصدوا إعجاب الجمهور ولا يبزون

كسياوشن. بينما كانوا ينعمون النظر بنوارو كانوا يتعمدون مجاملة كسياوشن. يشبهون في ذلك النجوم التي تقوم بدور إبراز القمر. إنهم لايفعلون ذلك بدافع إعجابهم به- لايعرف الفنانون الهواة كيف يعجبون بشخص- إنما حتماً كانوا جميعاً يخشون جانبه.

إذا كان هؤلاء الناس لايجرؤون على الكلام، فإنّ المشاهدين كانوا يقومون بذلك عوضاً عنهم. لايستطيع نوارو على أية حال منعهم من التعبير عن آرائهم.

يقسم هواة الأوبرا إلى فئتين مختلفتين. نجدفي الأولى الناس الذين يقدمون عند الحاجة، يوم السبت أو الأحد ليشربوا الشاي ويزيحوا الهم عن صدورهم. بذلك يمكنهم إرضاء ميلهم للأوبرا بنفقة قليلة. إنهم ليسوا بمتطلبين جداً. عندما يكونوا سعداء يعبرون عن ذلك بهتافاتهم، وعندما يشعرون بالخيبة لاينبسون بحرف أو يرحلون. الفئة الثانية تضم رواد جناح الروائح الربيعية. إنهم كلهم رجال مجربون جداً. بعضهم كان ممثلاً قديماً لزم عليه لسبب ما أن ينبذ المسرح. كذلك هم يأتون في كل الأيام إلى منازل الشاي ليصغوا إلى غناء الآخرين أو بالأحرى ليصفرّوا مبرهنين بذلك على أنهم جهابذة في هذا المجال. آخرون لايعلمون إلا بضع مقتطفات من الأوبرا وليسوا بعد متمكنين بما فيه الكفاية ليظهروا في عرض. فإذا كانوا يأتون بشكل يومي فذلك كي يشتركوا في الأمر ويضعوا المساحيق تماماً مثل الممثلين مقتنعين تماماً أنه في اليوم الذي سيصعدون فيه إلى المسرح سيرون على الفور أبواب النجاح تفتح أمامهم. ثمة أيضاً أقرباء وأصدقاء الممثلين الذين يقومون كل يوم بتشجيعهم دون أن يوهبوا أنفسهم بشكل خاص للأوبرا. كانوا مع ذلك يعرفون أن يهتفوا ويصفقوا في اللحظة المناسبة. أخيراً ثمة من يأتي لاحتساء كوب من الشاي وقَبِل ببطء الاندماج في الجو السائد وانتهى الأمر إلى أن اعتبر نفسه هو أيضاً من المطلعين.

إنهم هؤلاء الناس الذين ماأن يروا كسياوشن حتى يطلقون عليه لقب «لواطي».

يكفي أن يظهر حتى يبدؤا بالهمس. طبعاً لم يكن بإمكانهم إعلام الزبائن الجدد مباشرة في كل مرة يقدمون فيها: «هه! إنه لواطي». لكن حديثهم المنخفض يكون بليغاً بما يكفي كي يفهم الجميع الأمر. وكلما كان الناس الذين يتسمون بصفة الفضولية يفكرون أن يستعلموا ثانية منهم، كان ذلك يشجعهم على التهامس أكثر ويشنف الجميع آذانهم أكثر. عندها يتوقفون بغتة وينظرون إلى بعضهم البعض وهم يبتسمون. لايعود بإمكاننا إلا رفض التقاط أي شيء من همسهم ويكونون راضين جداً عن التصرف الذي قاموا به. إذا كان نوارو قوياً جداً على المسرح، هم، كانوا يمارسون تأثيرهم على الحضور. بين هذين التيارين المتناقضين كان كسياوشن ضعيفاً جداً ليقاوم هذا الشرك.

هؤلاء الناس كانوا إما شباباً أو أشخاصاً في الخمسين أو الستين من عمرهم. على الرغم من أعمارهم المختلفة، كانوا جميعاً مستخدمين مولعين بالمراهم التجميلية والمساحيق، ويضع الأكثر سناً طبقات أثخن من المساحيق. بينهم ثمة الفقراء كما الأغنياء. إنما يرتدي الجميع بطرق مرغوبة. للفقراء طريقتهم الخاصة في أن يكونوا مرهفين. يتكون وجه جلبابهم المبطن من القطن، لكنهم يحاولون الحصول على بطانة من الحرير من أجل الوجه السفلي، فإذا كانوا مرغمين على شراء القطن حتى بالنسبة للبطانة، يجتهدون شراء ألوان صارخة، لون خبازي فاتح أو أرجواني غامق ينسجم مع جلبابهم. كما يشمر الجميع عن أكمامهم ليبرزوا بشكل أفضل بياض قميصهم الناصع. لابد أنهم يقولون عن كسياوشن أنّه «لواطي» بدافع الغيرة لأنّه برأيي كانوا هم في الواقع من يبدو عليهم ذلك.

ماأن يظهر كسياوشن حتى كانوا يعرضون على سيماهم تعبيراً خاصاً جداً يمكنه حسب الحالة أن يمتد على شكل ابتسامة أو أن يتقلص بهيئة مقطبة. في الحالة الأولى، يمكن القول أنهم كانوا يمنحون كسياوشن بعض العطف الذي كانوا الوحيدين في العالم القادرين على السخاء به. في الحالة الثانية، يبدو الأمر كما لو

أنّ شعوراً كان لديهم في إثارة الغضب المقدس للإمبراطور. ولكي ينال كسياوشن تصفيقهم كان مرغماً على توجيه نظرات يلتمس فيها تسامحهم لكنهم لم يكونوا يمنحونه معروفهم بالسهولة التي يريدها.

في اللحظة التي يصعد فيها إلى المسرح أولئك الذين كانوا قد قرروا التملق سلفاً، كانت هيئتهم تبدو أكثر رصانة ويشرأبون جميعهم لكي يصغوا بشكل أفضل. فإذا أطلق الآخرون الهتافات لايتذمرون البتة. فقط في اللحظة التي لايلاحظ فيها أحد قط أي شيء غريب، يأخذون بالانتشاء كما لو أنهم ينسون أنفسهم فلا يعودون يستطيعون السيطرة على مشاعرهم الجياشة. عندها يتفاجأ الجميع بهتافهم الحماسي ويكونوا مضطرين للإعجاب بهم والاعتراف بأنهم الممثلون الحقيقيون. يبدو أنّه لو قدم لهم أحد وجبة لذيذة سيكونون جميعاً جاهزين للقيام بهذا الدور. حتماً لو كان لدى كسياوشن النية في أن يضع حداً لهؤلاء الخنازير، سيكون بالطبع مرغماً على دعوتهم إلى الطعام. سأقول لنفسي لو كنت مكان كسياوشن: «ما الفائدة من ذلك؟» لكن على أية حال كانت هذه مشكلته هو.

-٥-

في أحد الأيام، قررت الذهاب إلى هناك بعد أن قرأت إعلاناً في الصحيفة عن الحفلة الأولى[١] التي يقدمها كسياوشن. بالطبع حدثني قلبي أنّه توجب على نوارو أن يهيأ له جمهوراً كاملاً من المصفقين المأجورين. لكني كنت قد عقدت العزم ألا أحكم على موهبته بناء على الاستقبال الذي يرتبه له الحضور. يتوجب عليّ أن أقدره حق قدره حسب يقيني الخاص.

كان دوماً يجذب محاباة الحضور بفضل حركاته الإيمائية الرائعة بحق. مع

(١) تعرض هذه الحفلة أمام جمهور مدعو.

ذلك، لايستحق بكل صدق فنه الهتافي أي مرحى واحدة. عندما كان يغني في الأماكن الضيقة لايكون الأمر سيئاً، لأنه يملك بحق شيئاً ما، إنما على المسرح يبدو صوته ضعيفاً للغاية بكل تأكيد. فقط المشاهدون في الصفين الأوليين يتوصلون بالكاد إلى سماعه. أولئك الذين يجلسون إلى الوراء قليلاً لايتمكنون من رؤية إلا فمه مفتوحاً ولايلتقطون أي صوت. الحق يقال، ليس من السهل بمكان أن يجني المرء المال من الغناء في الأوبرا! كنت أعلم ذلك. إنما أن أقنع كسياوشن بالوضع الراهن كان بالنسبة لي عملاً حساساً. لاسيما وأن نوارو كان يعرف جيداً كيف يؤمن له مصفقين مأجورين حتى يحصل دوماً على تهليل الصالة وينتهي به الأمر إلى الاقتناع بأن أداؤه كان رفيع الشأن. بماذا كانت ستفيد نصائحي؟ بعد الحدث، كان إجماعاً عاماً يشمل الصحف إلى حد مقارنته بـ«تيان غويفانغ من العصر العظيم»[1]. أنا لاأجهل منشأ هذا المدح المغالي. كانت استراتيجية نوارو تعمل حتماً بشكل يخلو من العيوب.

ابتداء من تلك اللحظة، في صالات عروض الجمعيات الخيرية كما أثناء الجلسات الخاصة بين الأصدقاء، كانت عروض كسياوشن تعلق في كل مكان. لم يكن لدي الوقت للذهاب، لكني كنت أنشغل بالاً عليه أكثر فأكثر لأنني أعرف جيداً أنه لكي يكثر على هذا النحو من العروض وليصبح مشهوراً، يلزم الكثير من المال. ليس نادراً أن يبدد فنان هاو كل ثروته، وكسياوشن فوق ذلك، كان شاباً فقيراً. فإذا كان يرغب في المحافظة على مكانته، عليه الحصول على لوازمه الخاصة وملابس العروض، ويجد مغنين ثانويين جيدين لمرافقته، وأن ينفق على ملبسه، باختصار عليه أن يعيش عيشة البذخ. كيف يمكن لموظف بسيط أن يتصرف حيال ذلك معتمداً فقط على نفسه؟ هذا مستحيل!

طبعاً، كان يمكن لنوارو أن يساعده، لكن لو اختلفا في يوم ولزم عليه أن

---

(١) ممثل مشهور كان يلعب أدواره في القصر الإمبراطوري من ١٨٤٤ - ١٩١١.

يسدد كل شيء، كيف سيتصرف؟ الآن أدرك جيداً قلق المعلم يو. إنه بحق رجل تجارب ولم يكن كلامه مبالغاً فيه أبداً.

بعد فترة وجيزة علمت أن كسياوشن قد سرح من عمله بسبب فواتير مزيفة واختلاس أموال. لم نكن صديقين حميمين للغاية، لكني كنت أعلم حق العلم أنه لم يكن نصاباً. كنت مقتنعاً بأنه لايستطيع أبداً أن يرتكب جريمة كهذه لو لم يكن قد أسقط بيده. أنني أغفر له عن طيب خاطر وأحقد على نوارو وكل أولئك الذين تألبوا عليه.

قررت الذهاب لرؤيته، لربما أمكنني القيام بشيء من أجله. في النهاية، لم أكن أفعل ذلك لأساعده مالياً بل لأتحدى تأثير نوارو وأحاول سحب شاب ذكي من يدي هذا الآدمي المخيف.

-٦-

في غرفة كسياوشن ثمة بعض الأشخاص ينظرون إليه «باهتمام». كي يوفر القليل من المال، كل ماكان يمكنه أن يقوم به كان يفعله بيديه. إنه على وشك، في هذه اللحظة، أن يصنع واحدة من هذه الصداري التي تلبسها الخادمات في مسرحيات الأوبرا. الجميع يدخن ويناقش، أما هو فلم يكن ينبس بحرف. كان منشغلاً جداً في لصق لآلىء زجاجية فوق الصدرية. لقد رسم بالغراء غصناً كبيراً لشجرة خوخ ويثبت عليه لآلىء زجاجية متعددة الألوان. بذلك يوفر الوقت والمال وعندما سيرتديها ستلمع باطراد أيضاً.

عندما دخلت اكتفى برفع عينيه والابتسام، ثم خفض رأسه وعاد إلى عمله كما لو أنه يرغب أن أختلط بالآخرين. ولأنني لاأعرفهم وليست لدي على أية حال الرغبة في تجاذب الحديث معهم، لم يبق أمامي سوى الجلوس وقد بدوت كالأبله تقريباً.

كل هؤلاء الرجال كانوا قد بلغوا الأربعين عاماً ويزيد وبعضهم كان يطلق لحيته. بإصغائي إلى ماكانوا يقولونه وبمراقبتي لهيئتهم، كنت واثقاً تقريباً من أنهم أيضاً فنانون هواة لكن من طراز آخر. تدل الطريقة التي يرتدون فيها ملابسهم أن الأمر يتعلق بلا ريب بموظفين صغار، على الأرجح أولئك أنفسهم الذين ينادون بتميز الجنس ويحافظون أكثر من غيرهم على القيم التقليدية للعائلة والمجتمع. هذا لم يمنعهم من المجيء لرؤية كسياوشن وهو يعمل. لم تكن أحاديثهم مبتذلة، بل على العكس، كانت حواراتهم مهذبة. فقط كانت عيونهم لاتفارق كسياوشن ويرسمون ابتسامة كانت في كل مرة تكشف عن نيّة سيئة وفجور، على مايبدو كانوا لايستطيعون قهرهما.

لم يكن كسياوشن يتدخل جداً في مناقشاتهم، مع ذلك عندما كانوا يتحدثون عن ممثل ما أو يستهجنون طريقة غناء ممثل آخر، كان يرمي شغله جانباً، يقطب حاجبيه قليلاً ويصغي بانتباه شديد. من ثم، كان يعبر بحمية تشبه إلى حد كبير حمية نوارو، عن رأيه بحزم مشيراً إلى ثغرات هؤلاء وأولئك دون أن يسهب في الحديث، إنما بهيئة حازمة. لم يكن يبحث البتة عن إظهار مزاياه، لكن أحكامه النقدية تلك التي يظن أنه كان قاسياً كالحديد في إطلاقها، كانت كافية جداً لتشهد على تفوقه. إنه مقتنع سلفاً وبشدة في أنه ممثل لأدوار نسائية لايقارن وأنه ماعداه لاثمة ببساطة شخص آخر يعرف فن الأوبرا معرفة عميقة.

كان من الصعب دفعهم للخروج. بدأت بعد ذلك أشارك كسياوشن بما كنت أريد قوله له. ولأتجنب المراوغة في الحديث طرحت عليه سؤالاً مباشراً:

- ماذا تعمل لتكسب عيشك؟

احمر وجهه بغتة. لقد تذكر بلا أدنى ريب الإهانة التي لحقت به جراء تسريحه من العمل. لدى رؤيتي أنه لايتمكن من الرد، تطرقت بكل صدق إلى لب الموضوع:

- عليك ديون كثيرة أليس كذلك؟

أطلق ضحكاً مغتصباً لكن تعبير وجهه كان حازماً:

- أنا مرغم على الاستدانة لكن الأمر ليس خطيراً، فأنا سأكسب المال. كما ترى، إذا كان لدي الآن ثلاثة آلاف يوان لنفقتي اللباس واللوازم يمكنني الرحيل فوراً إلى شنغهاي للغناء لمدة خمسة عشرة يوماً ومن هناك- أخذت عيناه تتوقدان- أذهب إلى هانكو، جينان، تيانجين وأعود إلى هنا، سأكون . . . ، رفع إبهامه وهو يده مشيراً بهذه الحركة على أنه سيكون الأفضل بين الجميع.

- هل الأمر بسيط إلى هذا الحد؟ قلت له بعنف.

رماني بنظرة سريعة، ضحك ساخراً ثم لم يتنازل الرد على سؤالي.

- هل أنت نفسك من لديه هذه الثقة في موهبتك، أم أنك مرغم على المضي في هذا الطريق بسبب ديونك؟

اسمعني جيداً. الآن أنت مدين له بألف يوان أو اثنين، وحتى لو وجدت عملاً لن يكون باستطاعتك تسديد المبلغ له. إذن، أنت تظن أنك قادر على جني الآلاف دفعة واحدة، وهذا الشخص هو من يدفعك إلى هذا الطريق، هذا صحيح أليس كذلك؟

استغرق للحظة في التفكير، تردد، أطلق تنهيدة لكنه لم ينبس بحرف. كنت أعلم أنّ كلامي قد زعزعه قليلاً.

تابعت القول: إذا كان حقاً ما أقوله لك فكر جيداً، أنت مدينَهُ الآن. مهما كان ربحك وفيراً ستكون مضطراً أيضاً لأن تقترض منه. هو يمكنه أن يحرجك حتى آخر أيامك. أولئك الذين يتملقونك هم أيضاً من يريدون حياتك. إذا كنت تقدر أنني

لاأقول لك هذا لمجرد إخافتك، جد وسيلة لتسديد الدين وابحث عن عمل. سوف أساعدك لكن لاتضع قدمك في هذا الوسط. عليك التفكير ملياً بالأمر.

اكتفى بالرد عليّ بجملة واحدة حتى دون أن ينظر إليّ: «يستحق الفن أن نقدم التضحيات من أجله». كان دوري أنا لأن أسخر منه:

- أجل لقد درستَ، أعلم ذلك، يمكنك إطلاق عبارات جميلة كهذه، لكن هذا الكلام هو كلام فارغ لايعني شيئاً.

احمر وجهه من جديد لكن بدا واضحاً أنه لم يعد يرغب في أن يناقش الأمر. مناقشة كهذه لايمكنها إلا أن تضعف معنوياته أكثر. فضلاً عن ذلك كان في عمر لايعترف فيه المرء بأخطائه الخاصة بسهولة. صاح منادياً:

- ياأختي الصغيرة، ضعي غلاية الماء على النار.

لم أكن أعلم أنّ له أيضاً أختاً صغيرة، وهذا ماضايقني أكثر. خرجت دون أن أضيف شيئاً آخر.

-٧-

«مشهور في كل العالم، شن... الممثل الأول للأدوار النسائية، سيؤدي الأوبرا الشهيرة التاريخية... بلا منازع» في كل الأنحاء، في الطريق، في الصحف، نجد هذا الإعلان بأحرف كبيرة. كنت أعلم أنّ كسياوشن قد ترقى إلى ممثل محترف.

قبل يومين من العرض الأول، أقام حفل استقبال في مطعم بحار الشرق دعا إليه العالم الصحفي وبعض الأصدقاء. لم أعرف لماذا أرسل إليّ بطاقة دعوة. لم تكن لي النية حقاً في المشاركة في هذا النوع من الواجبات، لكن كانت لديّ الرغبة في رؤية كسياوشن من جديد. كذلك، بعد أن قمت ببرم وفتل البطاقة الكرتونية عدة مرات في يدي قررت في نهاية الأمر الذهاب لأقوم بجولة.

كان سبعون أو ثمانون شخصاً يحضرون الوليمة : رجال مهمون من عالم المسرح، صحفيون، مؤسسون يمتهنون التمثيل سوقيون من الوسط الفني. لم أعر أحداً أي اهتمام. أتيت فقط لرؤية كسياوشن.

كم تغير! كل مايتعلق بثيابه المتكلفة إلى حد البشاعة كانت تبدو غير عادية ومبالغاً فيها مثل ثوب عروس شابة في يوم زفافها. لكن ذلك لم يكن استهجاناً فقط. ماكان يثير الدهشة أكثر هو حجر ألماسي كان يحمله في بنصر يده اليمنى. فإذا كان ألماساً حقيقياً يلزم أن يساوي ألفين إلى ثلاثة آلاف يوان. من الذي قدمه له؟ ولأية أسباب؟ لقد وضع المساحيق علناً على وجهه النحيف كما عهده دوماً، لكنه في هذه المرة كان متورد الخدين. وكل هذا الاحمرار على وجهه، كان يؤكد أيضاً الانطباع الذي كان يوحي به سواء بحركاته أم بطريقته في الحديث بأنه دوماً على المسرح. إنه لم يعد يتوجه بالحديث إلى الناس إلا بعد أن يبرم رقبته بخفة، كما لو أنه كان يخشى أن يتلف ياقة ثوبه العالية. إنه يقطّب حواجبه ورأسه مائل على هذا النحو، في كل مرة كان يتحدث فيها ويرفع بعد ذلك زوايا فمه نحو الأعلى ليرسم عمداً غمازتين في تجويف خدوده. عندما رأيته على هذا الشكل اقشعرّ بدني.

في نهاية الأمر مادام نوارو كان لايزال هناك، لم أكن أحقد أبداً على كسياوشن. كان الآخر يتصرف كما العادة مثل مانيتو[1]. إنه يتنقل بين الناس وهو يربت على كتفهم، يحدثهم بصوت منخفض، يدعوهم للشرب أو يضحك معهم وهو يلقي نظرات الغرام باتجاه كسياوشن، ورائحة قوية من العطر تفوح من المنديل الكبير الحريري الذي كان يجفف بوساطته أعلى جمجمته السوداء اللامعة.

سمعت أقوالاً أنّ الدببة ماأن تلمح الناس حتى تمسك بيدهم وتنفجر ضاحكة رغماً عنها. لم أشاهد بعضاً منها قط، لكنني أتخيل بسهولة أنها لزام أن تشبه حقاً على هذا النحو نوارو.

---

(١) إله أو روح مسيطر على قوى الطبيعة عند الهنود الحمر.

ذلك الأخير لم يتوانَ عن لفت نظري إلى رجل قصير وسمين يبلغ الخمسين من العمر. إنه ضيف شرف المأدبة وإليه كان نوارو يتوجه بالحديث أكثر من غيره. إنه نادراً مايرد، لكن محدثه بقي دوماً يتصرف باحترام شديد، هه! لقد تحققت على الفور من أنني عثرت على الواهب الكريم. الحجر الألماسي، إنه هو إذن!

عندما دققت النظر فيه بإمعان أكثر، بدا لي أنني عرفت هذا الوجه المتعاظم. أجل! إنه هو! لقد رأيته على صفحات الجرائد والمجلات: الوزير شو[1] المؤسس المتحمس للفنون!

إنه هو حتماً، هذا أكيد، لأنه لم يشرب إلا كأساً واحدة من الكحول، شرب ببطء القليل من الحساء وغادر على عجل المأدبة. شيّع نوارو وكسياوشن الضيف حتى الباب بوقار. عندما عاد نوارو إلى الطاولة أخذ يلقي الدعابات كما لو أنه يدل على أنهم يستطيعون بعد الآن أن يكونوا أكثر استرخاء بما أنّ ضيف الشرف قد غادر. بعد الأطباق الأولى وليت الأدبار.

-٨-

كان الوزير شو ينفق المال ونوارو يقرر. قطن كسياوشن فيلا الوزير وأضحى يملك حقيبة ملابسه الخاصة، خاتم الألماس وحتى سيارة. أما بالنسبة للمال، فلم ير جنساً له لأنه كان بيد نوارو.

كان لشو شرفة في كل برامج كسياوشن، وكان يصطحب معه أخت كسياوشن الصغيرة. بعد العرض، كانوا يعودون كلهم إلى الفيلا. كانت الأخت رائعة الحسن بحق.

(١) تلميح محتمل جداً عن الوزير الشهير Chu Minyi الذي يلفظ اسم عائلته بالطريقة ذاتها إنما يكتب بشكل مختلف.

لقد منح شو لنفسه جمالاً. وكدّس نوارو مبلغاً من المال، ولزم على كسياوشن أن يغني الأوبرا وهو لايزال يُعامل كـ«لواطي». هكذا تسير الأمور. لاأحد يمكنه شيئاً حيال ذلك. لا ثمة وسيلة بعد الآن لجر كسياوشن من هذا الوضع الجهنمي. سوف ينالون منه والمعلم يو لم يخطىء التقدير أبداً.

-٩-

مشغولاً بأعمالي، مر عام كامل دون أن أذهب مرة واحدة إلى الأوبرا! كنت على علم تقريباً بنشاطات كسياوشن، لأن الصحف كانت غالباً ماتتحدث عن تمثيلياته، لكني كنت أجهل فيما إذا كان راضياً عن حياته الجديدة.

في أحد الأيام كان لديّ عمل في تيانجين. ولأنني شعرت بالملل الشديد كوني وحيداً في الفندق، أخذت صحيفة ونظرت إلى برامج المسرح. كان ثمة قادم جديد يدعى كسيانغ يقدم مشهداً في المساء عينه. لم أكن أعرفه لا من قريب ولا من بعيد، لكنني أردت على أية حال تبديد ضجري. لهذا قررت الذهاب إلى المسرح. لم أكن أتأمل كبير شأن من هؤلاء الممثلين الجدد، هذا يجنبني لاحقاً الشعور بالخيبة أو الضيق.

لم يكن كسيانغ هذا بالمستوى المطلوب حقاً. ولم يكن الديكور الباذخ ليعوض بشكل جيد عن فن غنائي سيء ومسرحية هابطة أيضاً. في الجزء الثاني كانت هيئته تدل بكل صدق عن عدم رغبته بالاستمرار. كم هو صعب أداء الأوبرا! لم أستطع كبح نفسي عن التفكير بـ كسياوشن.

في هذه اللحظة عينها لمحت نوارو. لقد مرّ كالبرق. انحنى على الطبّال بعد خروجه من الكواليس ليهمس بكلمتين في أذنه ثم اختفى مجدداً.

هه! أيضاً هذا الشخص القذر! فكرت في داخلي. إيه! قلت في الوقت ذاته أنه قد امتص بلا شك كسياوشن حتى آخر فلس وسوف يقوم الآن بسلب كسيانغ هذا! ياله من وغد!.

عند عودتي إلى بكين، قابلت المعلم يو. في معرض حديثنا عن أشياء وأخرى تطرقنا إلى موضوع كسياوشن. لقد كان المعلم على علم بمجريات الأمور أكثر مني. ما أن تعرضنا لهذا الموضوع حتى تنهد قائلاً: لقد انتهى كل شيء! لقد تخلى وزيره الرخيص عن أخته الصغرى وهي تلبث الآن في غرفتها بائسة، في حالة مبهمة لفتاة لم تعد كذلك، لكنها ليست سيدة أبداً. أما كسياوشن، بعد أن جنى أموالاً كثيرة للملون، أهمله ذلك الأخير ولم يعد يهتم به البتة، حتى أنه استعاد منه نصف ملابسه ولوازمه. يتخيل المرء دوماً أنه يمكنه جني الكثير من المال عن طريق غناء الأوبرا، لكن ذلك ليس سهلاً هكذا! يمكن للهواة أن يسمحوا لغيرهم بابتزازهم بسهولة، أولئك الذين يعملون في الظلمة عليهم أن يكتفوا بالحساء الشعبي، وأولئك الذين يضحون محترفين، وقد أرغموا سلفاً على تحمل تقلبات مزاج الآخرين، هم محظوظون جداً إذا تمكنوا من سد رمقهم حتى الشبع. كنت أعلم كل هذا وقد تنبأت به منذ زمن بعيد العهد، مع هذا...» أراد المعلم أن يقول شيئاً لكنه اكتفى بهز رأسه.

-١٠-

بعد نحو ستة أشهر، كان لدي عمل في جينان. كان كسياوشن يقدم فيها مسرحية في نفس الوقت. إنه نجم العرض ويؤدي ممثلون من الدرجة الثانية والثالثة أدوار Usheng[١] و Wusheng[٢] بكل احترام. لم تكن الأدوار متماسكة لكن ذلك كان يستحق الانتقال بحق. في الواقع حتى الممثلين في قصور جسر السماء[٣] في بكين طالبوا في جينان بمبالغ ضخمة ليقبلوا أن يتم استئجارهم للعمل. وكان

(١) رجل ملتحٍ يؤدي دور عجوز عسكري أو متعلم.
(٢) رجل عسكري يؤدي دور محارب.
(٣) حي شعبي مشهور حيث يتفاخر العديد من ضاربي الطبل والرواة وصاحبي العرائس.

كسياوشن رغم كل هذه الفجوات من فاقهم بذلك. عندها قررت الذهاب لأقدم له التشجيع، فهو في نهاية الأمر صديقي، أليس كذلك؟

في ذلك المساء، كان يقدم بلا منازع مسرحية كاملة يعرض فيها مشاهد لرجال دين ومحاربين وثمة معارك أيضاً. لقد تم توزيع كراسات عن الأوبرا على الحضور. يبدأ العرض الساعة التاسعة، ولم أستطع الذهاب إلا في التاسعة والربع وقد احتجزت في العمل حتى آخر لحظة. على الطريق، كنت أخشى أن يكون الوقت قد فات على حصولي على مقعد شاغر. كانت الساعة قد أضحت التاسعة والنصف عندما وصلت إلى المسرح. كان كل شيء مقفراً يشوبه الحزن كتنور أسود. في البعيد كنا نسمع بشكل جيد قرع الطبل وضربات الصنج، لكن لا ثمة قطة في الجوار. عندما رأيت تعبير وجه قاطع التذاكر، حزرت أنه لم يقم ببيع الكثير من البطاقات إذ كان لطيفاً جداً وأعطاني في الحال الرقم صفر في الصف الرابع. مكان مناسب جداً.

ماإن دخلت حتى تنبهت إلى أنه خلف الصفوف الأربعة الأولى كان الفراغ المطبق. في الكواليس الجانبية، ثمة أشخاص قلائل مفرقين هنا وهناك، وفي المقصورة، كانت شرفات اليمين والشمال شاغرة تماماً هي الأخرى. اتجهت بنظري نحو المسرح، لقد جعلوه باهتاً تماماً بأجهزة المسلاط[1] التي تعمل بغاز الأسيتلين وتشبه شخصيات من الورق المقوى العجيني[2]، أربعة حمالين للرايات تبدو على سيماهم الاستغراق الكامل وهم يحوطون شاباً[3] يرتدي لباساً أحمر اللون يجلس في الوسط. أمام صالة عارية كهذه، كان الممثلون يرسمون على وجوههم انطباعاً بأنهم ضحايا لظلم فادح. لاسيما وأن المشاهدين القلائل كانوا كلهم يتجمعون في الأمام. إنّ مسرحاً نصف صالته فارغة هو بحق أكثر شيء في العالم يثير الحزن عند رؤيته. إنه لايعود يشبه شيئاً، خاصة مايسمى مسرحاً، إنه مثل ديكور لكابوس.

---

(١) آلة تسلط البقعة على الشاشة.

(٢) مقوى مصنوع من الورق المستعمل والكرتون والصمغ وهو قابل لاتخاذ أشكال مختلفة.

(٣) دور شاب من أسرة ثرية.

ماكدت أجلس حتى بدّل قارعو الطبل والصنج إيقاعاتهم، وتم استبدال أغطية الطاولات والمقاعد بتطريزات جنوبية كتب عليها اسم كسياوشن. قرع جديد للطبل، وبعد أن تغير إيقاع الصنج الصغير، ظهر كسياوشن وهو يتثنى. لم يرحب به الحضور بهتاف واحد: كان الناس قليلين جداً لدرجة لايجرؤ فيها أي شخص على لفت الانتباه إليه. اغرورقت الدموع في عيني.

لقد كان نحيلاً إلى درجة لايتصورها العقل. وهذا ماجعله يبدو أطول ويشبه سمكة بوري وقد تزوقت. على الرغم من أنّ الحضور كان قليلاً إلى أبعد حد إلا أنه لم يؤد فقرته بشكل رديء، على العكس كان وجهه الناحل يعبر عن تصميم أبيّ وفي الحقيقة، كان يوهب نفسه كلية لكل التفاصيل، إن كان الغناء أو الإنشاد أو المظهر. بما أنه لا ثمة من يصفق، كان يحاول أن يتفوق على ذاته بحماسة ومكابرة جديرتين برسول يبشر بالدين. بعد كل مقطع، عندما كان يلتفت ليشرب جرعة من الماء، كنت أرى بوضوح أنه كان يسعل ويدلك صدره بانتظام قبل أن يعود إلى مواجهة الجمهور. لايزال صوته خافتاً جداً، لكن أداءه على المسرح قد بلغ مرحلة الكمال: كل حركة كل خطوة كان يقيسها بإحكام ودقة لامثيل لهما. عندما كان يتخذ وضعية لافتة بشكل خاص، كان يلقي نظرة على المشاهدين كما لو أنه يقول لهم: ألا يستحق هذا بعض التصفيق؟ لاأحد يهتف. منذ البداية، لم يعترض أحد!

فجأة، كما لو أن مسا قد أصابني استجمعت قواي وأخذت أصرخ: برافو! مرحى! لمحني كسياوشن وأومأ لي برأسه. لم أكن أفهم جيداً مغزى الحبكة إلا أنني بقيت حتى نهاية العرض. الحق يقال كان قلبي مضطرباً للغاية.

بعد العرض ذهبت إلى الكواليس. لم يكن كسياوشن قد خلع رداء العرض بعد. عندما قدم لي يده شعرت أنني أشد على كتلة من العظام.

قال لي وهو يبتسم: انتظر حتى أبدل ثيابي، أحب جداً أن نثرثر قليلاً.

صبرت لفترة طويلة لأننا بحق نظن أنه فتاة شابة لكثرة مايتطلب منه تبديل ثيابه وقتاً وعناية. إنه يرفع بنعومة الأزهار واللآلئ التي تزين شعره واحدة واحدة ثم

يتأكد من أن ملبسه قد صنفها جيداً بترتيب. عندما وصلنا إلى فندق الأخوة الثلاث، كانت الساعة قد أصبحت الواحدة والنصف. عندما دخلت غرفته، بدا على كسياوشن أنه نسي وجودي. لقد تمدد على السرير وأشعل بيد مرتجفة غليون الأفيون. بعد أن سحب نفسين طويلين قال مسترخياً:

- كما ترى، لو لم يكن لديّ هذا لما أمكنني العيش!

هززت رأسي ولم أجد ماأقوله، لو أردت التدخل للزم عليّ أن أقدم له النصائح الملائمة. لكن كيف يمكن لرجل عادي مثلي أن يسانده؟ بدا الأمر كأنني أصبحت متخلفاً عقلياً لهذا لم يبق أمامي سوى الصمت والإصغاء إليه. شفط نفساً جديداً وأخذ يقشر بلطف برتقالة قبل أن يضع ربعها داخل فمه.

- في أي يوم قدمت؟

قدمت له بإيجاز لمحة عن أعمالي ثم سألته بدوري:

- هل تسير أمورك؟

لاحت ابتسامة وهو يقول:

- هنا، لايفقهون شيئاً عن الأوبرا!

- هل أصبت بخسارة مادية؟

- بالطبع! - كان يبدو أنه وضع خجله جانباً ويتحدث بلهجة عادية جداً دون أن يظهر أدنى شكل من الندم- يومان آخران، إذا استمر الحال على هذا المنوال لايبق أمامي سوى أن أترك لهم صندوق اللوازم والثياب.

- إذن هذه هي النهاية؟

- أجل!

انتابته نوبة جديدة من السعال وأخذ يفرك صدره.

- حتى لو قمت بدوري على أتم وجه فهذا لايفيد في شيء. لايأتي الناس إلى المسرح. ماذا يمكنني حيال ذلك؟

فكرت أن أقول له أنّ صوته ضعيف جداً وأنه ساذج ورأسه محشو بالأوهام، لكنني لزمت الصمت. لن يفيد هذا في شيء. فهو لن يحسن صوته أبداً وحياته كانت قد تحددت سلفاً. لم يبق أمامه سوى المخدرات ومرض السل. في مثل هذه الشروط لماذا أثير ضيقه طالما أنني لاأستطيع تقديم أدنى مساعدة له؟

- لاريب أنّ الوضع في بكين أفضل، أليس كذلك؟ قلت له مؤاسياً.

- إنّه ليس بالمكان المثالي أبداً. ثمة العديد من الفرق والقليل من المال لنكسبه. على العكس ليس الأمر سهلاً هناك. إنه شاق في كل مكان! أخذ يقلب قشر البرتقالة وقد بدا القلق على محياه، لكنه كان يجتهد أن يبدو هادئاً.

- على أية حال ليس في يدي إله الأوبرا ما يلومني عليه، موهبتي أصيلة والباقي...

أجل موهبته... من العبث أن نقول إنه يعتبر نفسه على الدوام ممثلاً قديراً من الدرجة الأولى. الفشل المتكرر، البؤس، الضغوط وكل الصعاب التي خضع لها دون أمل في إمكانية التخلص منها، لم تثنه عن عزمه على الإطلاق. على العكس، إنه يحتفظ في داخله بثقة في النفس وحدها كانت تسمح له بالمتابعة. لكن من كثرة ما اغتر بنفسه لم يعد يخشى شيئاً وأضحى لامبالياً لكل ماكان يحدث معه. لقد افتضحت أخته وابتزوا ماله، لم يعد لديه سوى العظام على جلده ولايمكنه أن يستغني عن المخدر. إنه لم يقم بما هو مفيد له فحسب، بل ترك نفسه للآخرين ليقتلونها.

مع ذلك لايزال يؤمن بموهبته الفريدة .

- حسن! سوف نرى بعضنا في بكين . رميت التحية عليه ثم خرجت .

- ألن تنتظر الرواية الكاملة لـ جناح طقوس العنقاء . سوف أقدمها بعد غد . رد علي عند عتبة الباب . لم أقل شيئاً .

بعد عودتي إلى بكين بفترة قصيرة، علمت بموت كسياوشن من إحدى الصحف . لقد كان يبلغ من العمر أربعة أو خمسة وعشرين عاماً على أكثر تقدير .

الهلال

-١-

أجل، أرى أخيراً الهلال يشبه منجلاً بارداً يشع بلون ذهبي شاحب. كم من المرات، آه! كم من المرات لم أره فيها في السابق مخلصاً وساكناً؟ إنه مرتبط بالنسبة لي بالعديد من المشاعر وبالكثير من المشاهد المختلفة. جالسة أتأمله معلقاً بين الغيوم وهو مائل، أراه من جديد على شريط ذكرياتي التي أوقظها كما توقظ ريح المساء بتلات وردة كانت ترغب أن تنام.

-٢-

عند الظهور الأول لهذا الهلال البارد عرفت بحق معنى البرد والمرارة. لمع بريقه الشاحب فوق دموعي. كنت أبلغ بالكاد السابعة من عمري، فتاة صغيرة ترتدي سترة من القطن الأحمر وقبعة كانت أمي قد حاكتها لي من القطن الأزرق المطبع بالأزهار. أنا أتذكر ذلك. كنت أحدق في القمر وأنا أستند إلى حافة العتبة. في غرفتنا الصغيرة ثمة روائح لأعشاب مغلية، دخان المدفأة ودموع أمي ومرض أبي. وحيدة على درجات السلم كنت أنظر إلى القمر. لم يكن أحد يهتم بي أو يفطن أن يقدم لي العشاء. كنت أفهم معنى الكآبة التي كانت تسود في الغرفة، إذ كانوا يقولون إن مرض بابا هو. . . غير أني كنت أعاني من حزني الخاص على نحو أعمق بكثير. فأنا أشعر بالبرد والجوع ولا أحد يهتم بي. بقيت مزروعة هناك إلى أن نام القمر حينها

لم يعد يبقى لي أي شيء لذا لم أستطع كبح دموعي. لكن نحيب والدتي كان يخنق نحيبي. لقد قُتل والدي وتغطى وجهه بقطعة قماش بيضاء. كنت أرغب في رفعها لأراه ثانية لكنني لم أجرؤ أبداً. كانت الغرفة صغيرة جداً إلى حد أنه ملأها كلها. ارتدت أمي ملابس بيضاء وجعلتني أرتدي فوق سترتي القطنية الحمراء جلباباً أبيض اللون لم تكن أطرافه مكفوفة. أتذكر ذلك لأنني كنت أشد الخيوط على الدوام. كان الجميع منهمكاً ويذرف الدمع بشكل يفتت الأكباد، وفي الآن ذاته يتناقشون بصخب مما يدل على عقم مايقومون به، إذ لاشيء يفعلونه إذا جاز القول. وضعوا أبي في نعش من الألواح الرفيعة المتشققة من كل الأنحاء ثم حمله خمسة أو ستة رجال. تبعناهما أنا وأمي ونحن نبكي. عندما أتذكر بابا أتذكر ذلك الصندوق الخشبي حيث انتهى كل شيء بالنسبة له. في كل مرة أفكر فيه أقول لنفسي إنني لن أراه مجدداً إلا إذا فتحتُ هذا الصندوق. لكن على الرغم من أنني أعرف المكان خارج المدينة، حيث دفن تحت التراب، كان يستحيل علي أن أجده مثلما يستحيل أن نجد قطرة مطر ابتلعتها الأرض.

-٣-

كنت أنا وأمي لانزال نرتدي الملابس البيضاء عندما رأيت الهلال من جديد. كان الطقس قارساً. اصطحبتني أمي إلى قبر أبي خارج المدينة وقد تزودت بحزمة من الأوراق للحرق. كانت لطيفة معي بشكل خاص في ذلك اليوم وقد حملتني شوطاً من الطريق عندما لم أعد أستطيع مواصلة السير. عند مدخل المدينة اشترت لي كستناء مشوية. كان كل شيء بارداً ماعدا الكستناء. لكني لم أتوصل إلى أخذ قرار بشأن أكلها بل أخذت أدفئ يديّ بها. لم أعد أعرف المسافة التي كنا قد قطعناها لكن يقتضي الأمر أن تكون طويلة، طويلة جداً أكثر بعداً مما بدا لي يوم الدفن، لأنه كان ثمة الكثير من الناس بلا أدنى شك. هذه المرة كنا وحيدتين. لم تكن أمي تتكلم وأنا أيضاً لم يكن لدي رغبة في ذلك. الصمت يلف كل شيء. الطرقات مقفرة على

مدى النظر. هبط المساء سريعاً. تذكرت القبر: ربوة صغيرة، في البعيد تلال من التراب الأصفر كانت الشمس تغرب فوقها. ولأنني لم أعد أشكل أي قيمة لها وضعتني أمي إلى جانب القبر الذي كانت تحضنه وهي تبكي. بقيت جالسة هناك ألعب بالكستناء. بعد أن بكت أشعلت المال من أجل الأموات، دوّم الرماد أمام عينيّ قبل أن يستقر بكسل على الأرض. كان الهواء يهب بالكاد لكن البرد كان قارساً جداً. عادت أمي تذرف الدموع. فكرتُ مجدداً بأبي لكن لم تكن لديّ رغبة في البكاء من أجله. مع ذلك بكيت وقد أثارت دموع أمي الشفقة في نفسي. مسكت يدها لمؤاساتها. لكن نحيبها تضاعف بينما كانت تضمني إليها. غربت الشمس. لم يكن أحد في الجوار ماعدانا أنا وأمي. ولأنها شعرت بالخوف قليلاً هي أيضاً اصطحبتني أمي وعيناها لاتزالان مبللتين. كانت تنظر إلى الخلف بينما أصبحنا على مسافة بعيدة. استدرت بدوري، لم نعد نميز القبر وقد ضاع وسط كل الربى الصغيرة التي كانت تتابع حتى سفح التلال. تنهدت أمي. استأنفنا السير بسرعة تقريباً، ولم نكن بعد قد وصلنا إلى مدخل المدينة عندما رأيت القمر هلالاً. كان الباقي غارقاً في الظلمة والصمت. فقط القمر كان يصدر حزمة مضيئة باردة. كنت منهكة فحملتني أمي بين ذراعيها. لم أعرف كيف وصلنا إلى المدينة. الذكرى الوحيدة الغامضة هي ذلك الهلال في السماء[1].

-٤-

في الثامنة من عمري كنت قد تعلمت كيف أرهن الحاجيات. كنت أعلم أننا لن نجد مانقتات به في المساء إذا لم أحصل على المال. ليس ثمة خيار آخر بالنسبة لأمي. في كل مرة كانت تعهد إليّ بصرة صغيرة لأذهب بها، كنت أتيقن أنّه لم يبق لدينا حبة أرز في قعر القدر التي كانت غالب الأحيان نظيفة تماماً مثل أرملة عفيفة. في

(١) المشهدان الأخيران يعدان حتماً من السيرة الذاتية للكاتب. إنهما يذكران على وجه الاحتمال بموت والد الكاتب.

ذلك اليوم كان عليّ الذهاب بمرآة، الشيء الوحيد الذي كنا نظن أنه بإمكاننا الاستغناء عنه أيضاً على الرغم من أنّ أمي كانت تستخدمها في كل الأيام. كان الطقس ربيعاً، والملابس القطنية التي لم نعد نرتديها أخذت طريقها إلى متجر الدائن برهن حيازة. كنت أعلم أنه يلزم عليّ حمل هذه المرآة بكثير من العناية والعجلة لأنّ المتجر يغلق أبوابه باكراً. كنت أخشى بابه الأحمر وطاولته العالية جداً والطويلة جداً. كنت أشعر بقلبي يخفق بين ضلوعي بمجرد رؤيتي لذلك الباب. لكن يلزم عليّ الدخول منه وأن أرتقي، إذا جاز القول، العتبة التي كانت تنتصب أمامي. كنت بحاجة لكل قوتي كي أمدّ يدي بالغرض وأصرخ: «أنا أرهنه».

ثم أصرّ بكل حذر المال والبطاقة وأتعجل العودة لأن أمي تكون قلقة. لكن في هذه المرة لم يرغبوا بمرآة وقالوا لي أن أضيف إليها «سلعة» أخرى. كنت معتادة على غرفتنا الصغيرة وأظنها ممتلئة بالأغراض. بمساعدتي لأمي على إيجاد شيء يقدر بالمال فهمت كم كنا نعاني من عوز شديد. لم تعد أمي إلى إرسالي من جديد. وعندما سألتها من أين ستحصل على المال اللازم للطعام أعطتني باكية دبوسها، الشيء الوحيد الذي كانت تملكه من الفضة. لقد سحبته من شعرها عدة مرات دون أن تتوصل إلى قرار بشأن رهنه. إنه هدية زواجها من جدتي لأمي. أعطتني إياه وهي تطلب مني أن أترك المرآة. هرعت مسرعة بكل قوتي باتجاه متجر الرهن، لكن الباب الكبير المخيف كان قد أغلق أبوابه تماماً. جلست على حافة العتبة والدبوس بين يدي. لم أكن أجرؤ على البكاء بقوة. نظرت إلى السماء. ومن جديد لمع بريق الهلال فوق دموعي. كنت أبكي منذ زمن عندما ظهرت في العتمة وأمسكت بيدي. كم كانت يدها دافئة! لاشيء يشعرني بحال أفضل غير ملامستها. نسيت بفضلها جوعي وخيبتي. قلت وأنا أحبس شهقة: «أمي، لنذهب للنوم. سأعود من جديد غداً صباحاً». لكنها لم ترد بشيء. بعد أن مشينا لفترة استأنفتُ القول: «انظري إلى القمر. في اليوم الذي مات فيه بابا كان القمر مائلاً أيضاً. لماذا هو مائل دوماً؟». كذلك لم تزد أمي بشيء. كانت يدها ترتعش قليلاً.

-٥-

أخذت أمي تغسل للغرباء طيلة النهار. كنت أرغب في مساعدتها لكنني عاجزة عن ذلك. كل ماكان يمكنني القيام به هو أن أرافقها وأن أنتظرها لأذهب إلى النوم. أحياناً كنت أسمعها لاتزال تنهك نفسها حتى تتقطع أنفاسها وقد ظهر القمر. كانت الجوارب العفنة القاسية مثل الجلد والتي يرتديها تجار المحال تقطع لها شهيتها عن الطعام. كنت أجلس قربها وأنظر إلى القمر. بين أشعته كانت تمر خفية مرة تلو الأخرى خفافيش تبدو مثل حبات كستناء كبيرة منضدة على حبل من الفضة قبل أن تختفي في الظلمة. كلما كانت أمي تثير في نفسي الألم كنت أحب الهلال أكثر فقد كان ينشر العزاء في نفسي قليلاً. كنت أفضله في الصيف لأنه يكون رطباً مثل الجليد. كنت أحب الظلال المتلاشية التي كان يرميها على الأرض، رقيقة وغير واضحة ثم سرعان ما تختفي. في تلك اللحظة كانت الأرض تكتسي بظلمة دامسة، لكن ثمة بريق باهر للنجوم وعطر نفاذ للزهور قويين أيضاً. كان لدى جيراننا أشجار مزهرة وكانت أزهار نبتة آكاسيا ضخمة تتسلل من جهتنا مثل طبقة من الثلج.

-٦-

لأن يدي أمي أضحتا متشققتين من الغسيل، غالباً مالم أكن أجرؤ على الطلب منها أن تفرك لي ظهري لتخفف عني من حالات الحكة التي تصيبني. لكثرة الغسيل أصبحت يداها خشنتين. بدأ جسدها يهزل لأن رائحة الجوارب كانت تقطع شهيتها. كنت أظن أنها تبحث عن حل. كان يحدث مراراً أن تدفع عنها الغسيل وتنظر إلى العدم ببلاهة، ثم تبدأ الكلام إلى نفسها. بماذا كانت تفكر. لم أستطع التكهن بذلك.

-٧-

أوصتني أمي ألا أتشبث برأي وأن أناديه بـ «بابا» بكل لطف. لقد وجدت لي أباً. لقد كان جديداً أعرف ذلك، لأنّ الآخر كان في القبر. قالت لي ناصحة وهي تدير عينيها المغرورقتين بالدموع: «لا يمكنني أن أدعك تموتين من الجوع!». آه! لهذا إذن! ولأنني لم أكن أفهم تماماً شعرت بقليل من الخوف وأيضاً بقليل من الأمل: سوف نتوقف عن الشعور بالجوع. وبالمصادفة كان الهلال في السماء عندما تركنا غرفتنا الصغيرة. لكنه كان جلياً ويثير الغم أكثر من المعتاد: أنني أفارق عالماً أليفاً. رحلت أمي في هودج أحمر اللون يسبقها عدد من الموسيقيين الذين كانوا يعزفون عزفاً رديئاً. كنت أتبعهم مع سيد يمسك لي يدي. كان البريق الشاحب لذلك القمر المحزن يبدو مرتجفاً في الهواء البارد. الطرقات مقفرة. فقط عدة كلاب ضالة كانت تتسكع حول الموسيقيين وهي تعوي. كان الهودج يسير بسرعة كبيرة. أين يذهب؟ هل يحمل أمي إلى خارج المدينة صوب القبر؟ كان الرجل يجري وكنت ألهث بشدة وأختنق عبراتي. يده رطبة من العرق وباردة مثل سمكة. أردت أن أنادي أمي لكنني لم أجرؤ على ذلك. بعد برهة بينما كان الهلال يبدو مثل عين على وشك أن تغمض جفنيها دخل الهودج في زقاق صغير.

-٨-

لا أظن أنني رأيت الهلال من جديد لثلاث أو أربع سنوات. كان والدي الجديد لطيفاً جداً معنا. كانت لديه غرفتان، أمي وهو يشغلان الغرفة الداخلية وأنا أنام فوق سرير من الألواح في الغرفة الأمامية. في البداية كنت أرغب النوم مع أمي، لكن بعد عدة أيام أحببت جداً غرفتي الصغيرة ذات الجدران البيضاء حيث ثمة

أيضاً طاولة وكرسي. كل ذلك كان يبدو أنه يخصني. كان غطاء سريري سميكاً ودافئاً أكثر من القديم. استعادت أمي وزنها وأضحت هيئتها أفضل كما فقدت يداها تشققاتها شيئاً فشيئاً. مرّ زمن طويل لم أذهب فيه إلى متجر الرهن. أرسلني والدي الجديد إلى المدرسة. أحياناً كان يلعب معي. لماذا لم أكن أحب أن أناديه بـ «أبي» بينما كان رائعاً حقاً معي؟ من جهة أخرى، كان يبدو أنه مدرك لهذه النقطة. غالباً ماكان يبتسم لي، حينها كانت عيناه تبدوان جميلتين جداً. كانت والدتي تتوسل إليّ في الخفاء أن أناديه «أبي» ولم أكن أنا أرغب في إغاظتها. كنت أفهم أنه إذا ماكنا نأكل حتى الشبع فذلك بفضله هو... كلا، لاأتذكر أنني رأيت القمر خلال هذه السنوات الثلاث أو الأربع. ربما رأيته، لكنني نسيت ذلك. الهلال الذي كان يلمع من أجل موت بابا، ذاك الذي كان يضيء هودج أمي لاأنساهما البتة. ذلك الضوء الشاحب المتجمد سيبقى أكثر نقاء وطراوة من أي شيء، مثل حجر كريم كنت أظن أنني أستطيع لمسه بيدي.

-٩-

أحببت المدرسة. كانت تبدو لي مليئة بالأزهار على الرغم من أنها تخلو منها في الواقع. لكن عندما أفكر فيها أرى زهوراً مثلما يحدث عندما أفكر بقبر أبي وأرى الهلال مائلاً بين نسيم الحقول. كانت أمي تحب الورود وهي لاتستطيع شراءها، لكن إذا حدث وأهداها أحد واحدة، كانت تغرزها في خصلات شعرها سعيدة جداً. عندما كانت الفرصة تسنح لي كنت أقطف واحدة أو اثنتين. بوردة نضرة في شعرها كانت ملامحها تبدو شابة جداً عندما نراها من الخلف. كانت سعيدة لهذا السبب كنت أنا أيضاً كذلك، ولأنني بلا ريب كنت سعيدة في المدرسة أيضاً، كانت الذكرى التي أحتفظ بها عنها مرتبطة بالأزهار بالنسبة لي.

-١٠-

خلال سنتي الأخيرة في المدرسة الابتدائية أرسلتني أمي من جديد لرهن الأغراض. لم أكن أعرف لماذا رحل والدي الجديد فجأة. لم تكن أمي تبدو على علم بمكانه، لذلك استمرت في إرسالي إلى المدرسة مقتنعة أنّه سيعود قريباً. مرت الأيام ولم يأت أحد ولا حتى رسالة. كنت حزينة جداً لفكرة أن تعود أمي إلى غسل الجوارب القذرة. لكنها لم تفكر بذلك أبداً واستمرت تعتني بزينتها وبوضع الزهور في شعرها. الغريب في الأمر أنها بدلاً من البكاء كانت تبتسم دوماً. لم أكن أفهم شيئاً. أكثر من مرة عند عودتي من المدرسة، كنت أراها واقفة على الباب. بعدها أخذ الرجال ينادونني من بعيد في الطريق: «أنت، أعطي أمك هذه الورقة». أو «وأنت أيتها الفتاة الصغيرة هل أنت أيضاً للبيع؟» كان وجهي يحمر من الخجل وأشعر برغبة في دفن نفسي في التراب. فهمت دون أن أكون طاعنة في السن هذه الأمور. لم يكن بإمكاني الاستفسار من أمي، مستحيل. كانت لطيفة جداً معي وتردد برصانة: تعلمي واستفيدي من دراستك! هي نفسها كانت تجهل القراءة، لماذا تحثني على هذا النحو لأتعلم؟ كانت لديّ شكوك: هل تقوم بأشياء مشابهة بسببي؟ لكن ماذا في وسعها أن تفعل عدا ذلك؟ عندما كنت أحس بهذه الشكوك، كنت أتقصد الدعاء عليها، وبعد أن أتروى في الأمر لاأفكر إلا بمعانقتها وأن أتوسل إليها إلا تعود إلى ذلك. كنت أحقد على نفسي لأنني لاأستطيع مساعدتها وكنت أتساءل في نفسي ماإذا بإمكاني القيام بما هو أكثر بعد المدرسة الابتدائية.

استعلمت من صديقاتي، قالت لي بعضهن أنّ عدداً من الخريجات في السنة الأخيرة قد أصبحن عشيقات. وبعضهن قلن لي إنّ أخريات يعملن في الدعارة. دون أن أفهم جيداً كنت أعلم من الطريقة التي يتكلمن بها أن ذلك لم يكن جيداً تماماً. إنهن على مايبدو يعلمن ماهية الأمر. لكن لم يتوقفن في الخفاء عن مناقشة هذه الأمور التي يعلمن أنها تجرح الإحساس وقد تضرج وجههن بالحمرة من الإثارة والرغبة. أخذت أجانب الحذر أكثر من أمي: هل تنتظر أن أنهي المدرسة كي. . . ؟

عندما يتبادر إلى ذهني أفكار كهذه، كنت لا أجرؤ على الدخول إلى المنزل خشية أن أجد نفسي وجهاً لوجه أمامها. كنت لا أصرف المال الذي كانت تعطيني إياه أحياناً من أجل الطعام. كنت أذهب خاوية البطن إلى دروس الرياضة حيث أكون على حافة الإغماء وعندما أرى الأخريات يأكلن الحلوى كان لعابي يسيل. لكن من الضروري أن أوفر مصروفي لأستطيع الهرب في حال رغبت أمي أن. . . في الواقع، لم أكن أملك أبداً أكثر من عدة قروش. في تلك اللحظات كنت أنظر إلى السماء حتى أثناء النهار لأبحث عن قمري الهلال. إذا كان يمكنني أن أشبه حزني بشيء فهو إلى ذلك الهلال، الذي كان معلقاً في سماء رمادية اللون والذي سرعان ماسوف تحجب الظلمات بريقه الشاحب.

-١١-

أكثر ماكان يشقيني هو أن أتوصل إلى كره أمي بالتدريج. غير أني بشكل تلقائي كنت أراها على الفور تحملني لنذهب إلى قبر أبي، ولاأعود أستطيع كرهها. ثم يعود كرهي لها أقوى مني. كان قلبي مثل هلال القمر الذي يلمع خفية في بحر من الظلمات. غالباً مايقدم رجال إلى عند أمي. لم تعد تخفي الأمر. كانوا ينظرون إلي مثل كلاب تمد ألسنتها فيسيل لعابها. كنت أكثر جاذبية في عيونهم. وبعد فترة بسيطة، فهمت الأمور جيداً. يجب أن أتنبه. شعرت أنّ جسدي يخفي كنزاً واشتممت في داخلي رائحة تثير خجلي وتضعني في حالة من الهياج. كنت أملك قوىً يمكنها أن تحميني كما يمكنها أن تضربّي. كنت أتوتر وأتهاون بالتناوب دون أن أعلم حق اليقين متى كنت مصيبة في رأيي. لم أكن أطلب إلا مساعدة أمي. لكن في اللحظة نفسها التي كنت أرغب فيها أن أطرح الأسئلة وأطمئن عليها كان يلزم عليّ أن أتجنبها وأن أكرهها. وإلا لما كان بإمكاني الاستمرار. خلال فترات أرقي كنت أفكر فيها بهدوء أكبر وأجد لها الأعذار. عليها أن تجد القوت لنا نحن الاثنتين. إنما لديّ رغبة في رفض هذا القوت. كان قلبي وقد فاض بالتناقضات يشبه ريحاً شمالية

شـتـوية تسكن للحظة ثم تعـاود الهبـوب بعنف مـتـفـاقم . كنت انتظر بهـدوء فـورة الغضب التالية التي لن يكون بإمكاني كبحها .

-١٢-

لم أكن قد وجدت الحل بعد عندما ازداد الوضع سوءاً . سألتني أمي : وبعد؟ مضيفة إن الوقت قد حان كي أساعدها إذا كنت أحبها . وإلا لن يكون بإمكانها أن تهتم بي . لم أصدق أذناي ، لكن أمي عبرت عن رأيها بصراحة قاسية : «سرعان ماأصبح عجوزاً بعد سنتين ، لن يعود أي شخص يرغب بي حتى مجاناً» . للأسف! هذا صحيح . منذ زمن يلاحظ المرء تجاعيد وجهها على الرغم من الطبقة الكثيفة للمساحيق . إنها ترغب في إنجاز خطوة أخرى وأن تكون تحت التصرف الحصري لرجل واحد مادام لم يعد لديها الشجاعة أن تخدم أكثر من واحد في آن معاً . لقد عثرت على إنسان يمكن أن يكون هاوياً ، بائع مانتو mantou[1] لكن يقتضي الأمر أن تذهب في الحال إليه . وبما أنني كنت فتاة راشدة لن يكون الأمر طبيعياً أن أتبع هودجها . يلزم عليّ أن أتدبر أمري بنفسي . على العكس إذا كنت مستعدة «لمساعدتها» أن أكون معيلتها لايلزم عليها أن تقوم بهذا . أنا لاأطلب أكثر من أن أحميها ، لكني أرتعد لفكرة أن أكسب قوتي على هذا النحو . كيف يطلبون مني أن أتصرف كامرأة ناضجة وأنا عديمة الخبرة في هذا الأمر؟ كانت أمي قاسية القلب لكن المال كان بلا رحمة أكثر منها وهي ، من جهة أخرى ، لم تكن تجبرني على الأمر . لديّ الخيار إما أن أساعدها أو أن تذهب الأم وابنتها كل واحدة في طريقها . لم تكن أمي تذرف الدمع ، منذ زمن طويل جفت مآقيها . ماعساي أفعل؟

---

(١) خبز صغير يطبخ على البخار .

-١٣-

تحدثت بالأمر إلى مديرة المدرسة. إنها امرأة في الأربعينات من عمرها بدينة الجسم. لاتتمتع بذكاء حاد لكنها تتمتع بقلب طيب. كنت قد استنفذت كل الحيل وإلا كيف كان بإمكاني أن أعقد العزم على أن أقول لإنسانة شبه غريبة عني أنّ أمي... عندما بدأت الكلام كانت كل كلمة تحرق حلقي مثل قطعة جمر متقدة وبقيتُ فترة لابأس بها صامتة قبل أن أستطيع معاودة الحديث. كانت المديرة مستعدة لمساعدتي، لايمكنها أن تقدم لي المال إنما الطعام والمسكن في المدرسة حيث سأقطن مع خادمة عجوز. طلبت مني أن أقوم بأعمال كتابية للسكرتارية، إنما بعد فترة لاحقة حين أحسن من خطي. وجبتين في اليوم مع سقف، مشكلة كبرى وجدت لها الحل. لن أكون على عاتق أمي. هي نفسها في هذه المرة لن تذهب في هودج إنما في مركبة وعند هبوط الليل. أعطتني صرتي pugai[1] وهي تغادر وكانت تجتهد ألا تبكي غير أنّ الدموع التي تملأ قلبها سرعان ماانهمرت. كانت تعلم أنني لاأستطيع الذهاب لرؤيتها أنا ابنتها. بينما أنا نسيت كيف يبكي المرء. بقيت في مكاني أنتحب فاغرة الفم بينما كانت الدموع تسيل لوحدها. كنت ابنتها، صديقتها، معزيتها، لم يكن باستطاعتي مساعدتها إلا إذا قبلت باللامعقول. قلت لنفسي بعد هذا الوداع إننا كنا مثل كلبين منبوذين. علينا أن نقاسي الأمرين لأن بطوننا تعوي من الجوع، كما لو أن جسدينا ليسا إلا معدة تقسرنا على بيع كل ماتبقى. لم أعد أكره أمي. آه، كلا! هي ليست مذنبة. المذنب هو القوت الذي لايمكننا الاستغناء عنه مثلنا مثل الآخرين. جعلني الفراق أنسى العذاب الماضي. الهلال الذي كان أفضل من يفهم سبب دموعي لم يظهر أبداً. كان الليل حالكاً دون حشرة. اختفت أمي في العتمة مثل شبح دون أن ترمي بظل واحد. حتى لو لاقت منيتها في الحال لن يكون بإمكاني أن أدفنها قرب أبي، ولن أعرف أبداً قبرها. لم يكن لدي سواها. هي صديقتي الوحيدة. بقيت وحيدة في العالم.

---

(١) gai تعني غطاء و pu تعني مرتبة يلف الواحد على الآخر فيشكلان نوعاً من صرة أساسية للنوم.

-١٤-

كنت أظن أنني لن أراها قط ومـات الحب في قلبي مـثل زهرة بكور قـتلهـا الصقيع. أخذت أعمل بهمة في تحسين شكل خطي لأستطيع مساعدة مديرة المدرسة بأعمال كتابية بسيطة. يلزم الأمر أن أقدم النفع مادامت تقدم لي الطعام. لم أكن كباقي زميلاتي اللواتي يمضين سحابة نهارهن في مراقبة مايأكل الآخرين أو مايحملونه أو ما يفعلونه. لم أكن أهتم إلا بنفسي، كان ظلي هو صديقي الوحيد. قلبي ممتلئ على الدوام بذاتي لأنه لا أحد آخر يحبني. لذلك كنت أنا من يحب ذاتي، من يلومها ويشجعها أو يزجرها. كنت أعرف نفسي من الخارج كما لو إنني إنسانة أخرى. عند رؤيتي التغيرات التي تطرأ على جسدي كنت أتنقل بالتتابع من القلق إلى الفرح، وأتساءل ما الذي يحصل معي. كنت أعتني بنفسي مثلما نعتني بوردة رقيقة. لم يكن بإمكاني أن أقلق من اللحظة الراهنة، لم يكن لدي مستقبل ولاأجرؤ على التفكير به جدياً. ولأن الغرباء كانوا هم من يقدم لي الطعام، كنت أعلم متى يحين الظهر أو المساء وإلا لن يكون بمقدوري معرفة الوقت: بدون أمل لاوجود للوقت. كنت كأنني مسمرة إلى مكان لا أيام فيه ولاشهور. ذكرى أمي كانت تذكرني بأنه لدي ماض لأكثر من عشر سنوات. أما المستقبل، لم أكن أنتظر على غرار صديقاتي العطلات وأيام الأعياد ورأس السنة. هذا لايعنيني أبداً. لكن جسدي لم يتوقف عن النمو وهو يضاعف من قلقي ومن اضطرابي. تعزيتي الوحيدة هي أنني كنت أصبح أكثر جمالاً. يمكن للجمال أن يؤمن لي مكاناً أفضل في المجتمع، لكن بما أنني لاأملك مكاناً منذ البداية كانت هذه التعزية الرقيقة تتحول إلى مرارة وهذه الأخيرة تتحول بدورها إلى كبرياء. فقيرة لكن جميلة! والخلاصة أعود إلى الخوف. أمي أيضاً كانت أبعد ماتكون عن البشاعة!.

-١٥-

منذ زمن بعيد لم أعد أقدم على النظر إلى الهلال رغم رغبتي في ذلك. مع أنني حصلت على شهادة الابتدائية لازلت أسكن في المدرسة، وحيدة مع خادمين عجوزين رجل وامرأة. لم يكونا يعرفان كيف يتعاملان معي، أنا التي لم أكن تلميذة أو أستاذة ولا حتى خادمة إذا جاز القول. عندما كنت أتنزه في الباحة، مساء، كنت غالباً ماأعود مسرعة خشية أن أرى الهلال. لكن أفكاري كانت تجعله يلحق بي إلى غرفتي، خاصة عندما كان نسيم المساء يهب ويبدو أنه يحمل أشعته حتى تصل إلى قلبي لتذكرني بالماضي وتزيد من حزني الحاضر. كان قلبي مثل خفاش في ضوء القمر يبقى أسود اللون حتى وإن غمره الضياء. لافتقادي أي أمل غالباً ماكانت هيئتي كئيبة وصموتة لكنني لم أبك قط.

-١٦-

كنت أكسب القليل من المال من هنا وهناك بحياكتي للطلاب بعد موافقة المديرة على ذلك. لكن ذلك لم يكن يعود عليّ بالشيء الكثير لأنهن يعلمن أيضاً فن الحياكة ولايلجأن إلى خدماتي إلا عندما يكن مستعجلات جداً أو يردن زوجاً من القفازات أو الجوارب لأحد من عائلتهن. كان ذلك قليلاً جداً، لكنه كان كافياً جداً ليعيد إلي الرغبة في الحياة. كنت أقول لنفسي إنه يمكنني حتى أن أعيل أمي لو لم تكن قد رحلت. في الواقع كان يكفي أن أحصي ثروتي لأعرف أن ذلك لم يكن إلا وهماً مهما كانت ثروتي تعزيني. أحس بشوق لرؤية أمي وأنا مقتنعة أنها ستلحق بي عندما تراني. يمكننا أن نتدبر أمرنا، كنت أتخيل ذلك دون أن أؤمن به تماماً. على أية حال، كنت أفكر بها وغالباً ماأراها في أحلامي. في أحد الأيام، ذهبت للنزهة مع التلاميذ إلى ضواحي المدينة، وبما أن المسافة تستغرق أكثر من أربع ساعات سلكنا طريقاً مختصراً للعودة. هناك رأيت من جديد أمي. في أحد الأزقة الضيقة ثمة متجر لبيع

أرغفة الخبز مع سلة فوق الباب على شكل سبيكة yuanbao[1] يعلوها رغيف ضخم من الخشب الأبيض. كانت أمي تستند إلى الجدار تارة تنحني وتارة تنتصب لتشغّل المنفاخ. لقد رأيتهم من البعيد الرغيف الكبير وأمي التي عرفتها من ظهرها رغبت أن أهرع إليها وأن أقبلها، غير أني لم أجسر على ذلك خوفاً من أن يهزأ مني الطلاب بعد أن تصدمهم رؤية أمي. عندما اقتربنا خفضت رأسي ونظرت إليها من خلال دموعي. لم ترني ولم يبد عليها أنها لاحظت وجودنا عندما اقتربنا منها أثناء مرورنا وقد كانت منهمكة في تشغيل منفاخها. من البعيد أدرت رأسي إنها تتابع عملها، رأيت فقط خصلات شعرها التي كانت تنسدل على جبهتها. كتبت اسم الزقاق.

-١٧-

كانت الرغبة في رؤية أمي تقض مضجعي. في هذه الفترة بالضبط تغيرت الإدارة في المدرسة. طلبت مني المديرة أن أقرر. لاداع للقلق من ناحية الطعام أو السكن مادامت هي موجودة، لكن لايمكنها أن تلتزم بالأمر باسم المدير الجديد. أحصيت مدخراتي التي كانت تبلغ يوانين وسبعة ماو وبضعة قروش. هذا كاف كيلا أقع ضحية الجوع في الأيام الأولى. لكن أين أرحل. لايمكنني أن أبقى ساكنة أجمع شتات أفكاري السوداء، يقتضي الأمر أن أجد حلاً. فكرت بادئ الأمر أن أذهب عند والدتي. لكن هل يمكنها استقبالي؟ إذا كان الرد لا سأجازف بأن أوقع أمي في خلاف مع بائع الخبز، وفي كل الأحوال ستكون بائسة جداً. عليّ أن أضع نفسي مكانها، إنها لاتزال والدتي، ومع ذلك لم تعد كذلك لأنّ الفقر قد نصب عائقاً بيننا. بعد تفكير عميق رفضت الفكرة. عليّ أن أحل مشاكلي بمفردي. كيف؟ ليست لديّ أدنى فكرة. يبدو العالم لي ضيقاً دون موضع واحد يستقبلني مع صرتي. كنت أقل مرتبة من كلب فهو يجد زاوية ينام فيها. أنا، ليس لي الحق في النوم على قارعة

(١) سبيكة من الذهب أو الفضة ذات أطراف عالية من الجهتين يعود أصلها إلى العصر المغولي (ق. ١٣).

الطريق، أنا كائن حي أي أقل حظاً من كلب. إذا أثرت المشاكل رافضة الرحيل ألن يطردني المدير الجديد؟ لايمكنني الانتظار حتى يطردونني. كان الطقس ربيعاً. كنت أرى الأزهار تتفتح والأشجار تكتسي بالخضرة، غير أنني لم أشعر بالدفء. الورود الحمراء لم تكن إلا مجرد ورود حمراء والأوراق الخضراء هي أوراق خضراء. هذه الألوان لاتعني لي أي شيء. كان الربيع يموت ويتجمد في قلبي. لاأريد البكاء لكن الدموع كانت تسيل من تلقاء نفسها.

-١٨-

بحثت عن عمل. لن أذهب عند أمي. لاأريد الاعتماد على أحد في معيشتي. أمضيت يومين كاملين خارجاً أرحل والأمل يملأ نفسي وأعود ملوثة بالغبار والدموع. لاثمة عمل لي. أخيراً فهمت أمي وعذرتها تماماً. على الأقل قامت هي بغسل الجوارب النتنة، بينما أنا لست كفوءة حتى لهذا. لقد سارت في الطريق الوحيد الذي كان أمامها. المعارف والأسس الأخلاقية التي علمونا إياها في المدرسة هي مجرد مزحة. رغبة عابرة فقط لأولئك الذين يأكلون شبعهم ولديهم تساليهم. كانت صدمة صديقاتي اتجاه أمي ستكون كبيرة، فهن يتحدثن بسخرية عن الداعرات. لاشيء طبيعي أكثر من ذلك، فهن يأكلن حتى الشبع. لقد حزمت أمري تقريباً: سأقوم بأي شيء شريطة أن يقدم لي أحدهم الطعام. كانت أمي رائعة. قررت ألا أموت على الرغم من أن الفكرة كانت قد داعبت خيالي. كلا، أنا أرغب في العيش. أنا شابة وجميلة وأريد الحياة. لست أنا من اخترع المجاعة.

-١٩-

وأنا في هذه الحالة العقلانية تخيلت أنني وجدت عملاً. جرؤت على التنزه في الباحة، تذوقت جمال القمر هلالاً ربيعياً كان يتضح في سماء زرقاء غامقة دون غيوم. إنه يضيء بحنان أشجار الصفصاف التي كانت ترمي بظلالها أحياناً فوق شقة

جدار مضاء بعد أن كان نسيم الجنوب المعطر يداعب أوراقها. الضوء الخافت والرياح، كل شيء كان غارقاً في الهدوء والنعاس، وفي الوقت ذاته كان ينشط بفعل حركة متماسكة. ثمة نجمتان مبتسمتان مثل عيني إله كانتا تسخران من الهلال المائل ومن أشجار الصفصاف المرتجفة. قرب الجدار، ثمة شجرة تغطيها الأزهار. إنها تبدو تحت أشعة القمر الذي كان ينيرها حتى منتصفها مثل كرة ضخمة من الثلج. صورة لنقاء لايصدق. قلت لنفسي في هذه المرة لقد حمل لي الهلال الأمل هذه المرة.

-٢٠-

عدت إلى المديرة البدينة لكنها لم تكن هناك. دعاني شاب إلى الدخول. كان جميل الطلعة وودوداً للغاية. كنت أخاف من الرجال بشكل عام، لكن ذلك الأخير لم يثر في الخوف أبداً. دعاني للحديث وكنت سأمتعض لو لم أقم بذلك بعد أن لانت نفسي بفعل ابتسامته. شرحت له سبب زيارتي. تعاطف معي ووعدني بالمساعدة. في المساء عينه قدم لي يوانين، وبما أنني رفضتهما قال لي أنهما من عمته مديرة المدرسة. وأضاف أنها وجدت لي مسكناً يمكنني الإقامة فيه اعتباراً من اليوم التالي. لم أجرؤ على الشك في كلماته كما كان يفترض بي ذلك. لامست ابتسامته شغاف قلبي. سيكون الأمر فظاً ألا نصدق أحداً لطيفاً وساحراً على هذه الشاكلة.

-٢١-

شفتاه المبتسمتان كانتا فوق وجهي، وفوق خصلات شعره رأيت القمر هلالاً يبتسم أيضاً. نسيم الربيع كان يبدو ثملاً ويمزق الغيوم ليدعنا نرى القمر مع زوج أو اثنين من النجوم. عند ضفة النهر كانت أشجار الصفصاف تهتز بتراخ، الضفادع تنشد أغنية الحب ويفوح نبات القصب الفتي بعطره في الهواء الساكن للمساء.

أصغيت إلى خرير المياه، منبع القوة والحياة لنباتات القصب الطرية التي كنت أتخيل نموها المرح. كان نسغ البراعم الفتية يصعد من التربة الحارة والرطبة حتى يصل إلى الأوراق والأزهار. كل شيء في هذه البقعة من الأرض التي جملها وأخصبها الربيع كان ينشر رائحة الأزهار المتفتحة. فقدت الإحساس بكياني وقد استسلمت بكاملي للربيع مثل النباتات التي تحيطني. لم أعد أشعر بوجودي وقد ذابت نفسي في ضوء القمر الشاحب. بغتة احتجب القمر وراء غيمة وعدت إلى رشدي. لقد فقدت نفسي. وجدت نفسي كأمي.

-٢٢-

كنت أشعر بالندم ثم أعزي نفسي. كنت أرغب في البكاء أو أشعر بالسعادة دون أن أعرف متى كنت على حق. أردت أن أهرب وألا أعود إلى رؤيته، ثم أفكر به وأشعر بالوحدة. لديّ غرفتان صغيرتان حيث يأتي كل مساء على الدوام فاتناً جداً وحنوناً جداً. كان يقدم لي الطعام واللباس. رأيت كم كنت جميلة بفضل ملابسه الجديدة، وحتى لو كرهتها أحياناً لم يعد بإمكاني أن أدعها جانباً. لم أكن أجرؤ على التفكير وأجد نفسي كسولة للقيام بذلك. أتوه عن رشدي وأضع أحمر الشفاه. لا رغبة لدي في الاعتناء بزينتي لكني مرغمة تماماً على ذلك لعدم وجود مايشغلني. عندما أبدأ بوضع زينتي أشعر بالعطف على نفسي وماأكاد أنتهي حتى أكره ذاتي. أبكي للاشيء لكنني أتوصل مع ذلك إلى كبح دموعي ومن هنا ينبع سحر عيني المبللتين دوماً. أعانقه أحياناً مثل مجنونة ثم أدفعه وأشتمه. إنه يبتسم على الدوام.

-٢٣-

منذ البداية، كنت أعلم حق العلم أنه لاثمة شيء أتأمله. يكفي غيمة لتخفي الهلال. مستقبلي غامض. كان حلمي الربيعي قصيراً وانتهى مع قدوم الصيف. في

أحد الأيام ظهرت أمامي امرأة شابة. كانت جميلة جمالاً بارداً مثل تمثال من الخزف. ماأن دخلت حتى شرعت بالبكاء. لم يكن عليّ أن استجوبها لأفهم. وبما أنني رأيت أنها لم تأت لتثير المشاكل، لم أبادر أنا إلى معارضتها. كان طبعها جميلاً. أمسكت بيدي وهي لاتزال تذرف الدمع: «لقد خدعنا نحن الاثنتان». لقد ظننتها في البداية «عشيقة» مثلي. لكن كلا، إنها زوجته. عوضاً عن أن تبحث عن الشجار واظبت على تكرار قولها: «أعيديه إلي!». راودتني مشاعر عدة ثم وعدتها بذلك بعد أن أثارت شفقتي. ابتسمت. لقد بدت لي غبية بما فيه الكفاية وعاجزة عن فهم أي شيء عدا أنها تريد زوجها.

-٢٤-

زرعت الطرقات لعدة ساعات. من السهل إلقاء الوعود. لكن ماعساي أفعل؟ لم أعد أرغب بالأعمال التي عرضها عليّ. على القطيعة أن تكون جذرية. لكن ماذا يبقى لي إذا مارفضت هذه الممتلكات التافهة؟ أين أرحل؟ كيف سأكل في هذا المساء عينه؟ حسن، سوف أحتفظ بها، ليس أمامي حل آخر. سوف أنتقل خفية ولن أندم على شيء. لكنني أشعر أنّه قُذف بي في الفراغ مثل غيمة. استقريت في غرفة صغيرة ونمت النهار طوله.

-٢٥-

أعلم كيف أكون مقتصدة وقد عرفت قيمة المال منذ نعومة أظفاري. كنت أرغب في إيجاد عمل فوراً قبل أن أقع في العوز تماماً. لم أكن أتأمل شيئاً، على الأقل لم أكن أجازف بشيء. لكنني كبرت عامين أكثر ولم يعد ذلك سهلاً أكثر من السابق. أتشبث برأيي فقط لأنني أقدر أنّ الأمر يقتضي ذلك. إنّه بالفعل صعب على المرأة أن تكسب المال! كانت أمي محقة لا ثمة طريق آخر ماعدا طريقها. أبيت على نفسي سلوكه على الفور مع يقيني أنني سأفعل ذلك عاجلاً أم آجلاً. كلما كنت أتحفظ أكثر

كان خوفي يكبر. كان أملي يشبه القمر الجديد الذي سرعان مايتلاشى ويجد نفسه رقيقاً جداً بعد أسبوع أو اثنين. في نهاية الأمر تقدمت للعمل في مطعم. استعرض ربّ العمل، رجل ضخم لايتمتع جسمه بأي تناسق وقامته مديدة، صفاً من الفتيات الشابات كلهن جميلات ومتعلمات. كل واحدة كانت تنتظر كما ينتظر المرء حظوة إمبراطورية، أن يختارها هذا العملاق الشيخ مثل هيكل بال. إنها أنا من اختارها. لست ممتنة له أنه اختارني غير أني في تلك اللحظة كنت سعيدة حقاً. نظرت الأخريات إليّ بعين الحسد، أثناء رحيلهن كان بعضهن يبكي والأخريات يشتمن من الغيظ. حتماً ليست للمرأة قيمة تجارية.

-٢٦-

وجدت نفسي خادمة من الدرجة الثانية في هذا المطعم الصغير. إحضار الأطباق وصفها على الطاولة، جمع الحساب وسرد لائحة الطعام، أشياء كثيرة كنت غير قادرة على القيام بها وكانت تثير الفزع في نفسي. لكن الخادمة «الأولى» نصحتني ألا أفقد عقلي، فهي لاتعرف أكثر مني. إنّه كسياو شون الذي يهتم بكل الأمور. يقتصر دورنا على تخديم الزبائن بالشاي وتقديم فوط ساخنة وإحضار الحساب لهم. الباقي ليس من شأننا. الغريب أنّ أكمام «الأولى» كانت ملفوفة عالياً جداً وبطانة أكمامها كانت ناصعة البياض دوماً. لقد عقدت في زندها منديلاً من الحرير الأبيض طرزت عليه الكلمات التالية: «أختي الصغيرة، أحبك». كانت تصلح زينتها وتبدو شفاهها الملونة كرمّانة حمراء كالدم. عندما كانت تشعل لفافة لأحد الزبائن، كانت تضغط ركبتها على ساقه وعندما كانت تقدم الكحول كانت تأخذ جرعة منه أحياناً. ثمة من كانت تهتم به بشكل خاص ومن كانت تتجاهلهم تماماً. فإذا غضت الطرف متظاهرة بأنها لاترى أحداً مايكون لزاماً عليّ الاهتمام به.

كنت دوماً أخشى الرجال. تجربتي القليلة كانت كافية لأحترس منهم. الرجال مخيفون إن أحبوا أم لا. خاصة أولئك الذين يترددون على هذا المطعم. إنهم يتظاهرون بألطف أنواع التهذيب، يوشكون على التعارك لكي يتنازلوا عن مكان أو لكي يدعوا بعضهم البعض. إنهم يلعبون بشغف caiquant ويفرغون كأساً وراء الأخرى. كما يأكلون بنهم مثل الذئاب ولكنهم يرون عيباً في كل شيء ويوبخون الناس. عندما كنت أقدم لهم الشاي أو المناشف الحارة مطأطئة الرأس كان وجهي يحمر من الخجل. إنهم يتقصدون فتح الحديث معي ويحاولون دفعي للضحك. لكن قلبي لم يكن يميل للمرح. بانتهاء عملي بعد تسع ساعات من العمل أكون منهكة القوى. ماأكاد أصل إلى الغرفة حتى أنام حتى الفجر دون أن أخلع ملابسي. كنت أصحو بمزاج حسن وأنا أظن أنّ عملي يؤمن لي احتياجاتي. ثم أذهب لأبدأ خدمتي في ساعة مبكرة جداً.

-٢٧-

لم تكن «الأولى» تظهر قبل الساعة التاسعة صباحاً، بينما أكون على رأس عملي منذ ساعتين خلت. كانت تتعاطف معي بتعجرف إنما تعلمني دون عداوة: «لست مضطرة للقدوم باكراً جداً، من يأكل في الساعة الثامنة؟ ثم عليك أن تتجنبي الظهور دوماً بهذه الهيئة المأتمية. أنت نادلة. لاأحد يطلب منك أن تقومي بدور النادبة! إذا خفضت رأسك لايقدم لك أحد البخشيش. أنت هنا لتكسبي المال، أليس كذلك؟ رقبتك منخفضة جداً، الفتيات مثلنا عليهن أن يتمتعن بعنق عال جداً وبمناديل حريرية. هذا كل مايعرفه الرجال». كانت نصائحها موضوعية نوعاً ما لكني كنت أعلم أيضاً أنّ رفضي الابتسام كان يضرّ بها بطريقة غير مباشرة. حصتها من البخشيش كانت قد نقصت أيضاً لأن البخشيش يوزع بين الكل. من جهتي لم أكن

أكرهها، على العكس كنت أعجب بها لبعض الاعتبارات. إنها ترغب في كسب المال ولاثمة وسيلة أخرى تلجأ إليها كامرأة. لارغبة لديّ في تقليدها. مع ذلك أتوقع مجيء يوم يقتضي فيه الأمر فوق ذلك أن أتعرض للخطر لكسب معيشتي. لكنني كنت أنتظر أن أكون قد شارفت على الموت. ينتهي طريق المرأة دوماً بدرب مسدود. في أحسن الأحوال لايزال بإمكاني أن أجرجر بضعة أيام على الطريق. هذا الأمر كان يجعلني حانقة، لكنني كنت أحسن كظم غيظي فحياة المرأة ليست ملك لها. مرت ثلاثة أيام ثم وجه لي ربّ العمل تحذيراً: سيحتفظ بي ليومين آخرين تحت التجربة، إنما إذا أردت الاستمرار في العمل عنده، عليّ أن أتصرف مثل «الأولى». تلك الأخيرة قالت لي على سبيل الدعابة والتحذير في آن معاً: «لقد استعلم أحد ماعنك. لماذا تقومين بدور البريئة. لاشيء لدينا لنخفيه. نادلات يتزوجن مدراء مصرف، ليس في هذا مايعيب. ربما تظنين أنك ستغرقين في الرذيلة؟ قولي ذلك صراحة. تباً، يحدث هذا لنا نحن أيضاً أن نتحرك بالسيارة. في هذه المرة أغاظتني بكلامها: متى ستركبين سيارة؟ أضحى لشفتيها تكشيرة بشعة: «عوضاً عن أن تظهري بمظهر الشريفة الأفضل أن تؤدي دورك. ما الفائدة في أنك قد ورثت ردفين معطرين مادمت لاتعرفين كيف تستفيدين منهما؟». كلا، كنت غير قادرة على ذلك. أخذت اليوان والخمسة قروش التي كانت لي وعدت إلى منزلي.

-٢٨-

برغبتي تجنبت الأمر وقمت بخطوة إلى الأمام باتجاه الدرب المسدود المظلم. لم أكن أندم على عملي، لكنني كنت أخشى الظلمات. كنت أعلم منذ أول مغامرة مامعنى أن تبيع المرأة نفسها إلى رجل. ماأن تفتقر المرأة لتحفظها حتى يشعر الرجل بذلك ويستغله باطراد. إنه يقتات على لحمها، ينهشها ويصرعها مثل حيوان، لكنه يطعمها ويلبسها لفترة فقط. ثم يأتي يوم يمكن فيه أن يسيء معاملتها أو يتوقف عن

الإنفاق عليها. حتى عندما نبيع أنفسنا على هذا النحو يمكن أن نشعر بالسعادة للحظات، حيث لاتكون إلا كلمات الحب على شفاهنا. ثم يأتي دور العذاب وخيبة الأمل. عندما تبيع المرأة نفسها لكل الناس مثل أمي، لا نلفظ قط كلمة حب، هذا هو الفرق الوحيد. كل شيء يثير فيّ الفزع بنفس الدرجة. غير قادرة على اتباع نصائح «الأولى»، كنت في أعماقي أقل تهيباً لفكرة رجل وحيد. لكن لست مستعجلة فأنا لاأبلغ من العمر إلا عشرين ربيعاً. في البداية تخيلت أنّ الأمر سيكون رائعاً أن أكون مع رجل دون أن أخشى ما يمكن أن يطالب به على الفور مني. في اليوم الذي ظننت فيه أنني أسترخي للهواء الربيعي، كنت قد استسلمت إلى رجل استغل جهلي. تبع هذا الحلم يقظة حزينة. لم يتبق لي إلا وجبتان في اليوم وبعض الملابس. لاأرغب أن أؤمن قوتي بالحلم. مادام القوت حقيقة واقعة الأفضل أن نكسبه على الشكل الصحيح. لكن عندما لايكون الاختيار بيدنا ونكون امرأة يلزم أن نقبل بذاتنا كما هي وأن نبيعها دون مواربة. بحثت لأكثر من شهر عن عمل دون طائل.

-٢٩-

التقيت بزميلات صفي القدماء، بعضهنّ كان يذهب إلىَ المدرسة الثانوية والأخريات بقين في المنزل. كنت أرغب في تجاهلهن لكن ماأن كنا نثير النقاش حتى كنت أشعر بأنني أكثر ذكاء منهن، على عكس ماكان يحدث معي في المدرسة. على مايبدو أنهن لم يخرجن بعد من دائرة حلمهن. إنهن يتجملن ويتزين مثل بضاعة معروضة على رف. إنهن يغمزن ويبدون مستعدات على الدوام لتأليف قصائد الحب. وهذا مايثير ضحكي. لكن لايمكنني أن أحقد عليهن فهن يأكلن مايسد رمقهن وليس عليهن سوى أن يفكرن بالحب. رجال ونساء يحاولون الوقوع في حبائل بعضهم البعض. الأكثر غنى لديهم الشبكة الأكبر، يمكن أن يلتقطوا فرائس عديدة ويختارون من بينها. ليس لديّ المال ولاحتى مكان أغزل فيه شبكتي.

يلزم عليّ أن أضع يدي على أحدهم مباشرة أو أن أدع غيري يمسك بي. كنت أكثر تجربة وواقعية منهن.

-٣٠-

التقيت في يوم المرأة الشابة التي تشبه تمثالاً من الخزف. لقد أمسكتني من يدي مثلما نفعل مع قريب لنا وكانت هيئتها تبدو كهيئة من فقد عقله: «أنت لطيفة بحق، أنا آسفة كوني طلبت منك أن تتركيه، قالت لي بامتناع، لو أنك ماتزالين معه! لقد أوقع امرأة أخرى في حبائله وهذه المرة كان الوضع أسوأ إذ لم أعد أراه البتة». عندما سألتها عن الأمر، علمت أنهما قد تزوجا بعد قصة حب وعلى مايبدو أنها تكن الحب له إلى الآن. وهذا مامنعها من الرحيل! شعرت بالشفقة عليها، إنها تحلم باستمرار وتظن أنّ الحب مقدس. سألتها عما يجب أن تقوم به: عليها أن تجده ثانية، قالت لي، وستكون وفية له حتى الموت. وإذا لم تعثر عليه؟ عضت على شفتها. لايزال حمواها وأبواها معها، هي ليست حرة. إنها تحسدني لأنني لاأتبع أحداً. إنهم يحسدونني. هذا عجيب جداً! كنت حرة، آه! يالها من مزحة! لديها ماتأكله ولدي حريتي. لاتملك هي حريتها وليس لدي ماأقتات به. كنا نحن الاثنتان امرأتين.

-٣١-

هذا اللقاء أشبع رغبتي في بيع نفسي لرجل واحد. قررت أن أتسلى أو بمعنى آخر أن أعيش حياة التشرد. أسكت أوهامي الأخلاقية. لقد كنت جائعة. يمكن لحياة التشرد أن تقدم القوت لك، ولايمكن أن نستسيغها تماماً إلا إذا أكلنا حتى الشبع. إنها دائرة يمكن أن تنطلق بدءاً من أي نقطة من محيطها. زميلات الصف وتمثال الخزف كن على وجه التقريب مثلي. إنهن يخدعن أنفسهن. أنا ألعب لعبة أكثر صدقاً لأن معدة خاوية هي الحقيقة التي تهم أكثر. إذن، أنا أبيع القليل الذي أملكه. ومـاأن

ارتديت ملابس جديدة حتى أصبحت صالحة للعرض تماماً. ثم ذهبت لأعرض نفسي في السوق.

-٣٢-

كنت أفكر في اللهو أن أكون بوهيمية. كنت أخدع ذاتي. فأنا لاأعرف الحياة بما يكفي. ليس من السهل اصطياد الرجال كما ظننت. كنت أرغب أن يكونوا رقيقين يكتفون ببضع قبلات. للأسف! إنهم لايقعون في الفخ، يريدون أن يداعبوا ثديي منذ اللقاء الأول. أو يدعونني فقط للسينما أو لقطعة من المثلجات خلال نزهة ثم أعود مع جوعي. الرجال الذين ندعوهم بالمثقفين كانوا يسألونني أين أنهيت دراستي وماذا يفعل أفراد أسرتي. فهمت من تصرفهم أنهم لايرغبون بي إلا وفقاً للمغانم التي يستطيعون الاستفادة منها. وإلا فهي قطعة مثلجات ببضعة قروش ثمناً لقبلة. في الواقع، يلزم على البيع أن يتم بصراحة: سأضاجعك إن أعطيتني المال لقد فهمنا الأمر أنا وأمي، أما تمثال الخزف فكلا. غالباً ماأفكر بأمي.

-٣٣-

على مايبدو أنه يمكن لبعضهن أن يكسبن عرق جبينهن عن طريق التشرد. يلزم لتحقيق ذلك رأسمال أولي لم أكن أملكه، واقتضى الأمر أن أرفض هذه الفكرة. استقر رأيي على التجارة المبتذلة. لكن المالك طردني من المنزل حرصاً على صون ماء وجهه. رحلت دون ندم واستقر بي المقام في الغرفتين اللتين كنت أسكن فيهما مع أمي وأبي الجديد. كان جيراني يسخرون من مراعاة التقاليد، فهم أكثر انفتاحاً ولطفاً. بعد هذا الانتقال أصبحت تجارتي مزدهرة أكثر. حتى أنّ رجالاً متعلمين كانوا يقدمون إلى منزلي. الآن بعد أن علموا أنني أبيع أضحوا جاهزين للشراء. على هذا النحو لم يكونوا متضررين ولايسيئون إلى سمعتهم. في المرات

الأولى كنت وجلة جداً، عمري لايتجاوز العشرين سنة. لكن خوفي تلاشى في غضون عدة أيام. عن طريق الممارسة استطاع كل جزء من جسدي أن يتطور ولأنني كنت أتصرف دون تحفظ سرعان ماتعلمت كيف أستفيد من كل شيء: يداي، فمي... لم أوفر شيئاً. وكانوا يحبون ذلك. عندما كانوا ينهارون مثل كومة من الرمل كانوا يشعرون أنهم يحصلون على ذلك بمالهم، وهم راضون بذلك ويقومون بالدعاية لي. حصلت على خبرة عظيمة خلال عدة أشهر. أضحى بإمكاني أن أحكم تقريباً بلا خطأ على أي رجل من النظرة الأولى. كان الأغنياء يطلبون فوراً أسعاري ليبرهنوا على أنهم يستطيعون شرائي. إنهم غيورون ومتحيزون. عندما يكون المرء غنياً يرغب أن يستأثر بكل شيء حتى المومس. كنت أعاملهم دون اعتبارات. غضبهم لم يكن يحرك شعرة من رأسي بل كنت أهددهم بكشف أمرهم أمام زوجاتهم. لم أذهب سدى إلى المدرسة الابتدائية. لديّ مايحميني، للعلم منفعته أيضاً! زبائن أخر كانوا يأتون بيدهم يوان واحد خوفاً من أن يتم خداعهم. كنت أعرض بتفصيل شروطي عن كل خدمة أؤديها، فإذا بهم يعودون بطاعة إلى بيوتهم بحثاً عن المال. كان ذلك مسلياً. الأسوأ هم الماكرون المتشدقون الذين كانوا، غير سعداء من بخلهم في مصروفهم، يحاولون أيضاً الاستفادة من مكسب تافه بجلبهم علبة قديمة من السجائر أو مرهم تجميلي. لكن يلزم أن أتدبر أمرهم إذ لديهم علاقاتهم وهم قادرون على إحضار رجال الشرطة لي. لذلك كنت مهذبة معهم وأشبع رغبتهم وأنا أقول في نفسي أنه في اليوم الذي سأتعرف فيه أنا بدوري على ضباط من الشرطة سيكون حسابهم عسيراً! هذا العالم المحفوف بالنمور والذئاب يكون دوماً الأكثر ضراوة من يربح! أكثر مايثير الشفقة كان أولئك الذين يملكون هيئة طلاب ولايملكون سوى يوان واحد وبضعة قروش في جيبهم. بينما كانوا يخرجون نقودهم كانت حبات العرق تزين أنوفهم. كنت أشفق عليهم لكنني كنت أبيع نفسي لهم بالشروط المعتادة. هل يمكنني أن أتصرف خلاف ذلك؟ هناك أيضاً العجائز، وهم جميعهم مناسبون. ربما لديهم الآن حشد من الأحفاد. لم أكن أعلم تماماً كيف أعاملهم لكن لديهم المال ويرغبون أن يبتاعوا لأنفسهم القليل من اللذة قبل موتهم.

لم يكن بوسعي سوى أن أقدم لهم مايرغبون به. حصلت بفعل هذه التجارب على معرفة هامة عن «الرجل» و «المال». المال مخيف أكثر. الرجل حيوان لكن المال هو الذي يقدم له القوة.

-٣٤-

اكتشفت أنني مريضة. كنت مصابة إلى حد فقدت فيه الرغبة في الحياة. استرحت من العمل وأخذت أتنزه في الشوارع بلا هدف. لديّ شوق لرؤية أمي. إنها تعرف كيف تؤاسيني إذ أرى نفسي قاب قوسين أو أدنى من الموت. مررت بالزقاق حيث كنت قد رأيتها تشعل الموقد على أمل أن ألتقي بها. لكن الحانوت كان مغلقاً ولم يتمكن أحد من إخباري أين رحلت. أججّ هذا الأمر رغبتي في رؤيتها أكثر. شردت لأيام بكاملها في الطرقات مثل روح معذبة إنما عبثاً. تساءلت فيما إذا كانت لاتزال حية أو أنها رحلت على بعد ألفي لي[1] من هنا مع مالك المتجر، ثم بكيت. ارتديت ثوباً جميلاً وتزينت ثم تمددت على سريري انتظاراً للموت مقتنعة أن الانتظار لن يكون طويلاً. لكنني لم أقض نحبي. طرق على الباب. إنه زبون. حسن، سوف أخدمه وأبذل قصارى جهدي في أن أنقل له مرضي دون أن أشعر بأي تأنيب للضمير، فهذا ليس ذنبي. شعرت بحالي أفضل من جديد. دخنت، شربت. كنت أبدو في الثلاثين أو الأربعين من عمري. لديّ حلقات سوداء حول عيني ويداي ترتجفان دوماً، لكن ذلك سيان عندي. يلزم المال من أجل العيش والبدء بالأكل حتى الشبع كي أتمكن بعد ذلك من التفكير بشيء آخر. تناولت طعاماً وفيراً. من لايفعل ذلك إذا ماسنحت له الفرصة! هذا واجب عليّ مثلما هو واجب أن أرتدي مايليق: إنها الطريقة الوحيدة التي تجعلني أتماسك معنوياً قليلاً.

---

(١) قياس للمسافة يعادل اليوم ٥٠٠ م وأكثر من ٦٠٠م في العصر الجمهوري.

-٣٥-

في أحد الأيام نحو الساعة العاشرة كنت جالسة وقد ألقيت ثوباً فوق كتفيّ عندما سمعت خطوات في الباحة. إنها الساعة التي أستيقظ فيها، لكني لاأرتدي ملابسي قبل الظهيرة. أصبحت خاملة جداً في الأوقات الأخيرة وأستطيع البقاء ساعة أو اثنتين جالسة وحيدة على هذا النحو أحدق في الفراغ دون أن أفكر في شيء. اتجهت الخطوات نحو بابي ببطء وهدوء. سرعان مارأيت عينين تنظران عبر المربع الزجاجي الصغير للباب، ثم تختفيان. بقيت في مكاني. أشعر بارتخاء شديد يمنعني عن الحركة. بعد لحظة عادت العينان للظهور. انتهى بي الحال للوقوف وفتح الباب قليلاً: «أمي!».

-٣٦-

لاأعرف كيف دخلنا إلى الغرفة وكم من الوقت بقينا نذرف الدمع. بدت الشيخوخة على أمي بشكل مريع. عاد الحانوتي إلى قريته دون أن يخطرها بذلك أو يترك لها قرشاً. باعت كل ماتبقى لديها وتركت الحانوت لتستقر في باحة مكتظة بالسكان. وبعد أن بحثت لأكثر من خمسة عشر يوماً خطرت لها فكرة المجيء إلى هنا، دون كبير أمل، فقط لترى وكنت هنا! لقد ترددت في معرفتي ولو لم أنادها، لربما كانت قد عاودت الرحيل. بعد أن أفرغنا جعبتنا بالبكاء أخذت أضحك مثل مجنونة. ابنتها التي عثرت عليها أخيراً كانت مومساً. لقد كانت كذلك لتقوم بأودي، وسأستمر في أن أكون كذلك لأستطيع إطعامها أنا بدوري. إني أمارس مهنة متوارثة، إنه تخصص في عائلتنا!.

-٣٧-

كنت أتأمل أن تقول لي أمي كلمات تعزية حتى لو لم تعنِ شيئاً. لاأحد كالأم يعرف كيف يخدع. إن أحاديثها الكاذبة هي التي تخفف ألمنا. كانت أمي قد نسيت هذا الأمر. بما أن فكرة الجوع كانت تلازمها لم أكن أحقد عليها. بدأت على الفور بجرد ممتلكاتي، تسألني حول أطباقي وإيراداتي دون أن يبدو عليها أنها تفاجأت من مصدر مدخولاتي. بحت لها بأني مريضة على أمل أن تحثني على الاستراحة لبضعة أيام. كلا. قالت لي بكل بساطة أنها ستذهب لشراء الأدوية. «هل سنقوم بهذه المهنة إلى الأبد؟». سألتها. لم تنبس بحرف. لكنها كانت تحبني حقاً وتريد أن تحميني بطريقتها الخاصة. أخذت تهيىء لي الطعام، تستعلم عن حالتي الصحية وغالباً ماكانت تنظر إلي في الخفاء كما تنظر أم إلى طفل رضيع نائم. بالمقابل، كانت ترفض أن تقبل بإمكانية وقف أعمالي. مع أنني كنت أحقد عليها قليلاً، كنت أعلم حق العلم أنه لامجال بالنسبة لي أن أجد عملاً آخر. يلزم قبل كل شيء من أجلها كما من أجلي أن نحيا. إن كانت هي الأم أو أنا الفتاة، المال يجهل المشاعر.

-٣٨-

كانت أمي تحوطني برعايتها غير أنها لم تتمكن من ألا تسمع أو ترى الرجال الذين كانوا ينصبون علي. كنت أرغب أن أكون لطيفة معها، لكني كنت أجدها في غالب الأحيان لاتطاق. إنها تريد أن تسيطر على كل شيء خاصة المال، الوحيد فقط إلى الآن الذي يمكنه أن يجعل عينيها الذابلتين بفعل العمر تلمعان. لقد جعلت من نفسها خادمة لي أمام زبائني، وكانت تشتمهم في حال دفعوا القليل من المال. يشق علي ذلك أحياناً. صحيح أنني أقوم بذلك من أجل المال، لكن هل هذا سبب كاف لأكون فظة مع الناس؟ يحدث لي أحياناً أنا أيضاً أن أهمل الزبون، غير أنني أتصرف

طبقاً للأصول. لايمكن أن نسيء معاملته. أمي كانت خرقاء تسيء إلى الناس بسهولة. والحال هذه لايمكننا أن نسمح بذلك نظراً لنقودهم. كنت أتصرف على هذا النحو لأنني كنت ماأزال شابة، سليمة النية بما فيه الكفاية. أما أمي فلم تكن تفكر إلا بالمال بسبب عمرها. كنت أخشى أن أصبح مثلها خلال بضعة سنين وأرى قلبي يشيخ مع الزمن ويضحي قاسياً شيئاً فشيئاً مثل المال نفسه. هذا صحيح، أمي لم تكن مهذبة. كانت تستولي عند الحاجة على حافظة نقود أحد الزبائن أو تحتفظ بقبعته أو أي شيء آخر له قيمة مثل قفازيه أو عكازه. كنت أخشى أن يجلب لنا ذلك المتاعب، لكن كما تقول أمي رأيها وفيه كل الصواب: «كل شيء نأخذه ينفع. في عام واحد نشيخ عشر سنين. من يرغب بك بعد عدة سنوات، عندما يبدو عليك أنك تبلغين الخمسين؟ إذا كان الزبون ثملاً كانت تخرجه وتجره إلى مكان قصي وتستولي حتى على حذائه. ماكان غير متوقع أن هؤلاء الرجال لم يكونوا يطالبون البتة بمستحقاتهم، إما لأنهم لايتمكنون من تذكر أي شيء، أو لأنهم وقعوا صرعى المرض. أو أن ذكرى الحادثة تخجلهم ولايريدون خلق المشاكل. نحن لانخشى أن نفقد ماء وجهنا، أما هم فنعم.

-٣٩-

كانت أمي محقة. في عام واحد نشيخ عشر سنين. لاحظت كم تغيرت خلال سنتين أو ثلاث. أصبح جلدي خشناً وفقدت عيناي كل بريق كما أضحتا مخضبتين بالدماء. حاولت الاستيقاظ متأخرة جداً، لكن ذلك كان بلا فائدة إذ كنت أفتقر دوماً إلى الحيوية. لم أكن الوحيدة التي لاحظت ذلك. زبائني أيضاً لم يكونوا عمياناً. أخذ المترددون المعتادون يقلون أكثر فأكثر. كنت أجهد نفسي مع الجدد، لكنهم كانوا يزدادون اشمئزازاً مني أكثر ولاأتوصل إلى السيطرة على نفسي. كنت نزقة وأقول أي شيء، لم أعد كسابق عهدي. رغماً عني كنت أدع نفسي تقول الترهات. لم يعد الرجال المتعلمون يترددون علي إطلاقاً. فأنا كنت قد فقدت لطافتي وسحري. لم أعد «العصفور الصغير الذي يعشعش في باطن يدهم» لأعيد الجملة الوحيدة

الشعرية في قاموسهم. كان يلزم علي أن أقلد العاهرات من الحثالة وأن أرتدي ثياباً شائنة لأجذب الفظين. إن فمي المصبوغ يبدو كرمانة حمراء قانية. كنت أعضهم بكل قوتي وكان ذلك يلذ لهم. أحياناً كنت أرى نفسي ميتة وانتظر الموت. مع هذه الفكرة في رأسي لم أعد أفكر في شيء آخر وأعيش يوماً بيوم. كانت أمي هي ظلي، صورة أفضل ماسأكون عليه في يوم. عندما يقوم المرء بتجارة الجسد خلال حياته، لايبقى أمامه في النهاية إلا خصلات شعر أبيض وجلد أسود تملأه التجاعيد كلية. هكذا هي الحياة.

-٤٠-

كنت أجبر نفسي على الضحك. تظاهرت بالجنون. بكيت دون أن يخفف ذلك عني. لاشيء أحسد عليه في حياتي ومع ذلك أتشبث بها. فوق ذلك لم أكن مسؤولة عما كنت أقوم به. لايفسر الخوف من الموت عندي إلا بحب الحياة. آلام النزاع لم تكن تخيفني، ماكنت أقاسيه كان أكثر قسوة. أحببت الحياة وأردتها شيئاً مختلفاً، . لكن حلمي بحياة مثالية قد ترك مكانه على الفور لحقيقة أقبح من كابوس في حياة جهنمية. لمعرفتها بعمق تعاستي نصحتني أمي بالزواج. سآكل حتى الشبع وستكون هي مطمئنة على أيامها المسنة. كنت أملها، لكن من يرغب في الزواج مني؟

-٤١-

لقد عرفت العديد من الرجال حتى نسيت معنى الحب. لم أحب إلا ذاتي. لكني لم أعد أستطيع ذلك بعد الآن. لماذا أحب شخصاً آخر؟ إذا كنت أبحث عن الزواج، يلزم علي أن أتصنع الحب وأدعي رغبتي في الحياة مع ذلك الرجل حتى نهاية أيامي. قلت ذلك لأكثر من شخص مع وعود قاطعة، لكن لم يرغب أحد بي.

الرجال ماكرون عندما يتعلق الأمر بالمال. إنهم يفضلون العلاقات العابرة للمومسات فهذا يكلفهم أقل! لو لم أكن بحاجة للمال لكان الجميع قد أكد لي بأنهم يحبونني. كنت على يقين من ذلك.

-٤٢-

عند هذه المرحلة ألقى رجال الشرطة القبض عليّ. الحاكم الجديد للمدينة كان محامياً نشيطاً عن الأخلاق يرغب في إلغاء الدعارة السرية. يمكن للمومسات في الماخور أن يتابعن أعمالهن لأنه إذا كان المرء يدفع الضرائب، يكون إلى جانبه كامل الحق والأخلاق. تم وضعي في بناء لإعادة التأهيل حيث تم تدريبي على العمل. كنت سلفاً أعرف كيفية الغسيل والطبخ والخياطة والحياكة. لو كانت هذه المعارف تسمح أن أكسب المال، لكنت منذ زمن بعيد قد تركت هذه المهنة القاسية. قلت لهم ذلك، لكنهم لم يصدقوني وأكدوا أنني لاأنفع لشيء وأنني فاسقة. مع أنهم لم يكونوا سعداء بتدريبي على العمل، كانوا يدعون أنه يلزم عليّ أن أحب عملي لأنّ حب العمل سيسمح لي أن أؤمن احتياجاتي وربما يساعدني على الزواج. لم أكن أشاركهم تفاؤلهم. حصيلتهم الأكثر عقلانية كانت أن يعيدوا تأهيل عشرات النساء وأن يزوجونهن. لكي تأتي إلى هنا بحثاً عن امرأة يكفي أن تدفع يوانين لمصاريف الزواج وأن تقدم الضمانات العقارية الصحيحة. هذا مربح على الأقل بالنسبة للرجل. برأيي كان هذا تهريجاً. كنت أرفض بكل صدق أن أعيد تأهيلي. بصقت في وجه موظف مرموق جاء يتفقد أحوالنا. رفضوا أن يطلقوا سراحي لأني كنت خطرة وصرفوا النظر عن فكرة إعادة تأهيلي. لقد أرسلوني إلى السجن.

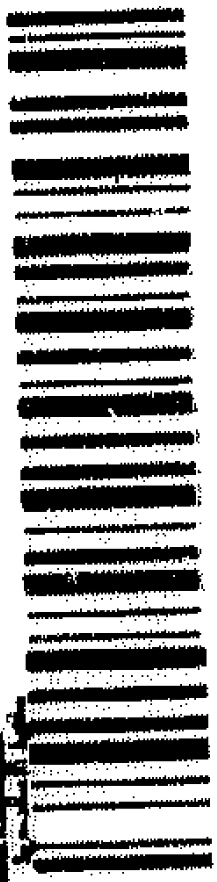
-٤٣-

السجن هو المكان المثالي ليقنعك أنّ الإنسانية لاتتقدم إطلاقاً. حتى في الحلم لم أكن قد شاهدت في يوم مكاناً قذراً مثله. لكنني فيه ولاأفكر في الخروج منه. إذا كنت أؤمن بتجربتي لايكون حال العالم الخارجي أفضل منه أبداً. لن تكون الرغبة في الموت قد ساورتني لو عرفت مكاناً أكثر ترحيباً يمكنني الذهاب إليه. بما أنه غير موجود لايهم أين ألفظ أنفاسي الأخيرة. هنا على الأقل شاهدت من جديد للمرة الأولى منذ زمن بعيد صديقي القديم، الهلال. ماذا تفعل أمي؟ بقيت مع ذكرياتي.

الفهرس

٢٠٠٠ ط١/١/٢٠٠١





الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق - ٢٠٠١

سعر النسخة داخل القطر

١٣٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعا

٢٧٠ ل.س